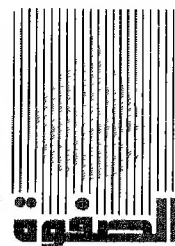


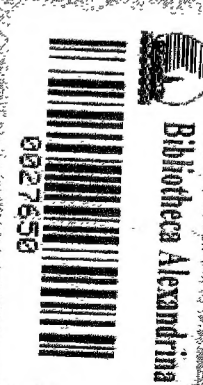
مصطفى طغی بنفوطی



المعبر الفضيلة



قدم لها بدراسة
الدكتور طه وادي



الشركة المصرية العالمية للنشر - لوحيان



الصفوة

◦ العبارات

◦ التفضيلة

أول
بول وقرصيني



مصطفى لطفي المنفلوطي

المعبرات
الفضيلة
بول وقرصيني

تحقيق وضبط

إدارة النشر العربي

قدم لها بدراسة

الدكتور طه وادي

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان



المحتويات

الصفحة	الصفحة
أ	كلمة الناشر
١	أدب المنفلوطي :
	الإشكالية والواقع ، دراسة أعدها
	الدكتور طه وادي
١١٠-٣٣	العبرات :
٣٥	البيتيم « موضوعة »
٤١	الشهداء « مترجمة »
٤٩	الحجاب « موضوعة »
٥٦	الذكرى « مترجمة »
٦٣	الهاوية « موضوعة »
٦٨	الجزء « مترجمة »
٧٤	العقاب « موضوعة »
٨٢	الضحية « مترجمة »
١١١-١٨٨	الفضيلة
	أوبول وفرجينى
١١٣	(١) جزيرة موريس
١١٤	(٢) الشيخ
١١٥	(٣) مدام دي لانور
١١٦	(٤) مرغريت
١١٩	(٥) الحياة الطبيعية
١٢١	(٦) حياة الطفولة
١٢٥	(٧) العزاء
١٢٦	(٨) الاستعمار الأوربي
١٣٣	(٩) السعادة
١٣٤	(١٠) العمل
١٣٥	(١١) التاريخ
١٣٦	(١٢) مخدع فرجينى
١٣٨	(١٣) ليالى الشتاء
١٤١	(١٤) آدم و حواء
١٤٤	(١٥) الخفقة الأولى
١٤٨	(١٦) الرسالة
١٥٠	(١٧) الوداع
١٥٧	(١٨) السفر
١٦١	(١٩) أوروبا
١٦٤	(٢٠) الطبيعة
١٦٨	(٢١) الحديث
١٧١	(٢٢) السفينة
١٧٤	(٢٣) العاصفة
١٧٤	(٢٤) الكارثة
١٧٨	(٢٥) أحزان بول
١٨١	(٢٦) الموت
١٨٢	(٢٧) الإيمان
١٨٥	(٢٨) النهاية
١٨٦	بول وفرجينى

كَلِمَةُ النَّاشِرِ

« الصَّفْوَة » سِلْسِلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ سَلْسِلِ الشَّرَكَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ لِلنَّشْرِ - لُونْجَمَان ، تُضَافُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَتُرْمَى إِلَى نَشْرِ صَفْوَةِ أَعْمَالِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي مُخْتَلَفِ الْعُصُورِ .

فَمِنْ بَيْنِ أَعْمَالِ أَيْ مُؤَلِّفٍ عَلمٍ ، مُكثِرًا أَمْ قَلِيلًا ، ثَمَّةُ أَعْمَالٍ تَتَمَيَّزُ وَتَدِيْعُ ، وَتَتَعَدَّدُ طَبَعَاتُهَا ، وَتَحْظَى بِنَصِيبٍ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالذَّبِيعِ يَفُوقُ غَيْرَهَا مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَلَا مَرِيَّةَ فِي أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ سَتَظَلُّ أَبَدًا حَيَّةً فِي وَجْدَانِ الْقَارِئِ .

هَذِهِ الْأَعْمَالُ سَوَفَ تَتَّاحُ لِلْقُرَّاءِ فِي سِلْسِلَةِ « الصَّفْوَةِ » فِي صَوْرَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ حَيْثُ مَنَظَرُهَا وَمَخْبَرُهَا . وَهِيَ ذِي « النَّظَرَاتِ » وَ « الْعَبْرَاتِ » وَ « الْفَضِيلَةِ » أَوْ بُولِ وَفَرْجِينِي « لِمَصْطَفَى لُطْفِي الْمُنْقَلُوطِي ، نَسْتَهْلُ بِهَا سِلْسِلَةَ « الصَّفْوَةِ » فَتَقْدُمُهَا لِلْقُرَّاءِ فِي حُلَّةٍ قَشِيَّةٍ آيَةِ الْمَنَظَرِ الْجَدِيدِ .

أَمَّا الْمَخْبَرُ فَأَيْتُهُ النَّصُّ الَّذِي قَامَ مُحَرَّرُو إِدَارَةِ النَّشْرِ الْعَرَبِيِّ بِالشَّرَكَةِ ، بِتَحْرِيرِهِ وَتَصْحِيحِهِ وَتَحْقِيقِهِ تَحْقِيقًا دَقِيقًا ، وَتَعْلِيقٍ مَا يَلْزَمُ مِنْ حَوَاشٍ بِالتَّعْقِيبَاتِ وَشُرُوحٍ مَا قَدْ يَغْمُضُ مِنْ مُقَرَّدَاتٍ ، وَكَذَلِكَ ضَبْطُ الْأَشْعَارِ ضَبْطًا نُحْوِيًا وَعَرُوضِيًا ، وَضَبْطُ مَوَاطِنِ اللَّبْسِ فِي الْمَثْنِ وَالْحَوَاشِي ، فَضْلًا عَنِ التَّرْجُمَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي رُبِّيَ التَّرْجُمَةُ لَهَا .

وَقَدْ قَامَ الدُّكْتُور طَه وَادِي ، أَسْتَاذُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ بِكُلِّيَّةِ الْآدَابِ بِجَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ ، بِإِعْدَادِ دِرَاسَةٍ قِيَمَةٍ عَنِ الْمُنْقَلُوطِي وَأَدَبِهِ زَيْنَ بِهَا صَدَّرَ هَذِهِ الطَّبْعَةَ .

إِنَّ التَّارِيخَ الْبَيُولُوغَرَفِيَّ لِكِتَابَتِي « الْعَبْرَاتِ » وَ « الْفَضِيلَةِ » طَوِيلٌ ؛ إِذْ يُبْدَأُ عَامَ ١٩١٥ عِنْدَمَا صَدَرَتِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى مِنْ « الْعَبْرَاتِ » ، عَلَى حِينِ صَدَرَتِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى مِنْ « الْفَضِيلَةِ » عَامَ ١٩٢٣ ، وَتَتَابَعَتِ طَبَعَاتُهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى الْيَوْمِ .

هَذِهِ هِيَ « الْعَبْرَاتُ » وَ « الْفَضِيلَةُ » ، فَإِلَى الْمُلْتَقَى مَعَ كِتَابٍ آخَرَ فِي « الصَّفْوَةِ » .

وجدي رزق غالي

مدير النشر العربي

الشركة المصرية العالمية للنشر - لُونْجَمَان

أدب المنفلوطي

الإشكالية و الموقع

دراسة أعدها

الدكتور طه وادي

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١ - مدخل وإشكالية

يُعدُّ مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) واحداً من الأدباء الكبار ، الذين أسهموا بدور مؤثر في تطور النثر العربي الحديث ، لا في مصر وحدها وإنما على صعيد الوطن العربي كله من المحيط إلى الخليج . إن الناقد الأدبي حين يتأمل هذه الظاهرة اللافتة - ظاهرة التأثير القوي لأدب المنفلوطي - يجد أنها ظاهرة أدبية فريدة تدعو إلى قدر من التساؤل والتفكير ، وإلى قدر آخر من الدهشة التي تحتاج إلى تفسير ؛ ذلك أن التفكير في دور المنفلوطي الأدبي يثير لدى الناقد - بدهاءة وابتداءً - قضايا ثقافية هامة ، مثل :

(١) أنه كان حريصاً على التمسك بتقاليد مجتمعه الصعيدي وقيمته ، ويدعو إلى الإصلاح الاجتماعي ، وإلى مناصرة البؤساء ومساندة الفقراء ، وإلى ما هو أخطر من هذا - يدعو إلى تعليم المرأة ، والدفاع عن حق الإنسان في الحياة والعيش الكريم : « ... كأنما كنتُ أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلاً .. »^(١)

وهو يرثي لحال المرأة قائلاً : « إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقاؤها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها . إنها لا تحسن عملاً ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها ... »^(٢)

(٢) وهو مع كونه أزهرياً معممًا حرص - طوال حياته - على زيه العربي وعمامته وقفطانه وعباءته ، كان داعية إلى « الحب » ، وكان يؤكد في كل ما كتب على أهمية السعادة العاطفية ، كأنما لم يخلق الإنسان إلا من أجل الحب ، والعاطفة : « يا مائدة الحب العظيمة ، هنيئاً للذين يذوقون طعمك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كئوسك ... »^(٣) بل إنه يرى أن الحب يجب أن يُعلم وأن تلقى فيه المحاضرات ؛ إذ : « ليس في الفنون ما هو أحق بالمحاضرات من الحب ».^(٤)

(٣) كيف يُمكن لأديب « محافظ » تعلّم في الأزهر ، وتغذى فكره وخياله على ثقافة التراث العربي دون سواها ، وكان يصدر في كل ما كتب مستلهماً - بقوة - عبير هذه الثقافة التراثية : مضموناً وشكلاً ، قيماً وأساليب ، صوراً وتراكيب - أن يعدُّ رائداً من رواد التجديد الأدبي ، ويحقق للأدب ما عجز عنه بعض المثقفين ثقافة أوربية حديثة ؟ من هنا مضى بالدعوة النظرية والإبداع المتحقق يحارب التمسك بالألفاظ المعجمية الغريبة ، وقواعد البلاغة الشكلية ، مؤكداً أن الأدب الجيد ليس باللفظ أو البلاغة ، وإنما بالقدرة على التعبير عن المعنى : « أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ... أوصفهم لحالات نفسه ، أو أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً ، كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً أو يضعه في أيديهم وضعاً ».^(٥)

(١) مصطفى المنفلوطي : النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لوتجمان ، ١٩٩١ . ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٣) المنفلوطي : الشاعر ، أو سيرانو دي بروجراك . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ١٢٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠١ . (٥) المنفلوطي : النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لوتجمان ، ١٩٩١ . ص ٦ .

(٤) لم يكن المنفلوطي كاتباً روائياً ولا أديباً قصصياً ؛ لأنه كان في المقام الأول « كاتب مقال » و « معرباً » بتصرف واسع لبعض الروايات والقصص . لكنه مع ذلك صنع للرواية العربية ، في مصر وكل أقطار الوطن العربي ما عجز عن صنعه أيُّ كاتب من كتّابها الحقيقيين ؛ ذلك أن فن « الرواية » كان يُوصف بوصمة ازدراء واحتقار لمن « يتجرأ » ويقوم بكتابتها . غير أنه استطاع أن « يطهر » فن الرواية من الرجس والندس والازدراء والنظرة الدونية ، التي كانت الرواية موصومة بها هي ومن يجرؤ على كتابتها ^(١) .

إن المنفلوطي ، رغم قصر عمره (مات دون الخمسين) ، وقلة عدد أعماله الأدبية : مؤلفة ومترجمة (سته) ، و تقارب محاورها الفكرية وأساليبها التعبيرية ، كان أشد تأثيراً في معظم الذين أصابته حرفة الأدب : شعراً ونثراً - خلال النصف الأول من القرن العشرين . وأكثر الناس تأثراً به هم كتّاب الرواية ، يتساوى في ذلك الواقعيون المجددون ، أمثال نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرفاوي ؛ والرومانسيون التقليديون ، أمثال محمد عبد الحليم عبد الله و يوسف السباعي . أكثر من هذا أنه أقوى الأدباء العرب - قاطبة - انتشاراً وقراءة ؛ فقد طبعت بعض أعماله حتى اليوم حوالي ثلاثين مرة . ولم يكن أدب المنفلوطي مقروءاً فحسب ، وإنما كان الكثيرون يحفظونه عن ظهر قلب ، يتساوى في ذلك الأدباء والهواة ، الرجال والنساء ، الشباب والشابات ؛ بل إن كثيراً من عبرات العيون وخطرات القلوب ، قد تفاعلت وانفعلت مع أبطال المنفلوطي وبطلاته ، الذين كانوا ينشدون « الفضيلة » « تحت ظلال الزيزفون » ، ويذرفون « العبرات » ويناقشون الآراء و « النظرات » ، ويضحون بالحياة « في سبيل التاج » - تاج حرية الوطن !

وهذا يعني أن معظم قراء المنفلوطي كانوا يرون في أدبه انعكاساً لبعض همومهم الخاصة ومهامهم العامة ، ويبدو أنه هو نفسه كان صادق الحس فيما يعبر عنه بالنسبة لقرائه وجمهوره ؛ لذلك لم يكن غريباً أن يكتب في إهداء كتاب العبرات : « الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي ، أن يحشو شيئاً من يؤسهم وشقائهم ، فلا أقلّ من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات ؛ علّهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى .»

من هذا كله يتضح أن أدب المنفلوطي ، حتى بعد هذه الفترة الطويلة نسبياً من وفاته (١٩٢٤) ، يشير (إشكالية) ، تحتاج إلى تفسير موضوعي ، يبين كيف استطاع ، رغم كل ما قدّمناه من احتراسات ، أن يشغل الواقع الثقافي ، ويؤثر في الإطار الأدبي منذ كتب حتى اليوم .

ومما لا ريب فيه أن الظواهر الثقافية ظواهر (معقدة) ، تحتاج إلى وعي شامل بكل ما يشكلها ويحيط بها وينتسب إليها ، حتى يتسم تفسيرنا لهذه الإشكاليات بقدر من الحياد العلمي المفترض في الناقد الموضوعي ، الذي ينبغي أن يكون مثل القاضي : واعيّاً في طرح أسئلته واستفساراته ، نبيلاً في

(١) من المعروف أن محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦) مؤلف أول رواية ناضجة في الأدب العربي الحديث قاطبة . وهي رواية « زينب » - عندما نشرها ، أول مرة سنة ١٩١٤ ، خشي أن يكتب اسمه عليها ، ولم يجرؤ على نسبتها إلى نفسه إلا عد الطبعة الثانية سنة ١٩٢٨ . فقد خاف أن « تجني صفة الكاتب القصصي على اسم المحامي . . . » ، لذلك نشرها باسم مستعار هو : « مصري فلاح » . (محمد حسين هيكل . زينب - مناظر وأخلاق ريفية . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ . ص ٧)

٣ الواقع الكرثفالي

غايتة ومقاصده ، دقيقاً في أدلته وشواهد ، عادلاً في آرائه وأحكامه . وحتى يتحقّق للنقاد ذلك ، لا بُدّ أن يكون على معرفة شاملة بالواقع ، الذي تشكلت في رحمته الظاهرة الأدبية ، وبالقيمة الحقيقية التي يمثلها تراث الأديب الذي يدرسه ، وبالتأثير الذي أحدثه في مسيرة النوع الأدبي الذي يبدع فيه .

* * *

٢- الواقع الكرثفالي

مما لا ريب فيه أن المنفلوطي بدأ يثبت وجوده ، ويحقق حضوره - بقوة - في الواقع الثقافي ابتداء من سنة ١٩١٠ تقريباً ، فقد صار معروفاً للجميع بأنه « المحرر العربي » الأول ، لأيّ وظيفة يتقلدها سعد زغلول . كما أصبحت الجرائد والمجلات تتسابق في نشر مقالاته وقصصه المؤلفة والمترجمة . ثم أخذت كتيبه تتوالى في الصدور منذ نشر الجزء الأول من « النظرات » سنة ١٩١٠ .

ويدو أن حركة المنفلوطي كانت تواكب حركة واقعه العام من حيث النهضة والارتقاء والرغبة في تحقيق التقدم ؛ فقد نشطت حركة المجتمع المصري ، الذي بدأت فيه « الطبقة الوسطى » الوليدة ، تأخذ دورها في القيادة باعتبارها « صاحبة المصلحة الحقيقية في البلاد »^(١) . كما بدأت مصر تشهد قيام أحزاب سياسية مثل الحزب الوطني ، وحزب الأمة ، وحزب الإصلاح ، على المبادئ الدستورية . وإذا كانت بعض هذه الأحزاب لم تستمر ولم تؤد دوراً مؤثراً ، فإن هناك أحزاباً أخرى أكثر أهمية ، بدأت تقوم بدور أكبر خطورة في حركة الواقع ؛ فبعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ ، ظهر أهم حزبين في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وهما :

١- حزب « الوفد » بقيادة سعد زغلول ثم مصطفى النحاس ، وكان يصدر جريدة « الوفد » .

٢- حزب « الأحرار الدستوريين » بقيادة عدلي يكن ، ثم عبد الخالق ثروت ، ومحمد حسين هيكل ، وكان يصدر جريدة « السياسة » .

كما بدأت الحركة السياسية تنشط بسبب كثرة التنظيمات من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب ظهور بعض الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تعرّضت لها البلاد في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد صاحب هذه الحركة السياسية الملتته ا ازدهارة صحفية وثقافية وطباعية - ربما - أكثر صحياً وتأثيراً ؛ فقد زاد عدد الصحف والمجلات السياسية والأدبية والثقافية العامة ، كما قويت حركة الترجمة ، و اتسع مجالها لتشمل معظم ميادين الفكر والأدب والعلم . كما أن التأليف ، ولا سيما التأليف الأدبي في الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح النثري والشعري ، قد زاد الإنتاج فيه بصورة لافتة . وقد واكبت هذه الحركة الأدبية حركة نقدية نشطة ، يقودها بعض النقاد والأدباء وبعض أساتذة الجامعة المصرية الوليدة أمثال : خليل مطران ، و عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد

(١) طه وادي : شعر ناسي ، الموقف والأداة . ط ٣ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٠ . ص ٢١ .

٤ الواقع الكرنفالي

القادر المازني ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد المويلحي ، وعبد العزيز البشري ، ومحمد الخضر حسين ، ومصطفى لطفى المنفلوطي ، وأحمد زكي أبو شادي ، وغيرهم .

كما أن هذه المرحلة بدأت تشهد لأول مرة - أيضاً - ظهور بعض الجماعات الأدبية ، مثل شعراء « مدرسة الديوان » وهم عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري ، ومبايعه أحمد شوقي بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ ، ثم قيام جماعة « أبوللو » سنة ١٩٣٢ .

ولم يكن الأدب والنقد يسيران وحدهما في هذا الموكب الاحتفالي ، وإنما كانت هناك أيضاً نهضة في المسرح الدرامي والغنائي بجهود فرق كل من سلامة حجازي ، وسليمان الحداد ، وأبو خليل القباني ، وأولاد عكاشة ، وجورج أبيض ، وعبد الرحمن رشدي ، وأمين صدقي ، ونجيب الريحاني ، وعزيز عيد ، وسيد درويش .

وقد شارك في التأليف للمسرح في هذه المرحلة : إبراهيم رمزي ، و أحمد شوقي ، و أنطون الجميل ، و بديع خيرى ، و توفيق الحكيم ، و فرح أنطون ، و محمد تيمور .

كذلك شهدت هذه المرحلة نهضة فن الغناء ، حيث انتقل من وسيلة للترفيه عن السكاري والعابثين إلى فن محترم ، يقوم على كلمة مهذبة ، ولحن جيد ، وأداء معبر . كما خرج الغناء من إطار التعبير عن العاطفة إلى القيام بدور وطني ، يسهم في إذكاء جذوة الحماسة في كثير من المعارك والمناسبات العامة . وقد اضطلع ببعض هذا العبء في مجال تطوير الغناء فنانون كبار أمثال حامد مرسي ، ومنيرة المهدية ، وسلامة حجازي ، وسيد درويش ، ثم محمد عبد الوهاب ، والسيدة أم كلثوم .

بل إن أمر النهضة الثقافية والفنية قد تعدى كل ذلك إلى الفن التشكيلي ، حيث ظهر الفنان العظيم محمود مختار ، الذي أعاد بروائعه الفنية - مثل تمثال نهضة مصر وسعد زغلول والفلاحة وضريح سعد وغيرها - إلى الأذهان شذى عبقرية الفنان الفرعوني القديم .

كما أن الجامعة المصرية التي تأسست سنة ١٩٠٨ أخذت تؤثر في نواحي الحياة كافة ، سواء على مستوى الأساتذة أو الخريجين أو الطلبة .

ألسنا على حقّ - إذن - حين نقول : « إن الواقع المصري كان يشهد مؤكّبا كرنفاليا على كل المستويات »؟ نعم كانت الحياة قاسية في ظل الاحتلال والقصر ، وعدم وضوح الرؤية - بقدر كافٍ - أمام بعض التنظيمات السياسية العلنية والسريّة .

ولكن كان هناك برلمان ، ودستور ، وأحزاب ، وصحافة ، وجامعة ، ومجلات ، وحركة طباعة ونشر ، وأدب ، ونقد ، ومسرح ، وسينما ، وفن تشكيلي ، وغناء ، وإذاعة .

في إطار هذا الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري والفني ، الذي يزخر بموكب النهضة والتقدم على كل المستويات ، كأنما تحوّل الواقع كله - على حدّ تعبير الناقد الروسي « ميخائيل باختين » - إلى احتفال كرنفالي صاخب ، تتحول بعض عناصره إلى تقاليد أدبية وتقنيات إبداعية ، تمثلت في أعمال كثير من أدباء العصر وفنانيه .

ويبدو أن هذه الحركة ، حركة موكب الاحتفال الكرنفالي للواقع ، قد أسهمت في نشأة الرواية الحديثة ، التي شارك فيها المنفلوطي بدور ما ، وهذه قضية تحتاج إلى وقته خاصة في بحث نقدي آخر .

* * *

٣- جدل الموقف والأداة بين « النظرات » و « العبرات »

هناك مجموعة من الشخصيات في تاريخنا الأدبي الحديث ، احتلوا - دون سواهم - منزلة ، لم يصل إليها أحد في إطار النوع الأدبي ، الذي يبدعون فيه ، بل إنهم يعدّون « عباقرة » ذلك المجال ، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يتجاوزهم أو يلحق بشهرتهم . وهذه الشخصيات العبقريّة ، هي :

١- أحمد شوقي : في الشعر .

٢- توفيق الحكيم : في المسرح .

٣- طه حسين : في الدراسة الأدبية .

٤- نجيب محفوظ : في الرواية .

٥- يوسف إدريس : في القصة القصيرة .

٦- مصطفى لطفي المنفلوطي : في المقالة الأدبية .

المنفلوطي - إذن - أشهر كاتب مقالة أدبية في العصر الحديث ، ولم ينل أحد قبله أو بعده ، مثل ما نال من شهرة وانتشار ؛ حيث إن تراثه الأدبي - ومنه مقالاته - لا يزال يُعاد طبعه ، ويجد جمهوراً قارئاً حتى اليوم .

وقد اختار المنفلوطي من مقالاته المختلفة التي نُشرت في بعض الجرائد ، ومن أهمها جريدة « الصاعقة » التي كان يرأس تحريرها أحمد فؤاد ^(١) ، وجريدة « المؤيد » التي كان يرأس تحريرها الشيخ علي يوسف ^(٢) ، بعض المقالات ، وأعاد نشرها في كتابه « النظرات » بأجزائه الثلاثة ، التي صدرت طبعاتها الأولى في السنوات : ١٩١٠ و ١٩١٢ و ١٩٢١ . ويمكن أن نضيف إلى « النظرات » كتاب « العبرات » ، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٥ . ورغم أن محتوى « العبرات » مختلف عن « النظرات » ؛ لأنه يحتوي على بعض قصصه الموضوع والمترجم . ومع وعينا بالخلافات الجوهرية والسمات الفارقة لما بين المقالة و القصة ، إلا أن أسلوب الكاتب لا يختلف كثيراً في تناول كل منهما إلى حد كبير ، بل إنه أعاد نشر بعض ذلك القصص المؤلف والمترجم في أجزاء مختلفة من « النظرات » . وهذا يدل على أن المؤلف نفسه لم يجد فارقاً كبيراً بين ما يحتويه كل من الكتابين اللذين يشتملان على مقالات عامة ، أو مقالات قصصية ، كما سنفصل فيما بعد .

(١) راجع مقالا بعنوان « فؤاد الصاعقة » في : عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٣ . ص ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

ويمكن أن نلخص موقف المنفلوطي أو رؤيته الأدبية لا في هذين الكتائين فحسب ، بل في كل ما كتب - تقريباً - فنقول إن موقفه هو « موقف المصلح » ، الذي يدعو إلى الإصلاح بشكل ليس فيه تورية أو تكتية ؛ فالمنفلوطي في كل ما كتب كان داعية إلى إصلاح المجتمع والتمسك بالفضيلة ومساعدة الفقراء والمساكين ومحاربة الرذيلة ، والمحافظة على كرامة المرأة وعدم تعريضها للمشكلات ، حتى لا تسقط أو تزل . ويتصل بهذه الدعوة أيضاً ، من قرب أو بعد ، دعوته إلى إصلاح أساليب الكتابة الأدبية وعدم التفريق بين اللفظ والمعنى ، وأن طريقة التعبير في النثر لا تختلف عنها في الشعر ؛ لأن : « الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤون وأطواره ، لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ... »^(١)

وإذا كان المنفلوطي يدعو إلى إصلاح المجتمع وأسلوب الكتابة ، فإنه لم يكد يتطرق إلى حديث السياسة في أي موضوع من الموضوعات المختارة في « النظرات » و « العبرات » .

ويبدو أن القصيدة التي أدخلته السجن في نوفمبر سنة ١٨٩٧^(٢) ، قد جعلته حذراً من الكتابة السياسية ، كما أنه يعلل سبب نفوره من السياسة بقوله : « يعلم الله أنني أبغض السياسة وأهلها بغضي للكذب والغش والخيانة والغدر . أنا لا أحب أن أكون سياسياً ، لأنني لا أحب أن أكون جلاداً ، لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد ، وأولئك يقتلون الأم . »^(٣)

المنفلوطي إذا كان داعية إلى الإصلاح ، غير أن كل الأدباء - بمعنى ما - يدعون إلى الإصلاح والعدالة والحرية ، ويناضلون من أجل تغيير ما هو فاسد في المجتمع ، وينشدون عالماً أفضل ، ويشيرون بواقع أسعد ؛ أي أن الأدب له ، بالضرورة عند كل أديب ، مهما قل أو جل شأنه ، وظيفة نبيلة ، تهدف إلى تطوير المجتمع وتغيير الواقع . لكن الأدباء يختلفون اختلافاً واسعاً بحسب الفلسفة الفكرية ، التي تشكل الموقف الأدبي لكل منهم . وهذه الاختلافات ، في حقيقتها ، فروق جوهرية بين الفلسفة الإحيائية السلفية المحافظة ، والفلسفة الليبرالية الفردية الرومانسية ، والفلسفة الواقعية الشمولية الملتزمة .

ومعنى هذا أن المذاهب الأدبية لا تخرج عن ثلاثة مواقف هي :

- ١- الموقف السلفي في الفكر ، ويعكسه مذهب الإحياء في الفن ، الذي يعبر عن الغير .
- ٢- الموقف الليبرالي في الفكر ، ويواكبه مذهب التعبير عن الذات في الفن .
- ٣- الموقف الواقعي في الفكر ، ويصاحبه المذهب الشمولي الملتزم المعبر عن قضايا المجتمع في الفن .

وبناءً على ذلك ، فإن المذهب الأدبي الذي يصدر بوحى منه المنفلوطي هو الموقف « الإحيائي » ؛

(١) النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لوجمان ، ١٩٩١ . ص ٢١٠ .

(٢) محمد أبو الأنوار : مصطفى المنفلوطي ، حياته وأدبه . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٥ . جـ ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٣) النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لوجمان ، ١٩٩١ . ص ١٥٧ .

٧ جدل الموقف والأداة

وعلى هذا فإن كل ما كان يدعو إليه ، إنما يستمد مبادئه وقيمه من تراث السلف الصالح بالمعنى الشمولي لكلمة تراث ، حيث يدخل فيها ما هو ديني (القرآن والسنة) ، وفكري (الفلسفة الإسلامية وكل مجالات الفكر العربي) ، وفني (الشعر والنثر والغناء والموسيقى) . ومن هنا فإن كل ما دعا إليه كاتبنا من مبادئ الإصلاح ، كان يستلهمها من فكر التراث ونقايل المجتمع العربي المسلم . وعلى هذا نستطيع القول بأنه -على مستوى الموقف الأدبي- كان أدبياً سلفياً شديداً بالمحافظة ؛ لذلك كان يدعو إلى تثبيت عادات المجتمع الشرقي ومثله ، ويعادي بالتالي كل مظاهر الحضارة الغربية الوافدة على مستوى الفكر والسلوك . ومن هنا كان يرفض خروج المرأة إلى الحياة ويعادي وجود المسارح ويسمّيها « الملاعب الهزلية » ، فيقول : « نزلت بالأمة المصرية نازلة المقادير العامة ، التي يسمونها الملاعب الهزلية ، وما هي في شيء من الهزل ولا الجد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ، ولا بأي فن من الفنون الأدبية ... »^(١)

فالمنفلوطي يرى (بصفة عامة ، ويجب أن نعرف أن هذا الرأي قاله في آخر حياته) أن كل المفاسد الأخلاقية تأتي من تقليد الغرب ، فيقول :

« أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيكان متلازمان ، وتوأمين متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه ... »^(٢)

وإذا كان الموقف الأدبي يرتبط بأداة التعبير ارتباط العلة بالمعلول ، فإننا نستطيع على ضوء شرحنا لموقف المنفلوطي - كما فسّرناه آنفاً - القول بأن جماليات المقال الأدبي عنده لا تختلف كثيراً عما نراه من أسلوب للكتابة عند أعلام النثر في التراث العربي القديم والحديث ، أمثال : عبد الحميد الكاتب و الجاحظ و أبو حيان التوحيدي و ابن العميد و القاضي الفاضل و رفاعه الطهطاوي و عبد الله فكري و محمد المويدي ، وغيرهم .

ومعنى هذا أن المنفلوطي ، رغم كثرة دعواته إلى إصلاح الكتابة الأدبية والبعد عن التقليد ، لم يستطع أن يحقق ما كان يدعو إليه . فهو يذكر أن سبب ما له من فضل في الكتابة يرجع إلى ما أكّده بقوله : « لأنني استطعت أن أتفكّلت من قيود التمثيل والاحتذاء . وما نفعني في ذلك شيء مثل ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤم عليّ ، وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمرّ بي . فلقد كنت أقرأ من منشور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ، ثم لا ألبث أن أنساه ، فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به . »^(٣)

ومع أن كاتبنا يذكر أنه استطاع أن يفكّلت من قيود التمثيل والاحتذاء ، وبالتالي لم يقلد غيره ، إلا أننا نحسّ معه أننا إزاء إحياء جديد لأساليب النثر العربي التقليدية ، التي تعتمد على المزاجية بين الجمّل ، والمقابلة بين العبارات ، والحرص على السجع ، والتساوي بين الجمّل لتحقيق قدر من التوازي في الإيقاع ، مع الحرص على جمال المفردات اللغوية ، وحشد بعض المحسنات البديعية خاصة الجناس والطباق والترادف ، وإثارة بعض الصور البلاغية المحفوظة أو الواردة في الشعر والقرآن والحديث النبوي ، بالإضافة إلى توظيف « التناص » أو « التضمين » بشكل مقصود من مصادر التراث

(١) النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونغمان ، ١٩٩١ . ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ . (٣) المصدر السابق ، ص ١ .

الديني والأدبي .

وهذه السمات التي نجدها عند المنفلوطي هي ذاتها التي قد نجدها عند أبي حيان التوحيدي الذي يقول ، على سبيل المثال ، في مقدمة كتابه « الإمتاع والمؤانسة » :

« قال أبو حيان التوحيدي : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ، و وصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظفر بالفوز والنعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين .

« أما بعد .. فإني أقول منبهاً لنفسي ، ولمن كان من أبناء جنسي ؛ من لم يطع ناصحه بقبول ما يسمع منه ، ولم يملك صديقه كله فيما يمثله له ، ولم ينقد لبيانه فيما يُرينه إليه ، ويطلعه عليه ، ولم ير أن عقل العالم الرشيد ، فوق عقل المتعلم البليد ، وأن رأي المجرب البصير ، مُقدّم على رأي الغمر الغرير ؛ فقد خسر حظه في العاجل ، ولعله أيضا يخسر حظه في الآجل ... » ^(١)

وإذا كانت قوة الموهبة وكثرة الخبرة ، تعصمان التوحيدي من أن تبدو الصنعة عنده متكلفة ، فإن التكلف يبدو بشكل أوضح عند كاتب مثل بديع الزمان الهمداني ، على سبيل المثال ، الذي يقول ، في « المقامة الأصفهانية » : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بأصفهان أعتزم المسير إلى الري ، فحللتها حلول الفئ ، أتوقع القافلة كل لمحة ، وأترقب الراحلة كل صبحه ، فلما حُم ما توقعته ، نودي للصلاة نداء سمعته ، وتعين فرض الإجابة ، فانسلفت من بين الصحابة ، أغتنم الجماعة أدركها ، وأخشى فوت القافلة أتركها ، لكنني استعنت ببركات الصلاة ، على وعشاء الفلاة ، فصرت إلى أول الصفوف ، ومثلت للوقوف ، وتقدم الإمام للمحراب ، فقرأ فاتحة الكتاب ... » ^(٢)

من هذا كله يتضح أن أسلوب المقال الأدبي وغيره عند المنفلوطي مستمد من السمات العامة للنثر العربي ، الذي يعتمد في الغالب على « الصنعة » والحرص على المحسنات ، حتى لو أضرب ذلك بالمعنى أحياناً . وهذا يعني - ببساطة شديدة - أن المنفلوطي كان محافظاً في موقفه ومقلداً في أسلوب كتابته ، أي أن الموقف عنده يتسق مع الأداة ، وأنه كان أسيراً لفلسفة الإحياء قلباً وقالباً ، تلك المدرسة التي تؤمن بكل ما آمن به السلف الصالح لدرجة الخضوع والخنوع . فهذه المدرسة تؤمن في النثر ، كما آمنت في الشعر ، بالوظيفة الأخلاقية للأدب ، وإذا كان المنفلوطي يدعو إلى الفضيلة فإن البارودي الشاعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ، فيقول ^(٣) :

والشعر ديوان أخلاق يلوح به ما خطه الفكر من بحثٍ وتنقيب

ولا شك أن حرص المنفلوطي فيما كتب على التقليد والمحافظة ، هو الذي أغاظ ناقدًا مثل إبراهيم عبد القادر المازني ، فأخذ ينقده نقداً عنيفاً بقوله :

(١) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق وشرح : أحمد أمين و أحمد الزين . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ . ج ١ ، ص ١ .

(٢) أبو الفضل بديع الزمان الهمداني : مقامات الهمداني ، تحقيق وشرح الشيخ محمد عبده . ط ٦ بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٩ . ص ٥١ .

(٣) محمود سامي البارودي : ديوان البارودي ، تحقيق وشرح علي الجارم و محمد شفيق معروف . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ . ج ٢ ، ص ١٥١ .

٩ المقالة القصصية

« ماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعدّ من أجله كاتباً وأديباً ، إلا إذا كان الأدب كله عبثاً في عبث لا طائل تحته ؟ سمعتُ بعض السخفاء من شيوخنا المائقين ، يقول : « إن في أسلوبه حلاوة . » ولو أنه قال « نعومة » ، لكان أقرب إلى الصواب ، ولو قال « أنوثة » ، لأصاب المحزّ . وهذا كلام يكاد يعدّه من لا عهد له بغير كلام المقلّدين من الألفاظ والأحاجي ... » ويرى مرة أخرى : « أنه متكلف متعمّل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها . »

كما يأخذ عليه قدرًا من التساهل في استعمال الألفاظ وكثرة استخدام المفعول المطلق ، والنعت ، والحال ، وغير ذلك مما يعدّه النحاة من « مكملات الجملة » ، وليس من أركانها الأساسية . ويعلّق المازني على ذلك قائلاً : « كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فإن العالم أغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه ... لكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطي ؛ لأن اللغة عنده ليست إلا زينة يعرضها ، وحلي يُخيّل بها ، لا أداة لنقل معنى أو تصوير إحساس أو رسم فكرة ... »^(١)

وإذا كان المازني ناقدًا يقف من المنفلوطي وأسلوبه موقفًا معاديًا ، فإن هناك عشرات من النقاد وآلافًا من القراء كانوا - ولا يزالون - معجبين بالرجل وأدبه . « والواقع أن الأسباب التي اعتمد عليها المازني في هجومه على المنفلوطي ، هي نفسها السرّ في إعجاب القراء به . فالإغراق في العاطفية المسرفة يتلاءم مع إحساس القارئ المفتقر إلى الثقافة الجادة ، التي تجعله يحسّ بالحياة إحساسًا عميقًا ، يستمد جذوره من تجربة الحياة نفسها ، كما أن أسلوبه الكلاسي جعله شديد القرب والاتصاف بالقراء المتّصلين بالثقافة العربية ، ومنحه بينهم مكانة لم يصل إليها غيره من المؤلفين أو المترجمين ... »^(٢)

* * *

٤ - المقالة القصصية

ذكرنا من قبل أننا نعدّ كتاب « العبرات » مُكملاً لكتاب « النظرات » ، وعلى هذا فإنه يُعدّ الجزء الرابع منه ؛ وإذا كان كتاب « العبرات » يشتمل على ما أسماه المؤلف « مجموعة روايات قصيرة بعضها موضوع أي مؤلف (وهو أربع قصص) وبعضها مترجم (والصفة الأدق هي معرّب) ؛ لأن الترجمة تعني الأمانة في نقل النصّ من لغة إلى أخرى ، أما التعريب فيتطلب بالضرورة قدرًا من التصرف في نقل النصّ (وهو يضمّ خمس قصص) .

ونحن لا نقيم وزنًا كبيرًا لاستخدام المؤلف لمصطلح « رواية قصيرة » ، وهو يعني به « قصة قصيرة » ؛ لأن « المعيار الفني » الذي كان يفرّق به معظم أدباء عصره بين الرواية الطويلة و القصة القصيرة ، هو

(١) إبراهيم المازني و عباس محمود العقاد : الديوان في الأدب والقد . ط ٣ القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٢ . ج ٢ ، ص ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .

(٢) عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة . ط ٤ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ . ص ١٨٦ .

الحجم الكمي لعدد الصفحات^(١). ولكن الحجم فقط حدٌ تخكمي أو افتراضي ؛ لأن المعيار الفني للتفريق بينهما ، يقوم على طريقة التناول وطبيعة التصوير . فالرواية تصور حياة مجموعة من الشخصيات في فترة طويلة ، وهي تهتم بتصوير حياة أولئك الشخصيات تصويراً خارجياً وداخلياً ، في إطار زمان ومكان محددين ؛ ومن هنا تمتلك الرواية قدرة هائلة على الوصف والتحليل والتصوير الشامل ؛ وهذا ما يتيح لكاتبها فرصة واسعة لتقديم وجهة نظره - من خلال شخصياته - في أمور كثيرة مثل التاريخ والسياسة والمجتمع والاقتصاد وحياة الأسر وعلاقات الأفراد ، والتعبير عن عاطفة الحب وغيرها من القضايا الذاتية . لذلك يصبح من الصعب تحديد شكل خاص للرواية ، أو موضوعات أثيرة لديها ، فالروائي العظيم فيه الكثير من سمات المؤرخ السياسي ، وعالم الاقتصاد ، وباحث الاجتماع ، والمحلل النفسي ، والمعلم التربوي ، بل إنه يحمل قدراً من سماحة الأب ، وحنان الأم ، وعاطفة المحب ، وتحمل خادماً البيت ، وحارس المكان ، ومنظم الوقت . إنه - الروائي - مثل « المايسترو » الذي يقود مجموعة مختلفة من الموسيقيين (الشخصيات) يعزف كل واحد منهم بألة خاصة ، تصدر إيقاعاً مختلفاً (لأن لكل منهم دوراً متميزاً عن غيره) . ورغم اختلاف آلات العزف ، فإن على قائد الأوركسترا « المايسترو » أن يكون اللحن في مجمله منسجماً ، لا نشاز فيه . وهذا يعني أن شكل الرواية يشبه - إلى حد غير قليل - الوعاء ، الذي يمكن أن تصب فيه مواد مختلفة . ويعبر «أوكونور» عن ذلك بقوله : « إن الرواية لها شكل جوهري ، هو الشكل الذي نراه في الحياة ، شكل التطور الزمني للشخصية أو الحدث ، في حين أن كاتب القصة القصيرة لا يعرف شيئاً اسمه الشكل الجوهري ، فهو لا يطمح في تصوير الحياة الإنسانية في مجموعها ، بل إن عليه دائماً أن يختار نقطة ما ، يتناول الحياة من زاويتها .»^(٢)

وعلى هذا فإن أهم ما يميز القصة القصيرة ، غير الحجم ، هو أنها : « تجربة أدبية تعبر - بالشر- عن لحظة في حياة إنسان ، فهي إذاً فن يقوم على التركيز والتكثيف في وصف لحظة واحدة . وهذه اللحظة قد تمتدّ زمنياً لساعات أو أيام أو أسبوع ، أو ربما شهر أو أكثر ، غير أن القاص لا يهتم فيها بالتفاصيل ، التي يهتم بها الروائي ، لكنه يمضي قدماً من أجل تعميق اللحظة التي يصورها ، لكي تعطي إحياء مركزاً حول ما تدل عليه .»^(٣)

بناءً على ما سبق يبدو الفارق الفني شاسعاً بين نوعين أدبيين من جنس واحد ، هما الرواية novel والقصة القصيرة short story ، فالرواية تصوّر (حياة شاملة) ، وترك لدى قارئها انطباعات وتأثيرات وتفسيرات مختلفة . أما القصة القصيرة التي تصوّر (لحظة) في حياة شخصية مأزومة ، فإنها يجب أن تترك تأثيراً خاصاً أو وحدة انطباع ، نتيجة الاقتصاد والتحدّد في الوصف والتصوير ، من هنا تتسم القصة القصيرة بتطابق تام بين المضمون والشكل .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنّا نناقشه من أن كتاب «العبرات» مكمل لكتاب «النظرات» ،

(١) راجع في مجال التفريق بين القصة القصيرة والرواية :

- شكري عياد : فن القصة القصيرة في مصر . ط٢ . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٧٩ . ص ٣١-٥٩ .

- طه وادي : دراسات في نقد الرواية . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ . ص ١٧-٢٥ .

(٢) شكري عياد : فن القصة القصيرة في مصر ، ص ٤٧ .

(٣) طه وادي : دراسات في نقد الرواية ، ص ٢٢ .

المقالة القصصية ١١

وإلى أن الكاتب - مثل معظم أدباء عصره - لم يكن على وعي كامل بما بين الرواية والقصة القصيرة من فروق فنية . ونضيف إلى ذلك أن الروايات أو القصص التي تشتمل عليها « العبرات » - مؤلفة ومعرّبة - توجد نظائر وأشباه لها كثيراً في الأجزاء الثلاثة للـ « نظرات » - ناهيك عن أن بعضها نفسه مكرر بنصّه وعنوانه ، ولا سيّما في الجزء الثالث . وما نريد أن نصل إليه الآن هو أن هناك مجموعة من النصوص لا نريد تحديدها نوعها الآن - ذات ملامح تعبيرية وفنية ووظيفية متقاربة إلى حدّ كبير ، وهذه النصوص كان الكاتب يعدّها « مقالة » مرة ، ويعدها أخرى « قصة مؤلفة » ، وثالثة « قصة مترجمة » ، ورابعة - فيما نرى نحن - يمكن أن تعدّ « صورة قصصية » أو « وصف حادث » أو « خبراً قصصياً » . وهذه النصوص المختلفة تجمع بين سمات نوعين مختلفين من الإبداع والكتابة ، هما المقالة والقصة .

ومن المعروف أن « المقالة » نوع من الكتابة ، يناقش قضية اجتماعية بشكل واضح ومباشر ، وهي قطعة نثرية محدودة الطول ، تكتب بطريقة أقرب إلى العفوية والتلقائية ، خاصة إذا كانت مقالة أدبية تعبّر عن وجهة نظر كاتبها ، وليست مقالة علمية أو موضوعية .

وإذا كانت المقالة تناقش قضية اجتماعية بأسلوب عفوي مباشر ، فإن القصة تصوّر - تجربة إنسانية تصويراً فنياً ، يعتمد على الرمز والتلميح دون التصريح ؛ لأن المباشرة تُزهق روح الفن .

وعلى هذا فإن هناك مجموعة كبيرة من النصوص في تراث المنفلوطي المقالّي والقصصيّ ، والمؤلف والمترجم ، يمكن أن نحدد جنسها الأدبي على أساس أنها نصوص في منزلة بين النوعين : المقالة والقصة ؛ ولذا فإنها تقع في دائرة مصطلح « المقالة القصصية » ، فماذا نعني بهذا المصطلح ؟

« كثيراً ما يذكر اصطلاح « المقالة القصصية » على أساس أنه مرادف للـ « صورة القصصية » ، ولكننا في الواقع نبيّن شكلين أدبيين متميزين : أحدهما ، وهو الصورة القصصية ، يماثل شكل القصة القصيرة في كونه تعبيراً موضوعياً يعتمد على رسم الشخصية والحادث ، وإن كان يرسمها بطريقة وصفية غير درامية ، ويقيها أقرب إلى دائرة الملاحظة والتأمل منها إلى دائرة الانطباع .

« أما الشكل الثاني ، وهو المقالة القصصية ، فهو في أهم خصائصه نوع من المقالة ، لكونه تعبيراً مباشراً عن فكر كاتبه ، لكنه يتميز عن أنواع المقالة الكثيرة الأخرى بخاصيتين : الأولى أنه أميل إلى الذاتية ؛ فكاتبه يطلق العنان لخواطره ومشاعره ، كأنه شاعر ينظم قصيدة غنائية ، والثانية أنه يمزج التعبير عن الخواطر والمشاعر بالسرد والوصف ، فيحدث في الأسلوب ضرباً من التنويع ، ويخفف من الطابع الذاتي الذي يغلب على هذا اللون من المقالات . والتعبير البياني في هذا الضرب من المقالات يحتل المكان الأول قبل التعبير من خلال الأحداث ، أو من خلال الشخصيات .^(١) »

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن النصوص التي يشتمل عليها كتابا « النظرات » و « العبرات » ، تنقسم إلى نوعين أدبيين متقاربين إلى حدّ ما في السمات الأسلوبية للتعبير اللغوي ، وهما :

أ - المقالة الأدبية .

ب - المقالة القصصية .

(١) شكري عياد : القصة القصيرة في مصر ، ص ٧٣ .

وإذا كان هذان النوعان متقاربين في الأسلوب ، فإنهما متطابقان إلى حد ما في الوظيفة الإصلاحية التي يهدفان إليها ، والتي غالباً ما يصريح بها المنفلوطي في ثانيا المقالة ، أو بين عناصر المقالة القصصية ، فهو على سبيل المثال يعظ من لا يؤمنون بالحب ، حتى لو كانوا من رجال الدين ، في قصة « الشهداء » المعربة ، بقوله :

« إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفافة ، ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ، فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ، ما دامت لنا أفئدة خافقة . »^(١)

والمنفلوطي ليس وحده الذي كتب المقالة القصصية ، وإنما كان يشاركه في إبداعها بعض الكتاب ، أمثال إبراهيم المازني في (صندوق الدنيا ، قبض الريح ، ع الماشي ، خيوط العنكبوت ، سبيل حياة ، أحاديث المازني) وطه حسين في (المعذبون في الأرض ، جنة الشوك) ومحمد حسين هيكل في (ثورة الأدب ، في أوقات الفراغ) وعبد العزيز بشري في كتابه (في المرأة) .

ومعنى ذلك أن هذا النوع من الكتابة الأدبية ، وهو المقالة القصصية ، كان يندع فيه بعض كتاب هذه المرحلة ، وليس المنفلوطي وحده ، وذلك ما يؤكد حاجة الواقع الاجتماعي والثقافي إلى مثل هذا النوع من الكتابة الإنشائية - القصصية ، التي وجد فيها أولئك الكتاب وسيلة أدبية صالحة للتعبير عن آرائهم المختلفة في إصلاح المجتمع ، لا سيما إذا ما أدركنا أن الجمهور الذي كتب له جمهور يمثل معظمه الطبقة الوسطى ، والمقالة القصصية قادرة على التأثير فيهم ؛ فهي تحمل من المقالة الوضوح والمباشرة وجمال التعبير ، ومن القصة التشويق والإثارة وقوة التأثير .

هذا الجمهور هم قراء المنفلوطي وعشاق أدبه ، الذين وجدوا فيما كتب تعبيراً صادقاً عن أشواقهم الروحية وقيمهم الأخلاقية ، التي لا يملكون على المستوى الشعري المثالي سواها ؛ إذ ليس ثمة شيء يمكن أن يتمسكوا به سوى الفضيلة والشرف ، بعد أن ضاعت منهم - دون أي أمل في الوصول - مصادر الثروة ومناصب الوجاهة . وقد اكتشف كتابهم - بذلك وعي - أن المقالة القصصية هي أقرب سبيل يمكن أن يصلوا به إلى جمهورهم . وهذا هو سر وجود المقالة القصصية عند المنفلوطي وغيره من كتاب المرحلة وما بعدها ؛ بل إنه سر شهرة المنفلوطي إلى اليوم .

* * *

٥- المنفلوطي معرباً للرواية

عرب المنفلوطي - بطريقته الخاصة - أربعة أعمال أدبية ، خرجت في شكل روايات ، ولاقت نجاحاً جماهيرياً واسعاً على امتداد الوطن العربي كله حتى اليوم ، وهي :

١- ماجدولين ، أو تحت ظلال الزيزفون (١٩١٧)

رواية ألفها الكاتب الفرنسي ألفونس كار Alphonse Karr بعنوان « Sous les Tilleuls » ، وقد

(١) المنفلوطي : العبرات ، هذه الطبعة ، ص ٤٨ .

المنفلوطي معرباً للرواية ١٣

عربها المنفلوطي عن ترجمة صديق له ، يدعى محمد فؤاد كمال . ويرتكز مضمونها على محورين : أحدهما عاطفي ، والثاني اجتماعي . أما الأول فيمثل صراعاً بين الحب الحقيقي الطاهر والحب الزائف ، والثاني يمثل صراعاً بين الفقر والغنى ، ويترتب عليه أن السعادة ليست في الغنى والجاه والمظهر ، لكنها في العمل والكفاح والإخلاص للقيم . وبطل الرواية « استيفن » شاب يرى السعادة في العمل والكفاح والحب الطاهر ، ويعيش قصة حب عفيف مع « ماجدولين » الجميلة ، لكن والدها « مولر » رفض زواجها به بسبب فقره ، رغم علمه بأن هناك قصة حب بينهما . وتتزوج الفتاة الغريبة من « إدوارد » الغني ، كما أراد أبوها ، لكن ذلك الزوج الغني سرعان ما فقد ماله كله ، فمات منتحراً . وحاولت ماجدولين أن تعود إلى حبيبها ، بعد أن تحسنت حالته المادية ، لكن كبرياءه أبى عليه ذلك فرفض ، مما دفع الحبيبة إلى أن تنتحر غرقاً . (الموت والقتل والانتحار كثير جداً في مثل هذا الأدب الميلوتراجيدي) . وقد حاول الحبيب إنقاذها لكنه لم يستطع ، فمات حزناً عليها (هكذا !) ويعلق المنفلوطي على ذلك بقوله : « كذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده ، ولكنه أحيأ نفسه ، وسجلها في سجل النفوس الخالدات . »^(١)

٢- في سبيل التاج (١٩٢٠)

هذه الرواية كانت في أصلها مسرحية بعنوان « Pour la Couronne » كتبها الأديب الفرنسي فرانسوا كوبيه François Coppée سنة ١٨٩٥ . وبطلها ، كما يذكر المترجم حسن بك الشريف في المقدمة : « فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان : حب الأسرة وحب الوطن ، فضحى بالأولى فداء للثانية ، ثم ضحى بحياته فداء لشرف الأسرة . »^(٢)

ولا شك أن المضمون الوطني للرواية ، هو الذي جعله يهديها إلى سعد زغلول ، الذي وصفه بالشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة والإخلاص والتضحية ، وهي نفسها صفات « قسطنطين » ، بطل الرواية ؛ فقد كانا شهيدتين فداء لوطنيهما ؛ لذلك تمنى أن تكون هذه الرواية مؤنسة لروح كل منهما . ويتلخص مضمون الرواية في أن « قسطنطين » ابن القائد « برانكوميير » يكتشف أن زوجة أبيه قد حرّضت أباه على خيانة وطنه ، حتى تقبض ثمن الخيانة ، وحتى لا يرث الابن قسطنطين - من زوجة غيرها - حكم البلاد عندما يصبح والده حاكماً لبلاد البلقان ، خاصة بعد إنقاذه لفتاة فقيرة من يد الأتراك ، وحبها لها رغم ما بينهما من فوارق طبقية ، ورغم رفض أبيه و زوجته لهذا الحب غير المتكافئ ؛ وهنا يرد المنفلوطي مدافعاً على لسان بطله : « إني لا أعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة . »^(٣)

و يواجه الابن أباه ساعة تنفيذ خطة الخيانة ، ويتم - تحت جنح الظلام - صراع حاد بين الابن الوطني والأب الخائن ، حيث يدافع الابن عن أرض الوطن وشرف الأسرة ، بينما يقاتل الأب من أجل العرش ، ومن أجل إرضاء زوجته . وينتهي هذا الصراع العائلي بأن يقتل الابن أباه فداء للوطن ، ولكن الزوجة الشريرة أشاعت بأن زوجها قتل في المعركة ، بينما كان ابنه الخائن يتفاوض مع

(١) المنفلوطي : ماجدولين . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ٢٢٦ .

(٢) المنفلوطي : في سبيل التاج . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

١٤ المنفلوطي معرباً للرواية

الجاسوس التركي . وقد حُكِمَ على الابن بالإعدام ؛ فقبل قدره بشجاعة . وهكذا فإن « قسطنطين » قتل أباه من أجل الوطن ، ثم رضى أن يُقتل فداءً لأبيه وسمعة أسرته . وهنا برزت الحبيبة الوفية الفقيرة « ميلترا » لحظة سخط الجماهير عليه ، وطلبت منه أن يعترف بالحقيقة ، فأبى وأصرَّ على التضحية ، فأخرجت الخنجر من بين ملابسها ، وطعنته ثم طعنت نفسها .

٣- الشاعر ، أو سيرانو دي برجرارك (١٩٢١)

هذه الرواية - مثل « في سبيل التاج » كانت في الأصل مسرحية - ألفها الأديب الفرنسي إدمون روستان Edmond Rostand عام ١٨٩٨ بعنوان « Cyrano de Bergerac » . وقد ترجمها عن الأصل الفرنسي صديق المنفلوطي ، عبد السلام الجندي ، الذي طلب منه أن يهذب أسلوبها ، فحوّلها المنفلوطي من القالب التمثيلي إلى القصصي ، « ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس ، كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل . »^(١)

وكما أهدى المنفلوطي الرواية الوطنية « في سبيل التاج » إلى سعد زغلول ، أهدى هذه الرواية التي يقوم بدور البطولة فيها « شاعر » إلى الشعراء ؛ لأنه يرى أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم ، وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات .

يدور مضمون هذه الرواية - التي نشرت بعد سنة واحدة من نشر رواية « في سبيل التاج » ، مما يُوحى بإقبال الجماهير عليها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدلُّ على تفرُّغ المنفلوطي لهذه الأعمال وحرصه على الكتابة فيها - حول الحبِّ العفيف الصامت ، الذي يكنه الشاعر/الفارس « سيرانو دي برجرارك » لابنة عمه « روكسان » الجميلة المرقّفة . وكان من الممكن أن تنمو قصة الحب بينهما لولا دمامة وجهه وكبر أنفه : « فكأن أنفه سبب شقائه في جهتين ، أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه إلى السخرية والتهمك عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله . »^(٢)

وقد أحببت « روكسان » الضابط « كرسيتان » ، لأنه على نقيض ابن عمها ، يملك حسن الوجه وجمال المنظر ، ومع ذلك فقد كان بليد المشاعر ، عاجزاً عن التعبير ، وكان زميلاً لابن العمِّ في الجيش . ومن العجيب أن « سيرانو » يقبل أن يقف « كرسيتان » صامتاً أمام « روكسان » ، بينما يقوم هو بإلقاء عبارات الحبِّ والهيام . وقد أجاد تمثيل الدور إلى أن تمَّ الزواج ، بعد أن باركه ابن العم نفسه إكراماً للمحبوبة ، التي يكفيه منها الحبُّ الصامت العفيف . ورغم أن هذا الزواج غير قائم على الحبِّ والتفاهم ، إلا أن « سيرانو » الشاعر/الفارس والمحبُّ النبيل أثر ألا يتزوج من رفضته في يوم من الأيام ، وظل كلاهما يكي حبَّ المحروم وحظه التمس .

٤- الفضيلة ، أو پول وفرجينى (١٩٢٣)

وهي في الأصل رواية فرنسية للكاتب الفرنسي برناردين دي سان بيير Bernardin de Saint-Pierre بعنوان « Paul et Virginie » وقد اعتمد كاتبنا في تعريبها على ترجمة الشاعر الأديب المترجم محمد

(١) المنفلوطي : الشاعر . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

المنفلوطي معرّباً للرواية ١٥

عثمان جلال سنة ١٨٧٢ بعنوان « الأمانى والمنة في حديث قبول و ورد جنة » . وربما استعان أيضاً بالترجمة الثانية التي تمت على يد الكاتب المسرحي فرح أنطون ، وهذا ظنٌ لا نملكُ له دليلاً قوياً سوى أن هذه الترجمة الثانية ، وهي بعنوان « بولس وفرجيني » قد نشرت في القاهرة ، قبل أن يقوم المنفلوطي بعمله هذا بعدة سنوات . ويبدو أن هذه الرواية « سعيدة الحظ » فقد ترجمها بعد ذلك أديب ثالث هو إلياس أبو شبكة ، ونشرها سنة ١٩٣٣ بعنوان « بول وفرجيني » .

وهذه الرواية تدعو إلى نفس الفضائل التي كان المنفلوطي حريصاً على الدعوة إليها في كل ما كتب ، وهو يعلن ذلك في الإهداء قائلاً :

« يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ؛ لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ، ولأن حياة الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه . فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتیان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التي أحبُّ أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما المستقبلية على أساس الفضيلة ، كما وضعها بول وفرجيني .»

وأحداث هذه الرواية تقع في جزيرة موريشيس ، وهي قرية من جزيرة مدغشقر في القرن الإفريقي؛ هذا من حيث المكان ، أما من حيث الزمان الذي وقعت فيه فهو سنة ١٧٢٥ . وهذا تأكيد لما يقوله المترجم - على لسان المؤلف - من أن حوادثها صحيحة ، وليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب . أما مسيرة الأحداث فتدور حول أرملتين التقيتا مصادفة في الجزيرة ، وهما مرغريت وهيلين ، فصارتا صديقتين ، ونشأ ولداهما بول وفرجيني أخوين ، ثم حبیبين بعد أن بلغا سنَّ الصبا والشباب ، وبعد استطرادات كثيرة ترحل فرجيني إلى عمّة ثرية لها في باريس ، وهنا تسنح للكاتب فرصة للتعبير عن توهج العاطفة وحرارة الشوق وحنين الأرواح ولوعة القلوب خلال مدة الرحلة وهي ثلاث سنوات ؛ فكان الرحلة كانت متنفساً للتعبير الوجداني عن الحب . وبينما تصعد بنا الرواية في هذا الاتجاه إذ بها تهبط بنا إلى سطح المأساة بعودة فرجيني . فقد اشتدت العواصف بالسفينة وهي على بُعد قريب من الجزيرة . وتموت فرجيني غرقاً ، ويموت بعدها بول حزناً وغماً ؛ كأنما الروحان مرتبطان بمصير قدرتي واحد وخيط روحي واحد ؛ فإما الحياة سوياً ، وإما الموت سوياً . فمثل هذا الموت عفة وشرفاً وتضحية أفضل ألف مرة من الحياة ! (الموت والانتحار كثير جداً في روايات المنفلوطي وكتاباتة ، حيث يضع القدر نهاية لأبطال لا يصنعون لأنفسهم شيئاً !)

والمنفلوطي يختم الرواية بوداع باكٍ من الراوي للشهيدين بول وفرجيني :

« سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم ، الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجاً بسيطاً ، لا ينال الناس بشرٌ ولا يعتقد في الناس شراً ، ولا يضمّر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص ، حتى لكلمته و شاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذي يفيء إليه !

« سلام عليك أيها الفتاة الشريفة الطاهرة ، التي صبغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عائل له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقاً لا تسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحياتها بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضناً

بجسمها أن تلمسه يدٌ منقذها !»^(١)

ويبدو أن المنفلوطي نفسه قد تأثر قبل غيره بما كتب ؛ لذلك نجده بعد أن تنتهي الرواية ينظم قصيدة حولها ، يبدأها بقوله^(٢) :

يا بني القفر سلام عاطر من بني الدنيا عليكم وثناء
* * *

٦- الفضيلة نموذجاً

حتى تتضح القيمة الحقيقية لأدب المنفلوطي بصفة عامة ، ورواياته الأربع المعربة بصفة خاصة ، يجب أن تتمثل بوعي البعد التاريخي لها ، وهو العقدان الثاني والثالث من القرن العشرين وما تلاهما. وهذه الأعمال في ذلك الزمان كانت فتوحات أدبية يلتقفها القراء من المحيط إلى الخليج ، فيحفظون كثيراً من أجزائها عن ظهر قلب ، ويذرفون العبرات مع مآسيها العاطفية والاجتماعية والوطنية . وكم من عيون بكت ، وقلوب خفقت ، وعبارات حُفظت ، تأثراً لما أصاب أبطال رواياته ، أو لما حدث من تفاعل مع معاني أدبه ومقالاته .

ومع أن المنفلوطي كان بالنسبة للروايات وبعض القصص مترجماً ، أو معرباً ، إلا أن ترجمته كانت ترجمة خلاقة حيّة مؤثرة ، بل إننا نظن ظناً - لا يغني عن الحق شيئاً - وهو أن معظم ترجمات المنفلوطي ، لم تنل في تاريخ أدبها وبين جمهورها وفي لغتها الأم (الفرنسية) مثل ما نالته من شهرة وانتشار على يد المنفلوطي العظيم في الوطن العربي !

وسوف نتوقف عند رواية « الفضيلة » في محاولة نقدية لاكتشاف أهم سمات الرواية ، كما قدمها المنفلوطي بأسلوبه الخاص إلى جمهوره العربي .

إن هذه الروايات الأربع منقولة - حقيقة - عن أصل فرنسي ، غير أن المنفلوطي خلقها خلقاً فنياً جديداً ، يتناسب مع طبيعة الجمهور ، الذي كان يكتب له . المنفلوطي - إذاً - معربٌ نال شهرة لم ينلها مؤلف خلال النصف الأول من القرن العشرين ، باستثناء أحمد شوقي أمير الشعراء ؛ أي أن أهم أدبيّين نالا شهرة جماهيرية واسعة هما : شوقي الشاعر ، والمنفلوطي الكاتب . وبالطبع فإن هذه الشهرة الجماهيرية ، كما هي الحال في أمثلة أدبية كثيرة ، ليست لها كبير علاقة بالقيمة الفنية لتراث بعض المشاهير .

وفي تحليلنا للرواية لن نقف عند كل عناصر البناء ، وإنما عند أهم تلك العناصر ، وهي : الحدث والشخصية والراوي .

بناء الحدث

لعل أهم سمة يمكن أن نكتشفها للوهلة الأولى بالنسبة لبناء الحدث الروائي والقصصي في تراث المنفلوطي المؤلف والمترجم ، هو أنه بناء « هش » ، يفقد منطق السببية ؛ فالحدث يبدأ في الغالب

(١) المنفلوطي : الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١٨٥ . (٢) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

الفضيلة نموذجاً ١٧

- مثل كثير من الحكايات الشعبية - بداية مفتعلة ، ثم يتطور تطوراً عشوائياً بلا منطق أو فلسفة ، وإنما هناك مصادفة قدرية عارضة ، ومبالغ فيها في أغلب الأحيان . وعلى هذا نجد أحداث الرواية مفعمة بالمصائب والأحزان ، كأنما القدر قد كتب على من فيها اللعنة ؛ من هنا تتحرك مسيرة الحدث من كارثة إلى أخرى ، دون سبب مفهوم ، أو منطق معقول .

والحدث الروائي والقصصي عنده يدور في إطار المشكلات العائلية والأزمات الفردية ، ومن هنا يدور في فراغ بعيداً عن حركة الحياة والأحياء ، حيث نجد أن الأحداث ، في رواية « الفضيلة » ، تدور في جزيرة بعيدة ، كأنما يريد الكاتب أن يقطع كل الأواصر ، التي تربط بين أحداثه وشخصياته والحياة من حولهم . كما أن من يعيشون معهم من شخصيات ثانوية غرباء عنهم ؛ مما يساعد كثيراً على قطع دابر أية علاقة بين الحدث الروائي والإطار الاجتماعي للواقع الذي يدور فيه ، وهذا قريب مما يحدث في الحكايات الشعبية ، حيث يدور الحدث في مكان « هلامي » لا ملامح له ، ولا يؤثر في الشخصيات ولا يؤثرون فيه ؛ ولذلك يسهل فقدان منطق السببية ، وتصبح أية حركة أو انتقال مبالغ فيها مقبولة بالنسبة لحدث يتم في « لا مكان » ، وأيضاً في حالة عدم انعدام وعي شبه مطلق بالزمان . ومما لا ريب فيه أن حالة عدم الوعي - فنياً - بالزمان والمكان ، تؤدي إلى المسيرة العشوائية وغير المبررة بالنسبة للحدث والشخصيات . إن الشخصيات في الرواية - كما هي في الواقع - إذا لم يكن ثمة قضية تربطهم بالزمان والمكان ، فلن تكون هناك مشكلة جوهرية يحركون بها مسيرة الحدث من أجل صياغة فنية جيّدة له . فالحدث (المتصالح) مع الزمان والمكان حدث يقوم على بناء هش ومنطق ساذج ؛ لأنه في الغالب ينقل الصراع من الأرض ومن عالم البشر إلى السماء ، وإلى مشيئة القدر ؛ من هنا يصبح الحدث والشخصية كما يقول المنفلوطي : « مثل ريشة تقذف بها الريح في يوم عاصف ».

ويساعد على غياب المنطق كثيراً في بناء الحدث عند المنفلوطي ، اعتماده - الواعي أو غير الواعي - على شخصية الراوي . وهذا الراوي ، الذي يحكي ، يُوهم القارئ بأنه يروي له خبراً أو يسرد حادثة ؛ وعلى هذا فإنه غير مطالب بالصدق الفني ؛ لأن الراوي سبق أن أوهم القارئ بأنه ينقل خبراً سمعه أو شاهده ، أو ربما شارك في صنعه . ولا شك أن اعتماد الكاتب هذا الاعتماد المطلق على شخصية الراوي ، يوهم بأنه غير مطالب أمام قارئه بمنطق الصدق الفني لصياغة الحدث ، كما يبرر تدخّل المؤلف كثيراً ليقول لقارئه ما يريد مباشرة ، سواء في أثناء السرد أو الحوار ، أو في خلال تشكيله للحدث أو تصويره للشخصية .

وإذا ما حاولنا أن نطبق هذا الفهم على رواية « الفضيلة » ، نجد أن الحدث يبدأ من نقطة غير مقنعة فنياً ، حيث تلتقي السيدتان « مرغريت » و « هيلين » - « مدام دي لانور » في جزيرة مُنعزلة ، وهذا البُعد عن العالم يذكّرنا بأحداث رواية « حيّ ابن يقظان » للكاتب الأندلسي أبو بكر بن طفيل (٥٨١هـ / ١١٨٦م) أو رواية « روبنسون كروزو » للكاتب الإنجليزي دانيال ديفو (١٧١٩) . وتشاء المقادير أن يكون لإحدهما ولد والأخرى بنت ، حتى تنمو قصة الحب العفيف بينهما في أحضان الطبيعة العذراء ، فكان الحب الطاهر لا ينشأ إلا في جو نقي صافٍ ؛ لأن العودة إلى الطبيعة معناها

العودة إلى البكارة والطهارة وهذه فكرة رومانسية خالصة .

وبعد أن ينمو الحب في هدوء وتلقائية بين أحضان الطبيعة ، تظهر مصادفة قدرية أخرى تفرق بين المحبين ؛ إذ تطالب عمة فرجيني بسفرها إلى باريس ، حتى تعلمها وتعوضها عن فقد الأب ، وتغيب هناك ثلاث سنوات (طبعاً الزمن لا قيمة له في مثل تلك الروايات العاطفية ، وإنما هو مجرد رقم يوحي بطول مدة الفراق بين المحبين) . وهنا يجد الكاتب الفرصة سانحة للتعبير عن تباريح الشوق ، ومكابدات العشق ، كأنه شاعر ينظم قصيدة ، من ذلك ما قاله پول لفرجيني قبيل السفر : « وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية ، إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها ؛ لأجلس إليك ساعة ، أتمتع فيها بلذة حديثك ، وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟

» ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعباً لاغياً ، فيتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة ، التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ؟ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ البحر ، وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المنبسطة ، وصبغها بلونه الفضي الجميل ، فيجلس بجانبني على رملة من رماله الميثاء ، فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالصة التي تستغرق شعوري وجداني ، وتملك عليّ مداركي وعواطفني ، ويخيل إليّ حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان في فراديس الجنان ؟

» إنني لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا فرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ، فأنت أجلّ من ذلك شأنًا ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضت إليّ أمي اليوم بسر حياتك وسر حياتي ، فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأنني فتى وضيع جداً ، لا أصلح أن أكون أخاك لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك . وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركبونها ؛ لأكون ملاحاً من ملاحها ، أو خادماً من خدمها ؛ فأراك على البعد فأجد في رؤيتك راحتي وسلوتي ، وأعدك وعداً صادقاً لا أغدر فيه ولا أحنت ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه ، إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي غير حياتي ، فأبذلها لك طيب النفس عنها .»^(١)

وهذا الحوار الطويل الذي اكتفي به هذا الجزء منه ، لا يعكس منطقاً ، ولا يوهم بواقعية ، بل أكثر من هذا إنه على مستوى المضمون ، لا يقدم معنى جديداً أو فكرة مفيدة ، وإنما كل ما جاء فيه - أي الحوار - تكرار ورد في الرواية أكثر من مرة ، وفي أكثر من مناسبة . فكل ما جاء هنا لا يقدم جديداً على مستوى الدلالة ، وتفصيل الحدث ، وصياغة الحكمة ، وتبقى الفائدة الوحيدة - لمثل هذا الحوار أو تلك المقطوعات الأدبية - وهي إظهار قدرة الكاتب على التعبير العاطفي والإنشاء المصنوع لإظهار بلاغته الأسلوبية ومهاراته اللغوية .

ولعل أقوى المواقف مبالغة وزيفاً فنياً ، في مسيرة الحدث ، هو تلك النهاية المليودرامية والمليودرامية في الوقت نفسه ؛ إذ تهب الرياح والأعاصير ، فجأة و دون مبرر ، في اللحظة التي

ظهرت فيها السفينة ، التي تحمل فرجينى عند العودة ، فكأن لحظة ظهور الأمل هي نفسها لحظة وأده بالنسبة للحبيب المسكين بول ، ويموت الحبيبان بعد صراع عاتٍ وقاسٍ مع القدر ، كأنما ذلك رمزاً لصراع الفقراء مع قوى يجهلونهم ، لكنها مع هذا لا تأخذها بهم رحمة أو شفقة .

ومعنى هذا ، بعبارة أخرى في مجال تفسير الحدث الروائي ، هو أن الفضيلة والعفة والطهارة وغيرها من الفضائل الخيرة ، لا تحمي الفقراء والمساكين من القوى الضارية التي تسلبهم حياتهم وأمنهم وحيثهم . ونظراً لأن هؤلاء البؤساء الفقراء ، الذين كان يكتب عنهم المنفلوطي ولهم ، لا يدركون - بسبب قصور في الوعي المعرفي - حقيقةً من يظلمونهم من طغاة السياسة وعتاة الاقتصاد ، لذلك كانوا يظنون أن القدر هو الذي يظلمهم وليس البشر ، وربما كان هذا أحد أسباب نجاح أدب المنفلوطي وانتشاره الواسع ؛ لأنه عرف طبيعة من يكتب إليهم ، فقد كان لا يكتب أدبه للخاصة وإنما : « للفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة ، التي أصبحت تكون القسم الأكبر من الجمهور القارئ في زمنه . الفئات العليا من الطبقة المتوسطة ، كانت آخذة في التخلي السريع عن ثقافتها القومية ، واصطناع لغة أجنبية ، في حين أن الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين كانت محرومة من التعليم أصلاً . وكانت حياة الطبقة الدنيا مأساة دائمة ، فهم صغار الموظفين في حكومة الاحتلال ، يتجرعون كأس الذل يوماً بيوم من يد المستعمر ، وهم صغار الملاك وصغار التجار ، تسلمهم الامتيازات الأجنبية فرائس سهلة للمرابي الأجنبي . وكانت صفوف هذه الطبقة تزداد بمن ينضم إليها كل حين من حطام الطبقة المتوسطة العليا ، الذين تسربت ثرواتهم بشتى الطرق إلى أيدي الأجانب . لا جرم كانت هذه الطبقة تطلب في وقت واحد من يعظها ومن يكيها ، من يقول لها إن الحياة الدنيا متاع زائل ، وكل شيء سائر إلى فساد ، وإن الشرفاء ذوي القلوب المخلصة والضمائر النقية ، لم تقسم لهم السعادة في هذه الدار الفانية . وحول هذه المعاني دارت معظم كتابات المنفلوطي ^(١) .

نتهي من كل ما سبق إلى أن بناء الحدث الروائي ، كما شكله المنفلوطي في رواية « الفضيلة » وفي غيرها من أعماله القصصية ، الطويلة والقصيرة ، يذكر من حيث السذاجة الفنية والبساطة المنطقية ببناء الحدث في « الحكاية الشعبية » ، لا من حيث سهولة التشكيل وعفوية ترتيب الأحداث وتطورها فحسب ، وإنما من حيث التيمات أو العناصر التي تقوم عليها الحكاية الشعبية أيضاً . وهذا ما يتضح من التيمات التي حددها الناقد الروسي فلاديمير بروب في مجال تحليله الشكلي لبناء الحكاية ، أو ما أسماه « مورفولوجيا الحكاية » ، حيث حدد عناصر مختلفة يتشكل منها حدث الحكاية ، ويقوم بها أبطالها الخيرون والشريرون .

وعند مقارنة روايات المنفلوطي بهذه العناصر ؛ نجد أن الكثير منها يتطابق مع التيمات التي حددها بروب لبناء الحكاية الشعبية ، ومع وظائف تلك التيمات المختلفة ^(٢) .

ملامح الشخصية

« يرتبط الحدث بالشخصية في الأعمال القصصية ارتباط العلة بالمعلول ، وعلى هذا فإن الرواية =

(١) شكري عياد : تطور فن القصة القصيرة ، ص ١١٤

(٢) لمزيد من التفصيل في هذا المجال يُراجع : فلاديمير بروب : مورفولوجيا الحكاية الحرافية ، ترجمة وتقديم أبو بكر باقادر و أحمد نصر . طبعة النادي الثقافي بجدة ، ١٩٨٩ . ص ٩٢ وما بعدها .

فعل (حدث) + فاعل (شخصية) . الحدث إذاً شيء هلامي إلى أن تشكله الشخصية - بحسب حركتها - نحو مسار محدد ، يهدف إليه الكاتب ^(١) .

وقد شرحنا - من قبل - الطريقة التي يحرك بها المنفلوطي الحدث ، وبقي أن نتعرف على الكيفية التي يصور بها ملامح الشخصية ؛ فمن المعروف أن الكاتب الجيد هو الذي يستطيع أن يخلق شخصيات مُقنعة فنياً ، والإقناع الفني يمكن قياسه بناء على أن الشخصية تعكس سمات « نموذج » بشري مشابه لها في عالم الحقيقة . إن الخيال الفني مهما خلق ، فإنه ضد الوهم والخرافة ، ومن هنا فإنه ليس هناك خيال فني بلا منطق أو حد ، وهو كما يعرفه « كولردج » : « تلك القوة التركيبية السحرية ، التي أفردنا لها لفظة الخيال ، تكشف لنا عن ذاتها في خلق التوازن أو التوفيق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة ، بين الإحساس بالجدة والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة ، بين حالة غير عادية من الانفعال ودرجة عالية من النظام ، بين الحكم المتيقظ أبداً وضبط النفس المتواصل والانفعال العميق ^(٢) . »

والشخصية الروائية عند المنفلوطي ، مهما اختلف النموذج الإنساني الذي تمثله : غنى أو فقر ، كبيراً في السن أو صغيراً ، رجلاً كان أو امرأة ، شاعراً أو محارباً ، خيراً كان أو شريراً - (وبالمناسبة فإننا نلاحظ أن الشخصيات الشريرة قليلة جداً في روايات المنفلوطي ، لسبب بسيط هو أن القدر وحده - في الغالب - عدو البشر) - فإنها جميعاً تشترك في سمة واحدة ، هي (السلبية) الشديدة في التصرف إزاء الأحداث ، بل إن هذه السلبية تبدو سلبية مطلقة ، فلا تستطيع أن تخارب شراً ، أو تحقق خيراً . إنها شخصيات خيرة ، طيبة ، مؤمنة ، متطهرة ، ومع ذلك ينتظرها مصير قاتم شديد القسوة .

وهذه الشخصيات - في الغالب - يشل من حركتها « عيب » جسدي أو أخلاقي ليست مسئولة عنه . فسيرانو دي برجرارك في « الشاعر » كامل في كل شيء إلا قبح الوجه وكبر الأنف ، وبول في « الفضيلة » لا يعرف لنفسه أباً ولا أصلاً ، وقسطنطين في « في سبيل التاج » تموت أمه فتحاربه زوجة أبيه ، واستيفن في « ماجدولين » يملك الكثير من الصفات الحميدة مثل الرغبة في العمل والكفاح والاعتقاد بأن السعادة ليست في الجاه أو الثروة ، لكنه فقير .

إن أبطال روايات المنفلوطي يذكروننا ببطل المسرح اليوناني القديم ، حيث يحمل البطل عيباً لا ذنب له فيه ، ورغم هذا يكون ذلك العيب سبب سقوطه المدمر .

وقد ترتب على هذا العجز وعدم القدرة على المواجهة والسلبية إزاء الأحداث بالنسبة لمكونات الشخصية ، أن الكاتب لم يكد يهتم بتحديد الوصف الجسدي أو الشكل المادي أو العمر الزمني لها أو وصف ملابسها أو لحظة تناولها الطعام أو الشراب . ولا نجد مع توالي الأحداث أننا نكتشف بُعداً جديداً يحدد بعض ملامح الشخصية ، بدرجة نستطيع معها القول إن شخصيات المنفلوطي « أبطال » من حيث المساحة التي يحتلونها في عالم الرواية ، لكنهم ظلوا مع ذلك شخصيات « مسطحة » فنياً ، أي أنه شغل بالكم عن الكيف .

(١) طه وادي : دراسات في نقد الرواية ، ص ٣١ .

(٢) ريتشاردز ، أ . أ . : مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة وتقديم مصطفى بدوي ، مراجعة لويس عوض . القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ١٩٦٣ . ص ٣١٢ .

الفضيلة نموذجاً ٢١

وفي الحقيقة لم يهتم بأكثر من بيان دورها خلال مسيرة الحدث ، ومعنى هذا أنه لم يستطع أن يقدم الشخصية ، بحيث تكون ناضجة فنياً ، بطريقة تساعد القارئ على تمثيل هيئتها المادية ومكوناتها النفسية ؛ فالمنفلوطي لم يُعِنْ إلا بالوصف الإنشائي لما تقوم به الشخصية أو تفعله ، أما تحديد ملامحها فهذا شيء لم يحاوله ولم يخطر له على بال . ونحن إذ نطلب منه ذلك ، فإننا نريد منه شيئاً فوق طاقته الفنية ، بل وطاقة بعض كتّاب الرواية الحقيقيين في عصره أمثال محمد حسين هيكل وإبراهيم عبد القادر المازني وجرجي زيدان .

ومن أمثلة التقديم المسطح للشخصية ما قاله في وصف مدام دي لانور ، أم فرجيني : « وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر ^(١) » . ويقول مرة أخرى في معرض تقديم شخصية مرغريت ، أم بول : « امرأة صالحة ، كريمة ، رقيقة الحال ^(٢) » .

ويقول في وصف فرجيني : « طفلة جميلة كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه ^(٣) » .

كذلك يصوّر بول بقوله : « وكان بول وهو في الثالثة عشرة من عمره ، كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطاً وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يملّ العمل نهاره ولا ليله ^(٤) » .

وبالطبع فإن هذه العبارات الإنشائية الفَضْفَاضة ، لا تساعد على تمثيل صفات الشخصية أو معرفة ما يريد الكاتب أن يقوله عنها بالضبط ، وهذا القصور في رسم ملامح الشخصية أمر تساوى فيه صورة المرأة وصورة الرجل . ونخرج من كلتا الصورتين بانطباع واحد ، هو أنه يقدم الشخصية بطريقة تذكرنا بطريقة راوي أو مؤلف الحكاية الشعبية ، الذي لا يقدم وصفاً مفصلاً لشخصياته بقدر ما يقدم جملاً إنشائية عامة ، تقرب السامع إليها أو تنفّر منها .

ونحسّ من صورة المرأة - ربما أكثر من صورة الرجل - أنها قرية جداً من رُوح الحكاية الشعبية ؛ لأن معظم النساء عند المنفلوطي جميلات بطريقة تذكرنا بـ « ستّ الحُسن والجمال » ، كما أنها تجمع بين الجمال المادّي والكمال الأخلاقي - في أغلب الأحيان - يؤكد هذا أن فرجيني بطلة رواية « الفضيلة » أثرت الموت غرقاً على أن تترك يد رجل غريب تلامس جسدها (هكذا كأنما الشخصية واعية عند الغرق ، على حين هي في اللحظات العادية ، في الرواية تكون مغيّبة ، أو مثل الشاة الوديعه !) وسوف نقدم وصفاً لهذا المشهد بأسلوب المنفلوطي :

« وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من فرجيني ، واقفة في مؤخرتها ، تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بخار واقفاً في مقدمتها قد خلع ملابسه ، ثم لمح فرجيني واقفة موقفها هذا ، فأبى له كرمه و وفاؤه إلا أن يمدّ لها يد المعونة لينقلها ، فمشى إليها ، وجثا بين يديها ، وطلب منها أن تخلع ثوبها ؛ ليحملها على ظهره ، ويسبح بها .

« أ تدري ماذا كان بعد ذلك ؟

« كان أن غلب الحياء على الفتاة ، حينما رأت رجلاً عارياً بين يديها ، يريد أن يضمّها عارية إلى جسمه ، فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا . فصاح الناس (الواقفون على الشاطئ على

(١) الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١١٥ . (٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٩ . (٤) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

بعد كيلو متر على الأقل ، والعواصف شديدة ، بالطبع في البحر فقط ؛ لأن الذين على البر لا يبدو أنهم يحسّون بها) من كل جانب : « أنقذها ! أنقذها ! » فوثب الرجل قائماً على قدميه ، ومدّ يده إلى ثوبها ليجرّدها منه .

« وهنا ، وا أسفاه (لاحظ صوت الراوي) أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم ، (لاحظ التشبيه المحفوظ) تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمر في اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، (لاحظ العبارات المسكوكة) فذعر البحار إذ رآها ، وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه ، وألقى بنفسه في الماء .

« أما فرجيني فلم تحف ولم تطش ، بل لبثت في مكانها كما هي ، وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها (لاحظ الاقتباس من القرآن) فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، و وضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها في الفضاء ، فأصبح منظرها منظر ملك كريم ، يطير بجناحيه في جو السماء .^(١)

هكذا نستطيع القول : إن المنفلوطي قد استخدم في تصوير ملامح الشخصية نفس الأدوات الفنية البسيطة ، التي استعان بها في رسم مسيرة الحدث ، وطريقة المنفلوطي في تقديم كلا العنصرين (الحدث والشخصية) تذكّرنا بسمات التشكيل التلقائي البسيط للقص في الحكاية الشعبية ، ومعنى ذلك أن المنفلوطي روائياً قد خرج من عباءة التراث ، ولا سيما التراث الشعبي ، وعلى هذا أيضاً فإن الجمهور حين أقبل على قصصه ورواياته ، فإنما كان يتذوق إحياءاً جديداً موصى لإبداع قديم أصيل ، عاش في وجدانه ، ولا يزال مسيطراً عليه . لقد وظّف المنفلوطي الطريقة المألوفة لذوق الجمهور العربي في الحكاية الشعبي ، لكنه قدّم في هذا الشكل القومي الشعبي مضامين جديدة ؛ أي أنه جمع بين الأصالة والمعاصرة في القص في آن واحد ، وهذا سبب آخر من أسباب إقبال القراء عليه . فإذا أضفنا إلى هذا أن الموضوعات التي كتب فيها ، كانت مثارة بقوة في عصره ، مثل : الموقف من الحضارة الغربية ، ومشاكل التعليم والعمل ، والمرأة بين التحرر والمحافظة ، ومحاربة الاستعمار أو مهادنته ، و الصراع بين الغنى والفقر ، وعلاقة الفقر بالشرف والأمانة والغنى والجاه بالانتهازية وعدم الالتزام بالأخلاق ، وضياح الفقراء في الحياة ، ومعنى السعادة والتكافل الاجتماعي - فإن هذا يضيف عاملاً آخر من عوامل إقبال القراء على كتابات المنفلوطي .

ولا شك أن موضوعات المنفلوطي ، ورأيه المنحاز إلى موقف المحافظة و صفّ الفقراء ، يعد عاملاً آخر ساعد على انتشار أدبه .

القص بطريقة المقالة

حين تتأمل رواية « الفضيلة » ، أو غيرها من الروايات ، نجد أن كاتبنا قد وظّف طريقة معينة في « القص » وتشكيل عالم الرواية ؛ ذلك أنه كتب الرواية بطريقة تحرير المقالة ؛ فقد قسم الرواية إلى فصول ، تأخذ رقماً حسابياً ، ثم أتبع ذلك الرقم بعنوان ، أي أن الرواية تتكون من الأرقام والعناوين التالية ، على سبيل المثال :

(١) الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١٧٦ .

- (١) جزيرة موريس (٢) الشيخ
(٣) مدام دي لاتور (٤) مرغريت
(٥) الحياة الطبيعية (٦) حياة الطفولة ... إلخ

ومعنى هذا أن المنفلوطي لم يستطع أن يُفَلِّت من صفته الأساسية ، وهي أنه كاتب مقال بالدرجة الأولى . وقد اعتمد على هذه الطريقة ذاتها في كتابة الرواية ، حيث قسّمها إلى عدة فصول أو مقالات محدودة الطول إلى حد كبير ؛ بل إن بعضها لا يتجاوز صفحتين ، وإن طال فلا يزيد على عشر صفحات ، ومعنى هذا أن حجم كل فصل يكاد لا يتجاوز حجم المقال المألوف عنده .

ولا ريب في أن هذه الطريقة كانت تساعد الكاتب على أن يجود عباراته اللغوية ، ويحسن جملة الإنشائية ، لأن الأسلوب اللغوي يعدّ أولى السمات الأدبية التي غزا بها تراث المنفلوطي وجدان جمهوره ؛ لأنه دخل إليهم من باب التعبير البلاغي ، الذي يعتمد على كل ما هو مألوف ومعروف في أساليب النثر العربي القديم .

وتدل هذه الطريقة - طريقة كتابة الرواية بتكنيك المقال - على أن المنفلوطي لم يكد يغيّر منهجه في الكتابة ، وطريقته في التعبير البياني ، الذي يتلاءم مع معظم نماذج النثر الأدبي في إطار مدرسة الإحياء .

وإذا كان المنفلوطي قد دخل تاريخ الأدب الحديث من باب المقالة الأدبية فقد ظل عليه عاكفا ؛ لذلك فهو يكتب القصة والرواية بتكنيك المقالة ، كما أنه - أحيانا - يمزج طريقة كتابة المقال ببعض أدوات القص ، وهذا ما يؤكد وحدة الملكة الأسلوبية عند الأديب الواحد مهما تعددت الأنواع التي يكتب فيها . ألسنا على حق إذا حين نقرر أن المنفلوطي لم يكد يغيّر خطته في الكتابة ، أو طريقته في التشكيل ، أو أسلوبه في التعبير منذ البدء حتى الختام ؟ وهذا أمر منطقي لأن الأديب شخصية واحدة ، و من هنا يظل المقلّد مقلداً ، والمجدّد مجدداً من البداية إلى النهاية . وأسلوب المنفلوطي في الكتابة قريب من أسلوب : حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوي ، وعبد الله فكري ، وعلي فهمي رفاعة ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، وعلي يوسف ، وسعد زغلول ، ومحمد المويلحي وغيرهم .

* * *

٧- موقع المنفلوطي على خارطة الأدب الحديث

حين نحاول أن نقوم دور إنسان ما في تاريخ الأدب ، يجب أن نفرّق بين نوعين من الأدباء :

أ- أديب ساعده الجاه والمنصب والدور العام في المجتمع على أن ينتشر أدبه ويُذاع ، ويطلع وينشر ، لكن مكانة الرجل مع هذا لم تستطع - ألبتة - أن تعطي لأدبه قيمة أو تمنح أعماله خلوداً . ومعنى هذا أن المرء مهما أوتي من نفوذ أو جاه أو ثروة أو شهرة لا يستطيع بمنصبه أو شهرته أن يهب أدبه قيمة ليست فيه .

ب- أدباء لم يملكو إلا قلمًا به يكتبون ، ولم تكن لهم مكانة مرموقة ، أو وظيفة خطيرة ؛ بل إن بعضهم كان يعيش على هبات يعطيها لهم بعض ذوي الفضل لكنهم رغم الفقر المادي والتواضع الاجتماعي كانوا أدباء كباراً ، واستطاعوا - بقوة الملكة وسلطان الموهبة - أن يفرضوا وجودهم الفني وخلودهم الأدبي .

والى هذه الفئة الأخيرة من الأدباء والفنانين ينتمي أدينا المنفلوطي ، الذي لم يكمل تعليمه في الأزهر ، وبدأ يعرف كاتباً قبل أن ييسط سعد زغلول حمايته عليه وصحبه له في أي ديوان عمل به . والوظيفة التي كفلها له سعد كانت وظيفة مُحَرِّرٍ ، أو بالمعنى المألوف حالياً « سكرتير » .

وعلاقة المنفلوطي بسعد زغلول ، الذي عينه محرراً للقسم العربي ، في وزارة المعارف و وزارة الحَقائبة و مجلس النواب ، تذكرنا بوظيفة « كاتب ديوان الإنشاء » ، تلك الوظيفة التقليدية التي أنشئت منذ القرن الأول الهجري ، وأهم مَنْ عمل بها حينذاك عبد الحميد الكاتب . وقد شغلها بعد ذلك بعض أدباء كبار مثل سهل بن هارون و ابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل وديع الزمان الهمداني وعبد الله فكري ، ولم يكن مطلوباً لهذه الوظيفة من مؤهل سوى حُسن صياغة العبارة وجمال الأسلوب ؛ ولعل هذا ما ساعد على ظهور الصنعة الأدبية في النثر العربي .

حلقة الوصل

من هنا نبدأ ونريد أن نقول : إن المنفلوطي صاحب أسلوب أدبي متميز ، له سمات واحدة ، أو مقاربة على الأقل ، يكتب به المقال والقصة والرواية المترجمة والشعر ، بطريقة تذكرك بكثير من خصائص النثر العربي في القديم وفي الحديث - أعني في إطار « مدرسة الإحياء » التي ينتمي إليها كاتبنا ، ومن أهمها :

العناية باللغة على مستوى المفردات المتداولة لأن فصاحة اللغة مطلب جمالي في حد ذاته ، وقصر الجملة ، حتى تؤثر القيمة الموسيقية للسجع ، مع الحرص على بعض المحسنات البديعية ولا سيما الترادف والطباق والمقابلة والجناس والتورية ، كذلك يحرص الكاتب على أن يستخدم بعض الصور البيانية مثل التشبيه والاستعارة والكناية . وتحسُّ وأنت تقرأ كثيراً من هذه الصور البيانية أنها مقتبسة من التراث الديني أو الأدبي ، أو على الأقل مُشكَّلة على نفس النسق اللغوي ، الذي كانت تتشكل به هذه العناصر التخيلية .

وما حرص عليه - أيضاً - كُتَّاب النثر العربي ، « التَّنَاصُّ » أي اقتباس نصوص من سياق آخر والاستشهاد بها ، وهو معروف في البلاغة القديمة باسم « التضمين » ومعناه أن يُضمَّن النصُّ بآية قرآنية ، أو حديثٍ نبوي أو بيت شعر ، أو مثل من الأمثال ، أو قول من الأقوال المأثورة .

وإذا كان هذا هو ما أخذته الكُتَّاب من علمي البيان والبديع ، فإنهم قد أخذوا من علم « المعاني » خاصية هامة ، وهي التعدد في نوعية الجُمْل بين الخبر والإنشاء ، والجُمْل ذات المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

وهذا معناه - ببساطة شديدة - أن معظم كُتَّاب النثر في التراث العربي كانوا أسرى لعناصر علوم البلاغة . وفي الحقيقة ليست هناك تراكيب أدبية دونَ توظيف جيد لموضوعات البلاغة ، لكن هناك

فرقاً شاسعاً بين أن تقدم هذه السمات ببساطة وتلقائية ، وأن ترد بكثرة وتعمد ؛ ولعل هذا هو ما حوّل الصنعة الأدبية التي كانت تقوم على السهل الممتنع إلى تصنع متكلف يزهد دلالته المعنى . ويؤكد هذا الرأي أستاذنا شوقي ضيف حين يقول :

« إن التنافس بين الكتّاب ، والحرص على وظيفة كاتب الديوان ، دفع الكتّاب إلى أن يصلوا بنثرهم إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر ، فهو نثر منظوم أو هو شعر منشور . وماذا يفصل بينه وبين الشعر ؟ إنه يعتمد على الموسيقى - موسيقى السجع ، كما يعتمد على زخرف البديع ، وإنهم ليلبغون في ذلك ، حتى تتحوّل رسائلهم إلى ما يشبه الوشي الخالص ، فهي حلّى وتنميق وبديع وترصيع .

« وإن الإنسان ليخجل إليه كأنما تحوّل صناعة النثر في تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحوّل تاماً ؛ إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة ، فهي تحف تنمق في أروع صورة للتنميق ، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك في آياتها وبدايقها ... » (١)

بهذا الأسلوب الإنشائي الفصيح المزخرف كان المنفلوطي يكتب مقالاته ورواياته ، ومؤلفاته وترجماته ، ومن خلال هذه العلاقة الأسلوبية التراثية غزا المنفلوطي وجدان قرائه ، ودخل قلب جمهوره .

إن المنفلوطي - رغم بعض دعواته إلى إصلاح المجتمع وتجديد الأدب - لم يكد يستطيع أن يخرج من إطار فلسفة الإحياء في الفكر والفن ؛ لذلك فهو كاتب محافظ يجنح إلى التقليد والمحاكاة لتراث العصور الذهبية في الكتابة الأدبية .

وعلى هذا فإنه يعدّ حلقة الوصل بين الكلاسيكية الحديثة ، التي تُعنى بالصياغة اللفظية والزخرفة الإنشائية ، مع الحرص على نقاء المفردة اللغوية ويُعدها نسبياً عن لغة الحياة ولغة الصحافة (وهذا ما جعله يشرح بعض المفردات في الهامش في بعض كتبه) مع محاكاة كل خصائص الصنعة الأسلوبية والمدرسة الرومانسية ، التي تحاول إحداث ثورة تنادي بضرورة أن تكون اللغة وسيلة تعبير ليس إلا ، وأن يكون الأدب مجالاً للتعبير عن العواطف الإنسانية ، وأن يبتعد عن التقليد والمحاكاة .

وكون المنفلوطي حلقة وصل بين مدرسة الإحياء المحافظة ، ومدرسة التجديد الرومانسيّ الثائرة ، جعل جمهور الإحياء يفضلونه على كل من عاداه ، ويرون فيه كاتبهم الأول ، كما جعل كثيراً من جمهور الرومانسية لا يرفضونه ، وإنما يتعاملون مع أدبه بقدر كبير من السماحة والمصالحة . ولا نبالغ إذ نقول إنه - رغم إحيائيته - كان أقوى صوت بَشَر بالرومانسية في مجال النثر ، وجعل قراء الأدب يتقبلونها قبولاً حسناً .

ومعنى هذا من جانب آخر أن المنفلوطي المحافظ نال شهرته الأدبية في عصر سيادة الرومانسية . أكثر من هذا أنه كان منتشرًا بدرجة أكبر كثيراً من كل كتّاب الرومانسية في عصره ، أمثال محمد حسين هيكل وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد ، وغيرهم .

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي . ط ١٠ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ . ص ٢٢٧ .

وكما أسس المنفلوطي الكاتب المحافظ شهرته في عصر الرومانسية ، كذلك كان الأمر بالنسبة لأحمد شوقي الشاعر ، الذي حصل شهرة لم يحصلها كل شعراء الرومانسية في عصره ، أمثال عبد الرحمن شكري وعباس العقاد وإبراهيم المازني وخليل مطران وغيرهم ، وأكثر من هذا أنه نال إمارة الشعر العربي سنة ١٩٢٧ في أثناء فورة المدّ الرومانسي .

أ ليس هذان المثالان : المنفلوطي وشوقي كافيين لأن نقول : « إن الموهبة الفنية للأديب تمنحه خلوداً ، يتجاوز إطار المدرسة التي ينتمي إليها والعصر الذي يعيش فيه » ؟!

بناء على كل ما سبق ننتهي إلى أن المنفلوطي يعدُّ رائداً من رواد تجديد النثر ، من خلال تطوير أسلوب المقال الأدبي ، وما قدّمه في هذا المجال يعدُّ - بالإضافة إلى ما أنجزه إبراهيم عبد القادر المازني وطه حسين - الحلقة الأخيرة في تاريخ النثر الفني في الأدب العربي . كما أنه أسهم بما عرّب من روايات نالت شهرة واسعة ، وأثّرت على كثير من الأدباء العرب والمسلمين^(١) في تثبيت جذور فن الرواية الحديثة في بيئة محافظة ، ومنحه نوعاً من شرعية الوجود ، لأنه قدّم هذا الفن الجديد الذي لم يكن معترفاً به بشكل صريح ، وخاصة من قادة التيار السلفي وجمهوره الواسع العريض ، برؤية أخلاقية محافظة ، وأسلوب لغوي بليغ .

وإذا كان المنفلوطي في كل ما كتب من مقالات وقصص وروايات ، يدعو إلى التمسك بالفضائل الأخلاقية والقيم النبيلة ، وفي مقدمتها الحب العذري فإن ذلك يعكس نوعاً من الاحتجاج العاطفي على ما شاع في المجتمع من فساد ومشكلات ؛ لأن الدعوة إلى الفضيلة ، والبحث عن ملاذ روحي ، ونشدان الحب الأفلاطوني ، تمثل رغبة غير صريحة في السُّحط على ما ظهر في المجتمع من أزمات ، سواء بسبب الحضارة الغربية الغازية أو القوى الحاكمة غير العادلة ، كما تمثل أملاً في الرقي بالمجتمع ، حتى يحقق السعادة لأكبر عدد من الناس ؛ لأن البحث عن الفضيلة والحب في واقع لا وجود بهما ، أمر يعكس في جوهره رغبة الأديب في الوصول بمجتمعه إلى عالم أفضل ، يحقق الإيمان بالمثل والعدالة والرحمة والمحبة والسعادة لأبناء المجتمع ، الذين يكتب عنهم ولهم . وهذا جوهر ما حاول أن يصوّره المنفلوطي ، ويدعو إليه ، وهذا أيضاً سرُّ خلود تراثه الأدبي حتى اليوم .

طه وادي

الدقي ، الجيزة - نوفمبر ١٩٩٠

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) أدب المنفلوطي أقر في أدب الكاتب الإندونيسي الحاج عبد المالك بن الحاج عبد الكريم أمر الله المعروف بحامكا . حسين محمد أبو بكر : أدب المنفلوطي وأثره في أدب حامكا . رسالة ماجستير ، قُدمت إلى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، سنة ١٩٨٢ - إشراف الأستاذ الدكتور طه وادي .

ملاحق خاصة بدراسة المنفلوطي وأدبه

١- تواريخ هامة في أدب المنفلوطي

١٨٩٧ * بدأ المنفلوطي ينشر بعض مقالاته الأدبية في بعض الصحف ، ولا سيما « الصاعقة » و « المؤيد » . وبدأت شهرته تتأكد من خلال مقالاته التي يدعو فيها إلى الإصلاح بأسلوب أدبي يجمع بين حُسن الصنعة وتلقائية الموهبة . ولا ريب في أن أسلوب المنفلوطي السهل الممتنع ، تأليفاً وترجمةً ، هو الذي أعطاه بعض ما يحمل من شهرة أدبية واسعة على امتداد الوطن العربي كله، منذ ظهوره إلى اليوم .

١٩١٠ * صدرَ الجزء الأول من « النظرات » ، وهو مجموعة مختارة من مقالاته الأولى المنشورة في الصحف المصرية .

١٩١٢ * صدر كتاب « مختارات المنفلوطي » ، وهو عبارة عن بعض نماذج أدبية مُختارة ؛ لتكون مساعدة على تثقيف طلاب المدارس وهواة القراءة الأدبية .

١٩١٢ * صدر الجزء الثاني من « النظرات » ، وهو يتكون من مجموعة أخرى من المقالات في موضوعات متنوعة .

١٩١٣ * أعيد طبع الجزء الأول من « النظرات » بعد أن نفذت الطبعة الأولى .

١٩١٥ * ظهرت الطبعة الأولى لكتاب « العبرات » ، وهو يشتمل على مجموعة من القصص الموضوعية (المؤلفة) والمترجمة (المعربة) ، وهي تهدف إلى بيان بعض مبادئ دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي والتهديب الأخلاقي .

١٩١٧ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « ماجدولين » أو « تحت ظلال الزيزفون » تأليف الكاتب الفرنسي « ألفونس كار » ، وقد ترجمها محمد فؤاد كمال ، صديق المنفلوطي .

١٩٢٠ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « في سبيل التاج » ، وهي في الأصل مسرحية للأديب الفرنسي « فرانسوا كوييه » وقد ترجمها له حسن الشريف .

١٩٢١ * ظهرت الطبعة الأولى من رواية « الشاعر » أو « سيرانو دي برجراك » ، وهذه الرواية ألفها الأديب الفرنسي « إدمون روستان » ، وهي في الأصل مسرحية ترجمها محمد عبد السلام الجندي ، ثم أخذها المنفلوطي وعربها بطريقته وجعلها رواية .

١٩٢١ * طبع الجزء الثالث من « النظرات » ، وقد صودر الكتاب ؛ لأنه كان يشتمل على بعض المقالات السياسية ، المؤيدة لسعد زغلول ، والمدافعة عنه

في أثناء فترة نفيه خارج الوطن إلى « مالطة » .
 ١٩٢٣ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « الفضيلة » أو « پول و فرجينى » ، وقد ألفها الكاتب الفرنسي « برناردين دي سان بيير » ، وقد اعتمد المنفلوطي في تعريبها على ترجمة محمد عثمان جلال لها بعنوان « الأمانى والمنة » في حديث قبول و ورد جنة « سنة ١٨٧٢ ، وترجمة فرح أنطون لها بعنوان : « بولس وفرجينى » ، وهي آخر عمل أدبي كتبه المنفلوطي قبيل وفاته .

* * *

٢- تواريخ هامة في حياة المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤)

الاسم : السيد مصطفى بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفي المنفلوطي .
 وقد أضيف إلى اسمه لقب « السيد » لكونه من « الأشراف » الذين ينتهي نسبهم إلى « الحسين ابن علي بن أبي طالب » (رضي الله عنهما) كما يضاف إلى اسمه أيضاً لقب « المنفلوطي » نسبة إلى مسقط رأسه ، وهو مدينة « منفلوط » - محافظة أسيوط .

والده : السيد محمد بن محمد لطفي ، قاضي « منفلوط » ، وأحد أعيانها ، وهو من أسرة توارث أبناؤها منصب القضاء ونقابة « الأشراف » وريادة الصوفية .

والدته : السيدة « هائم علي حسين الشوريحي » وهي من عائلة تركية تمصرت .
 وقد طُلِّقت من أبيه وتزوجت رجلاً غيره ، وربما كان لذلك تأثيرات قوية على نفسه وأدبه .

مولده : ٣٠ ديسمبر ١٨٧٦ / ١٠ من ذي الحجة ١٢٩٣ هـ .

التعليم : تلقى تعليمه الأولي وحفظ القرآن الكريم في مكتب الشيخ جلال الدين السيوطي ، وفي سنة ١٨٨٧ بعث به أبوه إلى الأزهر في القاهرة ، وقد مكث فيه عشر سنوات ١٨٨٨-١٨٩٨ يدرس علوم الدين واللغة ، لكنه لم يكمل دراسته في الأزهر ، حيث ضاق بعلومه الجافة وتعليمه التقليدي ، فكان يترك ذلك إلى قراءة بعض كتب الأدب وحفظ بعض قصائد الشعر . وفي مقدمة « النظرات » (ج١) قائمة بأسماء من كان يقرأ لهم ، ويعجب بهم من الأدباء والشعراء ، وهذا ما ساعده على كتابة الشعر وهو في السادسة عشرة . ومن قراءاته الأدبية المبكرة :

« العقد الفريد » لابن عبد ربه - « الأغاني » للأصفهاني - « زهر الآداب » للحميري - « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » للبرجاني . كما قرأ لعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن خلدون وابن الأثير والآمدي .

ومن الشعر قرأ دواوين : المتنبي والبحري وأبي تمام والشريف الرضي وغيرهم .

علاقته بمحمد عبده : التقى المنفلوطي أستاذه سنة ١٨٩٥ تقريباً ، ويبدو أنه قد تعرّف به من خلال تدريس علوم البلاغة ، ولا سيما كتب عبد القاهر الجرجاني . وقد نقل تلمذته له من الأزهر إلى بيت الإمام ومجالسه ، ولازمه ملازمة الابن للأب والمريد للقطب ، وتلمذ عليه تلمذة مباشرة وشاملة ، بطريقة شكلت بعض ميوله الأدبية وفكره السياسي ونهجه الإصلاحي . وقد تعرّف عن طريقه بسعد زغلول والشيخ علي يوسف وغيرهما من رجال السياسة والصحافة والأدب . وكان هؤلاء الثلاثة : محمد عبده و سعد زغلول و علي يوسف من أهم الشخصيات التي أثرت في تكوين شخصية المنفلوطي الإنسان والأديب والموظف .

السجن (نوفمبر ١٨٩٧) : سجن المنفلوطي مدة سنة أو ستة شهور بعد التخفيف ، على إثر تأليف قصيدة في هجاء الخديو عباس حلمي عند عودته من تركيا سنة ١٨٩٧ ، ويبدو أن السيد محمد توفيق البكري والصحفي أحمد فؤاد قد شجعا على نظم القصيدة ، ومطلعها :

قدومٌ ولكنْ لا أقولُ سعيدٌ وملكٌ - وإنْ طال المدى - سييّدُ
رحلتْ و وجهُ الناسِ بالبشرِ باسمٍ وعدتْ وحرّتْ في القلوبِ شديدُ

١٩٠٥ : عاد إلى بلده حزينا بعد وفاة أستاذه الإمام في هذه السنة ، وكان في منفلوط يقرأ ويقيم ندوات أدبية في بيته ، ويراسل بعض الجرائد ، ومن أهمها جريدة « الصاعقة » سنة ١٩٠٦ وجريدة « المؤيد » سنة ١٩٠٧ . ولكن « المؤيد » كانت الجريدة التي نشر فيها معظم مقالاته في هذه المرحلة ، ومن خلالها بدأ يبرز اسمه الأدبي ، لأنه كان ينشر شعره ونثره في الصحف منذ سنة ١٨٩٦ تقريباً .

أكتوبر ١٩٠٨ : عاد إلى القاهرة ، وأخذ يواصل كتاباته الأدبية في الصحف .

١٩٠٩ : عينه سعد زغلول ناظر (وزير) المعارف آنذاك في وظيفة « المحرر العربي » للوزارة ، وقد ساعده على ذلك إعجاب سعد به ، حيث تعرف عليه في مجالس الإمام ، كما أن شهرة المنفلوطي الأدبية كانت قد تأكدت لدى الجمهور منذ وقت مبكر .

١٩١٠ : انتقل سعد زغلول ناظراً للحقانية (العدل) فأوجد له وظيفة جديدة فيها هي « المحرر العربي » ونقله معه إليها .

١٩١٣ : انتخب سعد زغلول وكيلاً للجمعية التشريعية فأخذه معه ضمن « قلم السكرتارية » إلى أن أغلقت الجمعية بسبب قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ولكنه ظل موظفاً بالحكومة إلى سنة ١٩٢١ ، حيث كتب مجموعة من المقالات الوطنية نشرها في « النظرات » ، يدافع فيها عن سعد زغلول في أثناء نفيه ، وهذا ما جعل عبد الخالق ثروت يصادر الكتاب ويفصل صاحبه من الوظيفة في قلم السكرتارية في الجمعية التشريعية . ويبدو أن بعض رجال الوفد قد سعوا لإعادته إلى الوظيفة ، رغم توقف أعمال الجمعية التشريعية .

١٩٢٣ : أصبح سعد زغلول رئيساً للوزارة ، فعين المنفلوطي رئيساً لفرقة السكرتارية في مجلس الشيوخ ، بمرتب قدره خمسون جنيهاً مصرياً ، في وقت كان الجنيه المصري فيه أعلى قيمة من الجنيه الإسترليني ومن الجنيه الذهب !

١٢ يولييه ١٩٢٤ : مات المنفلوطي - فجأة - بسبب تسمم الدم (البولينا) . وكان ذلك يوم سبت ، وقد مات في اليوم الذي حدث فيه اعتداء على سعد زغلول ؛ فكأنه مات وفاءً لصاحب الفضل عليه !

زواجه وصفاته : تزوج المنفلوطي للمرة الأولى في سن مبكرة ، وهو طالب في الأزهر ، بالسيدة « آمنة أبو بكر الشيخ » وهي من منفلوط ، ومن أسرة غنية ، وقد توفيت سنة ١٩١٠ ، وورث عنها بعض الأراضي الزراعية . ثم تزوج بعد ذلك بسيدة قاهرية ، هي « رتيبة حسني » ، وقد أنجب المنفلوطي من زوجته البنين والبنات ؛ ولكن بعض أبنائه ماتوا صغاراً ، فرثاهم رثاء حاراً يدل على قوة تأثيره بفقدهم .

كما أنه كان يتسم بالتواضع وهذوء الطبع والعفة ورقة الشعور وحب الناس ، والكرم وحسن الضيافة ؛ لأنه كان صاحب مجلس يفد إليه الكثيرون .

وكان حاداً في عواطفه الذاتية وفيما لأصدقائه من المصريين والعرب ، لا يعرف المهادنة في بعض مواقفه الوطنية ؛ فقد كان لا يخشى الخديو أو الإنجليز أو خصوم سعد زغلول وحزب الوفد . وتعكس كتاباته الأدبية المختلفة بعض هذه الصفات التي ذكرناها .

* * *

٣- أهم الدراسات المتعلقة بأدب المنفلوطي

إبراهيم عبد القادر المازني (بالاشتراك مع العقاد) : الديوان في الأدب والنقد . القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٢ .

أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي . القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٧٢ .

أحمد هيكمل : تطور الأدب الحديث في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .

أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها . بيروت ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٣ .

أنيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .

بطرس البستاني : أدباء العرب . بيروت ، ١٩٣٧ .

حسين محمد أبو بكر : أدب المنفلوطي وأثره في الأديب الإندونيسي « حامكا » . رسالة ماجستير بأداب القاهرة ، إشراف د. طه وادي ، ١٩٨٢ .

سعد ميخائيل : أدباء العصر . القاهرة ، العمران ، (د.ت)

ملاحق ٣١

سيد حامد النساج : تطور فن القصة القصيرة في مصر . القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .

شكري عياد : القصة القصيرة في مصر . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٧٩ .

شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

صلاح عبد الصبور : ماذا بقي منهم للتاريخ ؟ القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٦١ .

الطاهر أحمد مكّي : القصة القصيرة : دراسة ومختارات . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

طه وادي : مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ .

طه وادي : صورة المرأة في الرواية المعاصرة . ط ٣ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

طه وادي : دراسات في نقد الرواية . القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٨٩ .

عبد الحسّن بدر : تطور الرواية العربية في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .

مارون عبود : جدد وقدماء . بيروت (د.ت.)

مارون عبود : أدب العرب . بيروت ، ١٩٦٠ .

محمد أبو الأنوار : مصطفى المنفلوطي ؛ حياته وأدبه . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨١-١٩٨٥ . ج ٣ .

محمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ .

محمد شلبي : مصطفى المنفلوطي الأديب الاشتراكي . القاهرة ، دار الكتب ، (د.ت.)

محمود حامد شوكت : الفن القصصي في الأدب المصري الحديث . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٦ .

العبرات

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعةِ بئسٍ مثلي أن يمحوَ
شيئاً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقلُّ من أن أسكبَ بين أيديهم هذه
العبراتِ ، علَّهم يجدونَ في بُكائي عليهمَ تَعزِيَةً و سَلْوى .

مصطفى لطفي المنفلوطي

الشاحب نفساً فَرِيحَةً مَعْدَبَةً تَذُوبُ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ ذُوبًا ،
فِيْتَهَافَتْ لَهَا جِسْمَهُ تَهَافَتِ الْخَبَاءِ الْمُقَوَّضُ .»

فلم أزل واقفًا مكاني لا أبرحه ، حتى رأيته قد
طوى كتابه ، وفارق مجلسه ، وأوى إلى فراشه ،
فانصرف إلى مَخْدَعِي ، وقد مضى الليل إلا أقله ،
ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا
أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .
ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما
باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو
منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة التكللي ،
أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها
حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً
منتحباً ، فأتوجع له ، وأبكي لبكائه ، وأتمنى لو
استطعت أن أداخله^(٥) ، مُدَاخِلَةَ الصديق لصديقه
وَأُسْتَيْثَةً^(٦) ذات نفسه وأشركه في همه ؛ لولا أنني
كرهت أن أفجأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على
سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن
يكاتمته الناس جميعاً .

حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل ،
فرايت غرفته مظلمة ساكنة ، فظننت أنه خرج لبعض
شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنَّهُ
ضعيفة مستظيلة فأزعجني مَسْمَعُهَا وخيل إليّ ، وهي
صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في
أعماق قلبي ، وقلت : « إن الفتى مريض ولا يوجد
بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجِدِّ
فلا بد لي من المصير إليه .»

فتقدمت^(٧) إلى خادمي أن يتقدمني بمصباح ،
حتى بلغت منزله ، وصعدت إلى باب غرفته ،
فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف
على باب قبر ، يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع
الأخير .

ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي ، وكأنما
كان ذاهلاً أو مستغرقاً ، فأدهشه أن يرى بين يديه

(٥) داخلة في أموره: شاركته فيها . (٦) استيئته السر: طلب
إليه أن يئته إياه . (٧) تقدم إلى فلان بكنا: أمره به .

اليتيم « موضوعة »

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من
عهد قريب فتى في التاسعة عشرة أو العشرين من
عمره . وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو
الوسطى في مصر ؛ فقد كنت أراه من نافذة غرفة
مكتبي ، وكانت على كَتَبٍ من بعض نوافذ غرفته .
فأرى أمامي فتى شاحباً ، نحيلاً ، منقبضاً ، جالساً
إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ، ينظر في
كتاب ، أو يكتب في دفتر ، أو يستظهر قطعة ، أو
يعيد درساً ، فلم أكن أحفل بشيء من أمره .

حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة
قَرَّة من ليالي الشتاء ، فدخلت غرفة مكتبي لبعض
الشئون ، فأشرفت عليه ، فإذا هو جالس جلسته تلك
أمام مصباحه ، وقد أكبَّ بوجهه على دَفْتَرٍ منشور
بين يديه ، على مكتبه ، فظننت أنه لما ألم به من
تعب الدرس وآلام السهر ، قد عبثت بجفنيه سِنَّة من
النوم ؛ فأعجلته من الذهاب إلى فراشه ، وسقطت به
مكانه ؛ فما رُمْتُ مكاني^(١) ، حتى رفع رأسه ، فإذا
عيناه مُخْضَلَّتَانِ^(٢) من البكاء ، وإذ صفحة دفتره التي
كان مُكَبِّاً عليها قد جرى دمعه فوقها ؛ فمحا من
كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ،
ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، فتناول قلمه ، ورجع
إلى شأنه الذي كان فيه .

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه
هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة
عارية باردة ! لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار ،
يشكوهما من هموم الحياة أو رُزْءاً^(٣) من أرزائها ،
قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان ، من حيث لا يجد
بجانبه مواسياً ولا معيناً .

وقلت : « لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع^(٤)

(١) رَامَ مكانه: زال عنه وفارقه . (٢) مُخْضَلَّتَانِ: مُتَلَتَّنَانِ .
(٣) الرُزْءُ: المصيبة . (٤) الضارع: الضعيف النحيل .

نبض المريض وهمس في أذني قائلاً :

« إن عليك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم . »

وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه .

فأحضرت الدواء ، وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاً ، ذاهلة النجم ، بعيدة ما بين الطرفين ، أسقيه الدواء مرة ، وأبكي عليه أخرى ، حتى انبثق نور الفجر ؛ فاستفاق ودأ بعينه حول فراشه حتى رأي ، فقال : « أنت هنا ؟ »

قلت : « نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل . »

قال : « أرجو أن أكون كذلك . »

قلت : « هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همماً باطناً ؟ »

قال : « أشكوهما معاً . »

قلت : « فهل لك أن تخدثني بشأنك وتفضي إليّ بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟ »

قال : « هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة ، وبامضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟ »

قلت : « نعم . »

قال : « قد وثقت بوعدك ؛ فإن من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ؛ لا يكون كاذباً ولا غادراً . »

« أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد ، وتركتني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفلني عمي فلان ؛ فكان خير الأعمام ، وأكرمهم ، وأوسعهم برّاً وإحساناً

مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إليّ هنيئاً لا ينطق ولا يطرف^(١) ، فافتريت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت :

« أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً ، وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة ؛ فعناني أمرك ؛ فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ »

فرفع يده ببطء ، ووضعها على جبهته ، فوضعت يدي حيث وضعها ، فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمرت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض^(٢) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً .

فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى ، فجرعته منه بضعة قطرات ، فاستفاق قليلاً ونظر إليّ نظرة عذبة صافية ، وقال :

« شكراً لك . »

فقلت : « ما شُكركُ أيها الأخ ؟ »

قال : « لا أشكو شيئاً . »

فقلت : « فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ »

قال : « لا أعلم ! »

قلت : « أنت في حاجة إلى الطبيب ، فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟ »

فتنهَّد طويلاً ونظر إليّ نظرة دامعة ، وقال : « إنما ينبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ! »

ثم أغمض عينيه ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه . فلم أجد بداً من دعاء الطبيب رضي ذلك أم أبى ، فدعوته ، فجاء متأففاً متذمراً ، يشكو - من حيث يعلم أنني أسمع شكواه - إزعاجه من مرّفه وتثشيمه خوِّض الأروقة المظلمة في الليالي الباردة ! فلم أحفل بتعريضه ؛ لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس

(١) طَرَف فلان بصره: أطلق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) الفضفاض: الواسع .

« وتلك الخمائل الخضراء التي نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها .

« وتلك الحفائر الصغيرة التي نحفرها ببعض الأعواد على شاطئ الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا ؛ فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأننا قد ظفرنا بنغم عظيم .

« وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسمائها التي سميناها بها ، فإذا سمعنا صفيها وتغريدها ظننا أنها تلي نداءنا .

« ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي ودأ وإخاء ، أو حباً وغراماً ؟ ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوماً إنني أحبها ؛ لأنني كنت أضن بها - وهي ابنة عمي ورفيقة صباي - أن أكون أول فاعح لهذا الجرح الأليم في قلبها . ولا قدرت في نفسي يوماً من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأنني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتي باتس فقير مثلي . ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط^(١) منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون ؛ لأنني كنت أجعلها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك . ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها ؛ لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها : أ منزلة الأخ فأقع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء المائلة بين يديه في صومعته ، يعبدها ولا يتطلع إليها !

« ولم يزل هذا شأني وشأنها ، حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تتشب^(٢) أن ذهبت به إلى جوار

(١) تسقط فلان الجرح: أخذه شيئاً بعد شيء .

(٢) لم تتشب: لم تلبث .

وأكثرهم عطفاً وحناناً ؛ فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً . وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أختاً بعدما تمنى على الله ذلك زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيته ، فعني بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد ، فألست بها أنس الأخ بأخته ، وأحببتها حباً شديداً ، ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين إلى حين .

« فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمرت في دراستي .

« ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أؤثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة . وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير في فتاة من : أدب ، أو ذكاء ، أو حلم ، أو رحمة ، أو عفة ، أو شرف ، أو وفاء إلا وجدتتها فيها .

« وإنني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان ، أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معاً أيام طفولتنا ؛ فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها .

« وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لآلاء ماثها ، ولمعان حصباتها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها .

« وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار ، فنجتمع على حديث نتجاذبه ، أو طاقة نؤلف بين أزهارها ، أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه .

كَلَّتْهَا ^(١) وهي نائمة في سريرها ، فكانت آخر عهدي بها :

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلِّي
لو أنا وجدنا من فراق لها بُدًا
كفى حَزَنًا أن رحت لم أستطع لها
وداعًا ، ولم أَحْدِث بساكنها عهدا

« وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته ، وخرجت منه شريدًا طريدًا حائرًا ملتاغًا ، قد اصطلمحت عليَّ الهموم والأحزان . فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا سادَّ لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيًا ، ولا معينًا .

« وكانت معي صُباية ^(٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكنًا فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة ؛ فأزمت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله وَمُنْفَسَحَ آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها . فرحلت رحلة طويلة ، قضيت فيها بضعة أشهر ، لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع عليَّ الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ، ولا يغض .

« فَقَنِعْتُ بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم : منفردًا كمجتمع ، وغائبًا كحاضر ، وبعيدًا كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه ، وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناح موطنه ومظاهره .

« فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين ؛ فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي ، فأجد برد

(١) الكَلَّة: السَّرُّ الرقيق . (٢) الصُباية: البقية من الشيء .

ربه . وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظنًا : لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام ، فكوني له أمًا كما كنت له أبا ، وأوصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي .

« فما مرت أيام الحداد ، حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه ونظرات غير النظرات ؛ وحالًا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل ؛ فتداخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريبًا ، وفي هذا العالم طريدًا .

« فإني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت عليَّ الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات ، فتقدمت نحوي خَجَلَةً متعثرة . وقالت : « قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتماها ربما يريها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنًا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر ؛ فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها ، على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .»

« فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمَّت به كبدي ، إلا أنني تماسكت قليلًا ريثما قلت لها : « سأفعل إن شاء الله ولا أحبُّ إليَّ من ذلك .» فانصرفت لشأنها ، فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ، ما شاء الله أن أطلقها ، حتى جاء الليل ، فعمدت إلى حقيبتني فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت في نفسي :

« « قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا أسفُ على شيء بعده .»

« ثم انسللت من المنزل انسلالًا من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال

« قلت : « لا ، فما أخبأه ؟ »

« فمدت يدها إلى رداثها وأخرجت من أضعاfe(٢) كتاباً مغلقاً ، فتناولته منها ، ففَضَضْتُ غِلافه ، فإذا هو بخط ابنة عمي ، فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة :

« « إنك فارقتني ، ولم تُودَّعني ، فاغتفرت لك ذلك. فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر ، فلا أغتفر لك ألا تأتي إليّ لتودعني الوداع الأخير. »

« فألقيت الكتاب من يدي ، وابتدرت الباب مسرعاً ، فعملقت الخادم بثوبي ، وقالت : « أين تريد يا سيدي ؟ »

« قلت : « إنها مريضة ، ولا بد لي من المصير إليها. »

« فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : « لا تفعل يا سيدي ، فقد سبقك القضاء إليها. »

« هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكاناً ، ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أفق إلا بعد حين ، ففتحت عيني ، فإذا الليل قد أظلني ، وإذا الخادم لا تزال بجانبني تبكي وتنتحب ، فدنوت منها ، وقلت : « أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « قصِّي عليّ كل شيء . »

« فأنشأت تقول : « إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك ، فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك ؛ فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك .

« فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ؟ إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً . ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر ، كأنما كانت تعالج في نفسها

(٢) أضاعف الثوب: أثأؤه .

الراحة في صدري .

« ليئتُ على ذلك برهة من الزمان ، حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبة أو موشكة . وكنت مأخوذاً بأن أهنيئُ لنفسي عيشاً مستقلاً ، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئةً . والعلم في هذه الأمة مرترق يرتزق منه المرتزقون ، لا منحة يمنحها المحسنون ؛ فأهممتني نفسي ، وعلمت أنني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة .

« فعمدت إلى كتيبي ، فاستقيت منها ما لا غنى لي عنه ، وحملت سائرها (١) إلى سوق الوراقين ، فمرضته هناك يوماً كاملاً ، فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه ؛ فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى !

« فلما بلغت باب المنزل ، رأيت في فناء امرأة تسأل أهل البيت عني ، فبينتها فإذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي .

« فقلت : « فلانة ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « ماذا تريدن ؟ »

« قالت : « لي إليك كلمة فاذن لي . »

« فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت : « هاتِ . »

« قالت : « مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان ، فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتلك اليوم بعد اليأس منك . »

« ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس .

« فقلت : « ما بكاؤك ؟ »

« قالت : « أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ »

(١) سائر الشيء: باقيه .

أَلَمْ مُصْطًا^(١) .

الشمس إلى مغربها . فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعبة ، فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رُئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكية !

« وكان أكبر ما أمني من أمرها ، أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيته ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ، ولم أزل أطلب السبيل إليك حتى وجدتك .»

« فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت ، فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .»

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت^(٢) ، وأن هذه أفلاذها ، فدنوت منه ، وقلت : « ما بك يا سيدي ؟ » قال لي : « إني أطلب دمة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها ! »

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أنني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي ، وأني عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الدماء^(٣) . وإني أستحيك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساخطاً ناقماً ، فتول أنت أمرها بيدك ، واسترد وديعتك

(٣) ارفض الشيء . تفرق وترش .

(٤) الدماء : بقية النفس .

« وما هي إلا أيام فلائلك حتى سرى داء نفسها إلى جسمها ، فاستحالت حالها ، غاض ماء جمالها ، وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ، ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبلى^(٢) يوماً حتى تنتكس أياماً ، فراع أمها أمرها ، وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب ، وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها ، فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت إليه أمرها ، فما أغنى العائد ولا الطبيب ! وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً .

« فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها ، فدنوت منها ، فأشارت إليّ أن أخذ بيدها ففعلت ، فاستوت جالسة ، وقالت : « في أي ساعة نحن من الليل ؟ »

« قلت : « في الهزيع الأخير منه . »

« قالت : « أنت وحدك هنا ؟ »

« قلت : « نعم فقد جمع أهل البيت جميعاً . »

« قالت : « ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ »

« فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم ، وقلت : « بلى يا سيدي أعلم مكانه . »

« وما كنت أعلم شيئاً ، ولكنني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجملها ، فقالت : « ألا تستطيعين أن تخملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ »

« قلت : « لا أحب إليّ من ذلك يا سيدي . »

« فأشارت أن آتيها بمحبرتها فبحثتها بها ، فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسأل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وحده الغادين والرائحين ؛ علني أراك وأرى من يهديني إليك ، فلم أظفر بباطل حتى انحدرت

(١) مُصْ : مؤلم . (٢) أبلى من مرضه : برئ منه .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فخاطت الملابس حتى عَشِيَّ^(٢) بصرها ، وغسلت الثياب حتى يست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت في المنازل حتى ذلت ، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معاً . فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاء وصبراً ، شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

دارت الأيام دورتها ؛ فاكتهلت الأم ، وشب الولد ، وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بُدَّ له أن يعيش ، وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه ، فمشى يتصفح وجوه الرزق وجهاً ووجهاً ، ويرد مناهله منهلأً منهلأً ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجده حتى مهر فيها .

والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورققه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملاً مغموراً لا تدرك له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفينة بعد الفينة^(٣) ، فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن يسد خللتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها ، حنت إليه حنين التيب^(٤) إلى فصالتها^(٥) وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً ، ولم تر منه

(٢) غشي بصره: ضعف .

(٣) الفينة: الحين .

(٤) التيب: جمع باب ، وهي الناقة المسنة .

(٥) الفصل: جَمْعُ فصل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فصل عن أمه .

إليك ، وانتقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك .»

ثم أمسك رأسه بيده ، كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار ، وقال بصوت ضعيف خافت :

« أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفني معي في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ »

قلت : « نعم ، وأسأل الله لك السلامة . »

قال : « الآن أموت طيب النفس عن كل شيء . »

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها !

لقد هون وجددي على هذا البائس المسكين ، أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعت فيها أن يوافيها ، فعجز عن أن يلبي نداءها حياً فلبّاها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذاك الصديقان الوفيان ، اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .



الشهداء

« مترجمة »

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصُباة من المال ترشفت^(١) الرزق منها ترشفاً مصانعة للدهر فيها .

أما الصُباة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده ؛ فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ، ولا عضداً .

(١) ترشفت الإبل الماء: أخذته قليلاً قليلاً .

الولد غريب في أمريكا لا يعرف له سنداً ، ولا عضداً .
وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه
هناك ، وكان يمثل فيه موقف الوداع الذي جرى بينه
وبين أمه على شاطئ البحر يوم رحيله وكان موقفاً
محزناً فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر
في نفوسهم منظره ؛ فقصوا له بالجائزة التي كان
يمتني نفسه بها . فما حصلت في يده حتى خيل إليه
أنه أسعد أهل الأرض طراً ، وأن هذا اليوم هو أول يوم
هبط فيه عالم الوجود ، وأنه ما داق قبل الساعة مرارة
العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث ، ويذيبه
ما يذيبه من صنوف الشقاء وألوان الآلام ، حتى إذا
علم أنه قد أوحشه وأرابه^(١) وملأ قلبه غيظاً وحنقاً ،
أطلع له في تلك السماء المظلمة المذلّمة بارقة واحدة
من يوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته
راضياً مغتبطاً كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلال
إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى
الإنسان به !

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه
بعضاً ، وكتب إليها أنه لن يرح هذه الأرض حتى
يفي لها بما عاهدها عليه ، ومشى في طريقه يفتش
عن خاله في أنحاء البلاد ويسأل عنه كل من لقيه
من القاطنين والطارئين^(٢) ، حتى حدثه بعضهم أن
آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضعة سنوات
إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس
هناك ثم لم يعد بعد ذلك .

فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى
وصل إلى جزيرة موحشة مقفرة ، وكانت لا تزال
تغشي سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور
الأولى . فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء
بعض الجبال المقطعة ، فما رأوه حتى هاجت في
صدورهم أحقاد تلك العداوة اللوية التي لا يزال
يضمروها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض ، حتى
للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ، فداروا به دورة
(١) أراه: شككه وجعله يرثاب . (٢) الطارئون: المهاجرون .

كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم . فلا تجد لها بدءاً
كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ
الوحيد الذي يفرغ إليه جميع البائسين والمحزونين
في بأسائهم وضرائهم ؛ خلوتها ودموعها ، فتبكي ما
شاء الله أن تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة
باسمة ، كأن لم تكن باكية قبل ذلك !

دخل عليها ولدها يوماً في خلوتها ، فرآها تبكي
ورأى في يدها صورة فتينها ، فإذا هي صورة خاله ،
فألم بسريرة نفسها ، وأمسك بين أهداب عينيه دموع
متفرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يده
على عاتقها ، وقال :

« رفهي عن نفسك يا أمه فستعلمين خبر غائبك
عما قليل . »

فتطأق وجهها وأضاء ، وقالت : « وكيف السبيل
إلى ذلك ؟ »

قال : « قد علمت أن معرضاً سيقام للرسم في
واشنطن حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم
قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدني
بعض أصدقائي أن يساعدني على الشخوص إليه ،
علني أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهي وأنقذ به
نفسي ونفسيك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن
غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره . »

فاستسر بشرها الذي كان متلاًثماً ، وقالت : « لا
تفعل يا بني فما أنا بشقية ما رأيتك بجاني ، وما أنت
بشقي ما قنعت بما قسم الله لك ، ولئن فعلت ، لا
تكونن امرأة على وجه الأرض أعظم مني لوعة ولا
أشقى ، ولئن بكيت لفراق أخي مرة فسأبكي لفراقك
ألف مرة ، وإنني كلما ذكرته وجدت في وجهك
العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنكما إن فقدت
وجهيكما معاً ؟ »

فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها في رحلته
الأماني العذاب حتى أسلمت وهدأت وأسلمت إلى
الله أمرها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما
بضرباته فإذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا

السلسلة الملتفة على قدميه فوجدتها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكياً منتحباً .

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ، ولم يبق بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حالة تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه ، ونسي أمه ونسي العالم الذي كان يعيش فيه ، والعالم الذي انتقل إليه ، ونسي الليل والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء . وأصبح في منزلة بين منزلي الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل . ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسد يتحرك ، أو خيال يسري ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام .

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه فأصبح من مدها في طريقها ، يرى عجوزاً حذاء والهة متسلبة^(٢) مدهوباً بها^(٣) قد توكأت على عصا ما تزال تضطرب في يدها ، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوف^(٤) أهداماً^(٥) خلقاناً يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهداباً متلاصقة أو مرقاً^(٦) متطائرة ، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنايس ، تسأل الله أن يرحمها ، والناس أن يطعموها .

حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سمّتها^(٧) إلى شاطئ البحر وجلست فوق بعض صخوره تناجي أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجم كوكبه في أفق السماء . فإذا سرت إليها نسمة وجدت ريح ولدها فيها . وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها . وإذا تراءت

(٢) المتسلبة: التي أخذت على زوجها أو غيره .

(٣) المدهوب به: المسلوب عقله ، ويقال أين يذهب بك ؟ أي

بقلبك . (٤) المحقوف: المتوجع

(٥) الأهدام: جمع هدم وهو الثوب البالي المرقع .

(٦) المرق: قطع الثوب المعزقة . (٧) السمّت: الطريق .

سقط من بعدها أسيراً في أيديهم ، فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام » .

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم المعرض ، إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبه ، وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنزلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذي آده^(١) وأثقله ، أن هناك إنساناً آخر كريماً عليه يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى السحب وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ، فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه شيئاً . فلم يعلم : هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل ، فأنحدر إليه من ثقب صغير في حائط المحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه ، فأنس به أنس الغريب بالغريب ، وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته . واستمر بصره عالقاً به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل حتى رآه يتقبض شيئاً فشيئاً ، ويتراجع قليلاً قليلاً ، ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها . فحزن لفرقه حزن العشير لفرار عشيره ودار بعينيه حول نفسه فإذا قطع سوداء مظلمة تتدحج وتتكاثر من حوله ويمس بعضها في أحشاء بعض .

وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمن الروح الحائر في ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمساً ، حتى سمع صلصلة (١) آده الأمر أوداً: بلغ منه مجهوده .

الحالكة ١

« ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت ديبياً وهي لا تعلم : هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها ستجده أمامها ؟ »

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره ، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً .

دخل السجن على الفتى عشية ليلة في محبسه ، فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته المثبتة في الجدار فانتزعها من مكانها ، فلم يقل شيئاً ولم يسأل نفسه هل هي ساعة نجاته أو ساعة حِمامه . ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى . ففتح عينيه فرأى مكاناً غير مكانه ، ومنظراً غير منظره ، وسماء وأرضاً غير سماءه وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئاً فشيئاً ، حتى استفاق فتذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنا تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وظلمته ، والقيد ووطائه . ثم طار بخیاله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعده ، وحنينها ، ويأسها من لقاءه ؛ فذرفت عيناه دموعاً كانت هي أول دموع أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل العبرة إثر العبرة ، لا يهدأ ولا يستفيق ، حتى مضى شطر من الليل وهذا الناس جميعاً في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخیاله إلى حيث شاء أن يذهب .

فإنه لكذلك وقد رنقت في عينيه سنة من النوم ، إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه ، فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه ، فخیل إليه أن ملكاً نورانياً نزل إليه من علياء السماء لينقذه من شقائه ؛ فتبينه فإذا فتاة جميلة بيضاء ، ما التفّت الأزر^(٢) على مثلها حسناً وبهاءً ، تتمشى في بياضها سمرة رقيقة كسمرة

(٢) الأزر: جمع إزار .

لها سفينة مآخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله . فلا يزال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ فتقف في طريق ركبائها ، تنصّصح الوجوه ، وتتفرس الشمائل ، وتهتف باسم ولدها صارخة معولة ، وتقول :

« عباد الله ، من يدلني على ولدي ، أو ينشده لي في معالم الأرض ومجاهلها ؛ فقد أضللتته منذ عهد بعيد ، فجار بي الدهر من بعده ، فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلاً ، فاحتسبوا يداً عند الله وحدثوني عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم ليأتي على أتركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ » فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس فظنوها امرأة ملتائة^(١) فرثى لها ، أو سائلة فتصدق عليها !

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات ، قد عدن بأولادهن وإخوانهن وأبائهن إلى منازلهن ولم يبق على شاطئ البحر من غاد ولا راح سواها . فتتناول عصاها وتعود أدرجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرت به بيدها في أرض قاعتها وتوهمته مدفناً لولدها فتظل تبكي وتقول :

« في أي بطن من بطون الأرض مضجعت يا بني ، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعت ، وفي أي قاع من قيعان البحر مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك ؟ »

« لو يعلم الطير الذي مزق جثتك ، أو الوحش الذي ولغ دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك في جوفه ، أن وراءك أمّاً مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي ؟ »

« عد إليّ يا بني فقيراً أو مقعداً أو كفيفاً ؛ فحسبي منك أن أراك بجانيبي في الساعة التي أفارق فيها هذه الحياة ؛ لأقبلك قبلة الدواع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخف بزورتك عني ضمة القبر ، وتستتر بوجهك الوضاء ظلماته

(١) التائ: جَنّ واختلط .

شاخصاً إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تمثاله البديع ، حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جفنها على وجهه ، فجرت في مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمعة مثلها فالتقت بدمعتها فامتزجتا معاً .

فمد يده إلى رداثها فاجتذبتها إليه ، وقال : « قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبني نتحدث قليلاً . »

فجلست على مقربة منه ، فقال لها : « إن امتزاج دمعي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياء أو أمواتاً ، فإن كنت تريدين لي النجاة فإنني لا أنجو إلا بك . »

قالت : « ليتني أستطيع ذلك يا سيدي . »

قال : « وما يمنحك منه ؟ »

فنظرت إليه نظرة دامعة ، وقالت : « أخاف أن أحبك ! »

قال : « ولم تخافين ؟ »

قالت : « لا أعلم ! »

قال : « أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار ، ولكنني أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل بي ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك . أما اليوم فحسبي عزاء عما ألاقه من غصصه وآلامه نظرة رحمة تلقينها عليّ في مصرعي ، ودمعة حزن تسكينها من بعدي على تربتي . »

فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهي سلكه فانتثر ، ثم مدت يدها إلى قيده فعالجته حتى انصدع ، وقالت : « إني ذاهبة معك وليقض الله فيّ وفيك قضاءه . »

مشيا يطويان القفار ، ويعبران الأنهار ويضحيان ^(٢) مرة ويخضران ^(٣) أخرى ، ويردان آجن ^(٤) المياه وصفوها ويقتاتان يابس الثمار ورطبها ، فإذا لاح لهما

(٢) ضَحَيَ: برز للشمس .

(٣) خَضَرَ: برَدَ .

(٤) الآجِنُ من الماء: الذي تغير طعمه ولونه .

السحاب الرّهُو^(١) الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار ، فسألها : « من أنت ؟ »

قالت : « أنا فتاة من فتيات هذا الحي ، وقد ألمت بشيء من أمرك ، فعلمت أنك شقي فرحمتك مما أنت فيه ؛ فجتكت أطلق وناقك لتذهب حيث تشاء ، فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب . »

فجذب لرنجة بيضاء ووثنية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنبيها قلباً يعطف على البؤساء والمنكوبين . وقال في نفسه : « ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه ، وأنساه كل شأن في الحياة إلا شأنها فلبت صامتاً واجماً لا ينطق . »

وقال لها : « اذهبي لشأنك يا سيدتي فإنني لا أريد النجاة . »

فعلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه ، وقالت :

« لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلاً ، واخ بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل ، فإذا أنت فلذ طائفة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجع هذه المسكينة الواقعة بين يديك فإن شديداً عليّ جداً أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد الذابح ، أو مضغة في فم الآكل . »

قال : « إنك لا تستطيعين بجاني . »

قالت : « لا أفهم ما تقول ، فإنني ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع . »

قال : « قد كنت قبل اليوم موثقاً بوثق واحد فأصبحت موثقاً بوثاقين ، فإن استطعت أن تخلي وثاق قديمي فإنك لا تستطيعين أن تخلي وثاق قلبي . »

فألمت بسريرة نفسه رفعت وجهها إلى السماء ولبشت شاخصة إليها ساعة ، فرفع رأسه إليها ولبت

(١) الرّهُو: الرقيق .

من هذا القفر ، فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله ، فنجشو أمام مذبحه ساعة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ، ولا يكدر صفونا مكدر .»

فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمة صافية تنحدر على خدها ، فقال : « ما بكأوك يا سيدتي ؟ »

فقال : « أ تذكر ليلة النجاة إذ دعوتني إلى الفرار معك ، فقلت لك إني أخاف إن فررت معك أن أحبك ؟ »

قال : « نعم . »

قالت : « واأسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف . »

ثم صرخت صرخة عالية وقالت : « ماذا يا أماء ؟ » وسقطت مكبة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى في أعضائها فلمعلم أنها البرداء^(١) وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ، ومشى يفتش عن الناس في كوخ كان يترأى له على البعد ، حتى بلغه فوجد على بابه كاهنًا شيخًا جليل المنظر فدنا منه وحياه تحية حياه بأحسن منها ، وقال له : « ما شأنك يا بني ؟ »

قال : « إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائي نشكو البرد ، فهل أجِد عندك جذوة نار أعود بها إليها لتصطلي بها ؟ »

فمكنه من طلبته ، وقال له : « كتب الله لك ولعليلتك السلامة يا بني » ، فاذهب فإنني على أثرك . « فعدا الفتى عدواً شديداً حتى بلغ النهر فأدهشه أن رأى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو برداً ولا ألماً ، فأقبل عليها متهللاً . »

وقال لها : « لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام . »

قالت : « ما كان يخالط نفسي من ذلك شيء ، فاجلس أحدثك حديثي فقد آن أن أفضي به إليك . »

(١) البرداء: الحُمى مع البرد ، وتسمى النابضة .

ظل شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبل أوبا إليه فاستراحا بجانبه قليلاً ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزال تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وأخذوا مضجعهما من ترابه وأحجاره ، نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها ، ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليباً صغيراً فقبلته .

ثم أنشأت تهمهم بكلام خفي ، كأنها تناجي به شخصاً غائباً عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة ، وتطلب معونته على أمر لا تعرف مصيره ، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى ، حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها .

وكان كلما سألها عن شأنها ، التوت عليه ودافعه عنها حتى تلوم أن يعاودها فتركها وشأنها ، وقد أصبح يحمل في صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يوماً على سواء العمران ، فاستبشرا وعلمتا أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء .

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك ، فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقة يتحدثان ، وهي أول مرة جلسا فيها للحديث ، فقال لها :

« ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة الطويلة في هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادة لا أحسب أنه قد أعد خيراً منها لعباده المتقين في جنات النعيم . »

قالت : « ومتى كانت هذه الحياة موطناً للسعادة أو مستقرّاً لها ؟ ومتى سعد أبناؤنا بها فنسعد مثلهم كما سعدوا ؟ وإن كان لا بد من سعادة في هذه الحياة ، فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقداً أن لا سعادة له فيها ليستطيع أن يقضي أيامه المقدرة له على ظهرها هادئ القلب ساكن النفس ، لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب ! »

قال : « إن السعادة حاضرة بين أيدينا ، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نظوي هذه المرحلة الباقية

قالت : « نعم ».

قال : « قد كنت أمت^(١) إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها ، فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى ، فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالي معا . »
فقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت لي في هذه الساعة العصبية أخا . »

وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ، وجهها يبرد^(٢) شيئاً فشيئاً ، فذعر الفتى وارتاع وحنا عليها وقال : « ماذا أرى ؟ »

قالت : « لا ترع ، فأصغ إلىي ، فإن لحديثي بقية لم تسمعها . إنني منذ حفظت وصية أُمِّي و هبت العذراء نفسي ، كان لا بد لي أن أتخذ لي ملجأ أفزع إليه في اليوم الذي أخاف أن يغلبني فيه هواي على ديني ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى جاء اليوم الذي خفته فلجأت إليها فتجوت وأستودعك الله . »

فنظر الفتى حيث أشارت ، فرأى قارورة مطرحة وراءها فتناولها ، فإذا هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شيء .

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكان طائرًا قد نفذ جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق في مكانه صعقة لم يشعر بعدها بشيء مما حوله . فلم يستيق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفاً أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائرًا لا يفهم مما يرى شيئاً . فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهها لوجه ونظر إليه نظرة شزاء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خوط في عقله فأخذ يهذي ، ويقول :

« أتدري أيها الرجل لِمَ ماتت هذه الفتاة ؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها

(١) مَتَّ إِلَيْهِ : تَقَرَّبَ بِهِ . (٢) يَبْرُدُ : يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ .

فجلس بجانبها فأنشأت تحدته ، وتقول :

« أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلي مع الأيام دفينه ، فقد ولدني أُمِّي على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عاماً فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء ، فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولداني وعشنا جميعاً حقبة من الدهر عيش السعداء الأمتين . »

« وكان رجال قبيلة أُمِّي لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلة من ليالي الظلام ، فاقننا جميعاً إلى أرضهم . وكنت إذ ذاك لم أسلخ العاشرة من عمري ، فقتلوا أُمِّي أُمَامِي وأمام أُمِّي قتلة لا يزال منظرها حاضراً بين يدي حتى الساعة لا يفارقني . فحزنت أُمِّي عليه حزناً شديداً ما زال يدنو بها من القبر شيئاً فشيئاً حتى جاءت ساعتها ، فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فدعنتي إليها أمامه ، وقالت لي : « يا بنية إن أُمِّي قد ولدني للشقاء في هذا العالم ، وأحسب أنني قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكوني سبباً في شقاء أحد من بعدك وانذري نفسك للعذراء نذراً لا يحله إلا الموت . » فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذري فتلاً وجهها بشراً وسروراً ، ثم نظرت نظرة في السماء وقالت : « ها أنذا على أترك يا رافائيل ، ثم فاضت روحها . »

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : « هل تعرفين وطن أبيك وأسرته ؟ »

قالت : « نعم ».

وسمتهما له فاستطير فرحاً وسروراً ، وقال : « أحمدك اللهم فقد وجدت ضالتي . »

فعجبت لأمره ، وقالت : « وأي ضالة تريد ؟ »

قال : « أذكركن ليلة اللقاء إذ امتزجت دمعنا معاً فقلت لك إنها صلة بيني وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ »

« فهنيئاً لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ؛ فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم .

« إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعرف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ؛ فإننا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

« إن وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ، ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركهم إليهم ؛ فلا بد لنا أن نقف في وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم ؛ حتى لا تصلوا إليهم ففسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

« إننا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، وفي استطاعتنا أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون دليل بدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

« كتاب الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آياتكم ، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغماتكم . هذا الجمال المترقق في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكته ، إنما هو مرآة نقية صافية ننظر فيها فرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فخرٌ بين يديه ساجدين ، ثم نصغي إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا : أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتكم حياة للجمال فاحيوه .

« ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمراً سواه .»

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، و وهنت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط في مكانه بزفر زفيراً شديداً ، وشن أنيناً محزوناً ، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه ، وقال له :

« ارفق بنفسك يا بني ، فما أنت بأول تاكل على وجه الأرض ، ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء

سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض . ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تخلون منه ما تملكون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذاً ولا رداً .

« إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هائنين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه ، والمرء وقلبه ؟

« إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

« إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ؛ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خافقة .

« أأتظنون أيها القوم أننا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدبر ، ومن ظلمة الدبر إلى ظلمة القبر ؟ بمست الحياة حياتنا إذن وبمس الخلق خلقنا . إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ، ولا نعرف لنا ملجأً نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

« هذه الطيور التي تغرد في أفئاتها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سمائها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسواثم في مراتعها ، والسوارب في أحجارها .. إنما تعيش جميعاً بنعمة الحب . فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت ، أيها القساة المستبدون ، أرفع شأناً من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة !؟

بوجه كوجه الصحرة المساء تحت الليلة الماطرة .
 وذهب بقلب نقي طاهر يأبس بالعفو ويستريح إلى
 العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط
 على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء
 وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس
 فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزعاة لا ترى شيئاً فوقها ،
 ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها . وذهب برأس
 مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كراس التمثال المثقب
 لا يملؤها إلا الهواء المتردد . وذهب وما على وجه
 الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على
 وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنْتُ أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى
 فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك
 الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على
 أحسامهم إفراغاً ، لا تلبث أن تطلع عليها شمس
 المشرق حتى تتصل وتنطير ذراتها في أجواء السماء ،
 وأن مكان المدنية الغريبة من نفوسهم مكان الوجه من
 المرأة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها .

فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق وليسته على علامته
 وفاءً بعهد السابق ورجاء لغده المنتظر ، محتملاً
 في سبيل ذلك من حمقه ووساوسه وفساد تصوراته
 وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى
 جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ،
 فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيتُه واجماً مكتئباً فحييته فأومأ إليّ
 بالتحية إيماء ، فسألته ما باله ، فقال :

« ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا
 أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير
 أمري فيه . »

قلت : « وأي امرأة تريد ؟ »

قال : « تلك التي يسميها الناس زوجتي ،
 وأسماها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي . »
 قلت : « إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي
 آمالك تتحدث ؟ »

قال : « ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن

للمحسنين . »

فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ، ويقول :
 « اغفر لي ذنبي يا أبت ، فقد كنت من الظالمين . »
 قال : « غفر الله لك يا بني ؛ فما دون رحمة
 الله باب موصد ولا رتاج معترض . »

قال له : « يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه
 الأرض ، وليس لها فيها أحد سواي ، وقد ماتت من
 أجلي وفي سبيلي ، فهل تأذن لي أن أدنو منها لأقبلها
 قبلة الوداع في آخر ساعة من ساعاتها على وجه
 الأرض ؟ »

قال : « افعل يا بني . »

فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه
 ضمةً شديدة وأهوى بفمه على فمها ، فقبلها لأول
 مرة في حياته قبلة فاضت روحه فيها .

في الساعة التي دفن فيها هذان الشهيدان تحت
 تلك الشجرة المورقة على شاطئ ذلك النهر الجاري ،
 مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها
 الزيارة من حين إلى حين . فنظرت إلى مكانها الذي
 اعتادت أن تتخذ من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته
 خالياً ، فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها
 معفرة بترابها لا حراك بها ، فملأت بالتراب الذي
 كان مجتمعاً حول الحفرة تلك الأشجار الخمسة التي
 هي مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أسبلت فوق
 تربتها دعة كانت هي كل نصيبها من الدنيا !

✱ ✱ ✱

الحجاب

« موضوعة »

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً ،
 فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه
 منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد

ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم ، فلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة ؟

قال : « ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ »

قلت : « أريد أن أقول لك إنني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك . »

قال : « إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع . »

فتدخلني ما لم أملك نفسي معه ، وقلت له : « تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومدارككم فيفسدها عليكم ؛ فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجد لها . والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر . والعفة لون من ألوان النفس لا جواهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة . »

قال : « أتكر وجود العفة بين الناس ؟ »

قلت : « لا أنكرها لأنني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكنني أنكر وجودها عند الرجل القادر المحتلب والمرأة الحاذقة المترفة إذا سقط بينهما الحجاب وخللا وجه كل منهما لصاحبه . »

« في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرزنساؤكم لرجالكم ؟ »

« أفي جو المتعلمين ، وفيهم من سئل مرة : لِمَ لم يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعاً نسائي ! »

« أم في جو الطلبة ، وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه حياءً وخجلاً إن خلت محفظته يوماً

أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقاً على وجه امرأة في هذا البلد ! »

قلت : « ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه . »

قال : « إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسونهن كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لاتزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد . »

« فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي^(١) القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقاها دهرًا طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها . »

« فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته ، وخيل إليها أنني جئتني بإحدى التكبكات العظام والرزايا الجسم ، وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياءً منهن وخجلاً . »

« ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتين الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيته ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسينين إما بكسره أو بشفائه . »

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي همًا وحزنًا ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي ، وقلت :

« أ عالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ »

قال : « نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها ، واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت . »

قلت : « هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم

(١) العادي القديم: نسبة إلى قبيلة عاد .

أستارها ؛ تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فوا عجباً لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها !

« إنكم لا تترثون لها بل تترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، تودون بجذع الأنف لو ظفرت هنا بذلك العيش الذي خلقتموه هناك .

« لقد كنا وكانت العفة في سقاء^(٢) من الحجاب موكوء^(٣) فمازلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض^(٤) وتكرش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جتتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة !

« عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربه ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها واتسمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاها . وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب .

« فقلتم لها : إن هؤلاء الذين يستيدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ، وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا نهذاً نارها ، ولا يخبو أوارها .

« وقلتم لها : لا بد لك أن تختاري زوجك

(٢) السقاء: وعاء من جلد يكون للماء واللين .

(٣) أوكى القرية: شد رأسها بالوكاء ، والوكاء: الرباط .

(٤) تقبض: يمس .

من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته ، أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟

« أم في جو الرعاع والغوغاء ، وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟

« وبعد: فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتَّمَطُّق^(١) بحديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحرثتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم !؟

« هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز !

« أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شتمم ، ودعوا هذا الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاءً طويلاً .

« أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يملك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاها !

« إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه ، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

« ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

« إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت

(١) تَمَطَّق: صَوَّتَ بلسانه عند استطابة الطعام .

الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

« ذلك بكأؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها ! »

« نحن نعلم ، كما تعلمون ، أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهبها أبوها أو أخوها ، فالتهديب أنفع لها من العلم ، وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم . فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسايتهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها ، كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب . فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسايتها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها . »

« أعجب ما أعجب له في شئونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئاً واحداً ، هو أدنى إلى مدارككم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زماناً ينمو فيه ! »

« رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أُم قد فرغت من ضرورياتها ، فاشتغلت بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء ! »

« ورأيتم الفلاسفة فيهل ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها ، فاشتغلت بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء ، إن كان هناك ما يغني عنه ! »

« ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً ، يفعل ما يشاء ، ويعيش كما يريد ؛ لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها ، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف

بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك ؛ فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم . »

« وقتلت لها : إن الحب أساس الزواج ؛ فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعُتيت به عنه . »

« وقتلت لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحبي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم ، فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت (١) ! »

« وقتلت لها : لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك ، والقيام على شئون بيتك ؛ فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شئون بيتها ! »

« وقتلت لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ولائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا . فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات (٢) ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ؛ فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم . ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبؤتم بها . »

« وقتلت لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أبأها الخليج ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت . »

« وكذلك انتشرت الرية في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الظنون بين رجالها ونسايتها ، فتعاجز

(١) أفاد: بمعنى استفاد .

(٢) استهترت فلان: اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

أهلك تقتلني حياءً وخجلاً». ثم انصرفت ، وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل ، حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشياً لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دموعاً ، لا أعلم هل هي دموع الغيرة على العرض المذلل ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحبيه تحية الغرب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر ، ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجاً من منزله يمشي مشية الداهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة ، كأنما هو يحرسه أو يقتاده ، فأهمني أمره ، ودنوت منه ، فسألت عن شأنه ، فقال :

« لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً ، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشئون ؟ »

قلت : « لا أحب إلي من ذلك ».

ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئاً ، ثم شعرت كأنه يزور^(١) في نفسه كلاماً يريد أن يقضي به إليّ ، فيمنعه الخجل والحياء ، ففأخفته الحديث وقلت له :

« أ لا تستطيع أن تذكر لهذه الدعوة سبباً ؟ »

فنظر إليّ نظرة حائرة ، وقال : « إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ،

(١) زور الكلام في نفسه : هياه .

الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق ، إن زلّت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها .

« ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيعة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحرشيتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهي أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

« ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها مع الرجال تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها !

« وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

« إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجهن بأحلامكم وآمالكم ، كما أزعجتكم من قبلهن . فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف . فإن أبيتكم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمين . »

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : « تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها ، فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها . »

فقلت له : « لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، وإذن لي أن أقول لك إنني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ؛ لأنني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من

« هل من حاجة يا سيدي ؟ »
 فأجاب بصوت ضعيف خافت : « حاجتي أن لا
 يدخل عليّ من الناس أحد . »
 قلت : « لن يدخل عليك إلا من تريد . »
 فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان^(١)
 بالدموع ، فقلت : « ما بكأؤك يا سيدي ؟ »
 قال : « أتعلم أين زوجتي الآن ؟ »
 قلت : « وماذا تريد منها ؟ »
 قال : « لا شيء سوى أن أقول لها إنني قد عفوت
 عنها . »

قلت : « إنها في بيت أبيها . »
 قال : « وا رحمته لها ولأبيها ولجميع قومها ،
 فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً ، فألبستهم
 مذ عرفوني ثوباً من العار لا تلبوه الأيام . »
 « من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض
 مشرف ، وأنتي أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ،
 وأنتي أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغفروا زلتي ،
 قبل أن يسبق إليّ أجلي ؟ »
 « لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها^(٢) أن
 أصون عرضها صيانتني لحياتي ، وأن أمتنع مما أمتنع
 منه نفسي ، فحنت في عيني ، فهل يغفر لي ذنبي
 فيغفر لي الله بغفرانه ؟ »

« نعم إنها قتلتني ! ولكنني أنا الذي وضعت في
 يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد
 عن ذنبي . البيت بيتي ، والزوجة زوجتي ، والصديق
 صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى
 زوجتي ، فلم يذنب إليّ أحد سواي . »

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا
 سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى
 لبست وجهه ، فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب
 قلبه ، ثم أنشأ يقول :

« آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيق الدنيا

(١) مُخْضَلٌّ: مَبْتَلٌ .

(٢) اهتدى الرجل امرأته : جمعها إليه وضمها .

وما كان ذلك شأنها من قبل . »
 قلت : « أما كان يصحبها أحد ؟ »
 قال : « لا . »
 قلت : « ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ »
 قال : « لا . »
 قلت : « وممّ تخاف عليها ؟ »
 قال : « لا أخاف شيئاً سوى أنني أعلم أنها امرأة
 غيور حمقاء ، فلعل بعض الناس حاول العث بها في
 طريقها ، فشربت عليه ، فوقعت بينهما واقعة انتهت
 أمرها إلى مخفر الشرطة . »

وكنا قد وصلنا إلى المخفر ، فاقتادنا الجندي إلى
 قاعة المأمور ، فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه
 إشارة لم نفهمها ، ثم استندى الفتى إليه وقال له :
 « يسوئي أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد
 عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريّة برجل وامرأة ،
 في حال غير صالحة ، فاقتادوهما إلى المخفر
 فزعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا
 الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذننا لها
 بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك ، وإلا
 فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ،
 وها هما وراءك فانظرهما . »

وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ،
 فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد
 أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر
 وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وأذاناً ، ثم سقط في مكانه
 مغشياً عليه . فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى
 منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا
 الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه
 مصاب بحمى دماغية شديدة ، وليث ساهراً بجانبه
 بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح ، فانصرف على أن
 يعود متى دعونه ، وعهد إليّ بأمره فلبثت بجانبه أرثي
 لحاله وأنتظر قضاء الله فيه ، حتى رأيته يتحرك في
 مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني ، فلبث شاخصاً إليّ
 هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه ،
 فدنوت منه وقلت له :

لا أليس العار في حياتي وأتركه أثرًا خالداً ورائي بعد مماتي.»

وكانت الممرض قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً ، وصاح : « أرجعوه إليّ .» فعادت به الممرض فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

« في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتيم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ؛ فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعبزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك أحسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان ! سواء أكننت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فأني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً !»

ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبله لا أعلم هل هي قبله الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟ وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خُفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة بأساً وحزناً . ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً ، فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا أرفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإننا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريريه إذا امرأة مؤترة بإزار أسود قد دخلت الحجرة ، وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ، ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها ، وأخذت تقول له :

« لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك ، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .»

في وجهي ! في هذه الغرفة ، على هذا المقعد ، تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملاً نفسي غبطة وسروراً ، وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتها ، فقولوا للناس جميعاً : إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم ، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها . والاهفك على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين^(١) !

« لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلمهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويتشم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إليّ ويطيئون النظر في وجهي ؛ ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجهه البله ، والغباوة في وجوه الأغبياء !

« ولعل الذين كانوا يتوددون إليّ ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ، ولعلمهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتي مومساً وبتتي ماخوراً^(٢) ، وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبههم !

« فوارحمته لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووا لهفك على زاوية منفردة في قبر موحد يطويني ويطوي عاري معي .»

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مريض ولده تحمله على يدها حتى وضعته بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه ، فأحس به ففتح عينيه ، فراه فابتسم لمراه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح :

« أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه !

(١) يريد: ليتني لم أولد . (٢) الماخور: بيت الدخانة والفساد .

هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفاً يهتف باسمه ، بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

« نعم ، لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء ، فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال . إنك ضحكت بالأمس كثيراً ، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس ؛ فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

« لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضاء ، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة ؛ لهان أمره عليك ، أما وقد أضعته بيدك ، وأسلمته إلى عدوك باختيارك ، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

« لا يظلم الله عبداً من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشؤون شراً ولا ضيراً ، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضعيفة فنزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

« لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق ؛ فأبيت إلا الملك والسلطان ؛ فنازعت عمك الأمر ، واستعنت عليه بعدوك وعدوه ، فتناول رأسيكما معاً وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قَلْبٌ^(٣) من الدم ففرقتما فيه معاً .

« لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه ، وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ؛ لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء .

« اتخذ بعضكم بعضاً عدواً ؛ وأصبح كل واحد (٣) القليب: البئر .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمه ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضي .

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا يهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

الذكري

« مترجمة »

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة^(١) بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابلا^(٢) على شاطئ الخليج الرومي تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا ، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر . فألقى على ملكه الداهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاء مرراً وينشج نشيجاً محزوناً حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصبح شاطئ البحر كأنه مناحة قائمة تتردد فيها الزفرات ، ويستيق العبرات ، فإنه لواقف موقفه

(١) مدينة بالأندلس (أسبانيا) كانت من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، احتلها المرابطون عام ١٠٩٠ ، واتخذها بنو الأحمر عاصمة لهم (٢٣٣-٨٩٨هـ/١٢٣٥-١٤٩٢م) . أهم آثارها العربية « قصر الحمراء » .

(٢) كانت إسبانيا في أواخر حكم العرب في الأندلس عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها إلى بعض حتى أصبحت مملكتين قويتين: أراغون وقشتالة ، فتزوج فرديناند ملك أراغون بإيزابلا ملكة قشتالة سنة ١٤٩٦ ، واتحدتا على طرد العرب من غرناطة ، فتم لهما ذلك بعد حروب كثيرة .

المسلمين قتالا لا شرف فيه ولا فخار حتى ماتوا جميعاً موت الأذلاء الأذنياء . فلا أنتم تركتموهم بجانبى أنس بهم في وحشتي وألجأ إلى معونتهم في شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم ووطنهم . فها أنذا عائش من بعدهم وحدي في هذا الغار الموحش ، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم ، وأسأل الله أن يلحقني بهم فمتى يستجيب الله دعائي ؟

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فالتت كلماته من نفس الأمير ما لم يزل منها ضياح ملكه وسقوط عرشه فصاح :

« ما هذا بشراً إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي ، فليصنع الله بي ما يشاء ، فعدل منه كل ما صنع . »

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقاً ، فسجل التاريخ في تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمروها ثمانمائة عام ^(٤) .

بعد مرور أربعة وعشرين عاماً على تلك الحوادث ، لم يبق في إفريقية حي من بني الأحمر إلا فتى في العشرين من عمره ، اسمه « سعيد » ، لم ير غرناطة ، ولا قصر الحمراء ، ولا المرج ، ولا جنة العريف ، ولا نهر شنيل ، ولا عين الدمع ، ولا جبل الثلج ^(٥) ، ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد

(٤) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م وتم جلاؤهم عنها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م .

(٥) قصر الحمراء في غرناطة ، مقر ملوك بني الأحمر ، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر الآثار التاريخية حتى اليوم . ومرج غرناطة : مشهور بجمال منظره وإطراد مياهه ويشبهونه بغوطة دمشق . وجنة العريف : بستان عظيم جداً بقرناطة فيه قصور ومبان ومنازة كثيرة . ونهر شنيل : أعظم أنهار غرناطة ، وهو يخترق المدينة من أعلاها إلى أدناها . وعين الدمع : جبل بظاهر غرناطة به منازة وبساتين . وجبل الثلج : بجنوب غرناطة لا يكاد يفارقه الثلج صيفاً وشتاءً وتجري منه ينابيع كثيرة وأنهار صغيرة تسقي ما يحيط بها من الغياض والبساتين .

منكم حرباً على صاحبه ؛ فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يترصد بكم الدوائر ويرى أن كلا منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رأيكم تتهافون ^(١) على أنفسكم ضعفاً ووهناً فاقتحمكم ، فما هي إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم معا .

« ستقفون غداً بين يدي الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألکم عن الإسلام الذي أضعثموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفسه بالرغام ^(٢) ، وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، وعن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتلدودوا عنها ، وتحملوا ذمارها ، فلم تحركوا في شأنها ساكناً حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحت تعيشون فيها عيش الأذلاء وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غداً ؟

« ها هي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان ، وها هي المساجد تطل نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يقر بدينه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكتاف الهضاب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدي شعيرة ^(٣) من شعائر دينه إلا في غار كهذا الغار الذي أعيش فيه !

« ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد ، فقد كان ذلك خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعاً غلاً واحداً يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذوداً عن أنفسهم ، وما تفعل الفوضى بأمة ما يفعل بها الاستبداد .

« يسألکم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعاً أحوج ما كنت إليهم ، وسقتوهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم

(١) تهافت الشيء : تساقط وتنازع . (٢) الرغام : التراب . (٣) الشعيرة : كل ما جعل علامة لعبادة الله .

« هذا ميراث آبائي وأجدادي ، لم يبق لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي والآثار الدوارس .

« هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ؛ وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكتبان الفلوات .

« هذه قصورهم ، تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

« هذه قباهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى ، تدعو الله أن يعيد إليها بناتها وحمايتها فلا يستجاب لها دعاء .

« في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يُقِيلُونَ ؛ وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون ، واليوم لا غاد منهم ولا رائع ، ولا سائح تحت هذه السماء ولا بارح !»

ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبدها بين يديه تبديداً فتهاقت^(٣) على نفسه ، وهو يقول :

« هكذا تدول^(٤) الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تَحُلُ الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة .»

ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء ، فلم يستيق حتى مضت دولة الليل ، فمشى إلى نهر جار في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوي إليه ، فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ نهر شنيل ، فمشى على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر بقطة المدينة بعد هجرتها .

وإنه لذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم ، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خمراً أسود شفافاً ، وأرسلت على صدرها صليباً

الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ، ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع ، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تستثير عبرته ، وتهيج أشجانه ، فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على التلف . فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه في حياته إلا أن يرى غرناطة ساعة من زمان يشفي بها غلة نفسه ، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها ، قعد به عن ذلك أن وراءه عجزاً من أهله مريضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سبتة إلى شاطئ مَلَقَّة ، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكراً في ثوب طبيب عربي من أطباء الأعشاب يتَّيَّقُل^(١) في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل . فوقف على هَضْبَةٍ من هضاب جبل الثلج ، فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون ، كأنها فوق سطحه اللامع المتألئق قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حيات بيضاء مدعورة ، تنبث ههنا وههنا لا هم لها إلا النجاة من يد مطاردها حتى تعثر بجداول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها الحقيقية الحمراء وقبابها العالية السماء ، ومآذنها الداهية في جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع ، وضم إحدى يديه إلى الأخرى ، ووضعها على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته ، ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والحرَّجات^(٢) يقول :

(١) تَبَقَّل: خرج لطلب البقل .

(٢) الحرجة: غيبة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة .

(٣) تهاقت: تساقط . (٤) يدول: ينتقل من حال إلى حال .

الفضاء ، ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها ، فأنس به وسكنت نفسه إليه . وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا هم له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر «شنيل» يقرب نظره في أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر عليه يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه ، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات عله يراها يبين فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكافأ راجعاً إلى مقبرة آباءه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يلذف دموعاً غزيراً ، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة !

نكب الدهر « فلورندا » منذ عامين نكية لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية «العصابة المقدسة» التي قامت في وجه الحكومة أعواماً طويلاً ، تطالبها بالحرية الدينية والشخصية لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيا رجال الحكومة أمرها ، فهدسوا لرئيسها من قتله غيلة^(١) تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع غدواتها وروحاتها . فأصبحت وهي لم تسلخ^(٢) الثامنة من عمرها تعيش في قصرها عيش الزاهدات المنتحلات ، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماضية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في مروج غرناطة وساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة » .

فإنها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بني الأحمر ، إذ لمحت على البعد فتى عربياً مكباً على أحد القبور كأنما يقبل صفائح ويبل ترتبه بدموعه ، فرثت لحاله ومشت نحوه حتى دأته فأحس بها ، فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له :

(١) الغيلة: القدر . (٢) سلخ الشَّيْء: أمضاه وصار في آخره .

ذهبياً صغيراً ، ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه ، فندت منه ورفعت قناعها عن وجهها ، فإذا الشمس طالعة حسناً وبهاء ، وقالت له بلسان عربي تخالطه بعض العجمة :

« أ غريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؟ »

قال : « نعم لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوي إليه الغرباء ، ولم أجد في طريقي من يدلني عليه . »

فسمعت في صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخايل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحجته بابتسامة عذبة ، وقالت له : « لا تنس أن تزورني أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة . » ثم سارت في طريق كنيستها .

كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها وتر بها الشهب فتلمع في أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوءها ضوء جميع تلك النيرات ؛ كذلك القلب الإنساني لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء مجتمعة ومفترقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب ، غريت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غرناطة منذ الساعة بعين غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن نائره وبردت جوانحه ، وهدأت في نفسه ثورة الغضب التي كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعها . فكان إذا مر بمسجد من تلك المساجد التي استحالحت إلى كنائس ، استطاع أن يقف أمامه هنيهة عله يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه ، وإذا رأى الصليب مشرفاً على رأس مثذنة ذكر الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أجواز

شيئاً ؛ فقد كانوا يقولون إذا رأوهما معاً : إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدي الفتى العربي إلى دينها القويم ، حتى استحال العطف الذي كانت تضمه له في نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف دائماً طريق الحب أو هو الحب نفسه لا يساً ثوباً غير ثوبه . إلا أن أحداً منهما لم يجرؤ أن يكشف صاحبه بما أضمره له في نفسه ، حتى جاء اليوم الذي عزم فيه على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء ، وطوداً (٢) يناطح الجوزاء ، وهضبة تشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبال تحسّر (٣) عن قمته العيون ، وتضل في جوانبه الظنون ، وحصناً تتقاصر عنه يد الأيام ، وتتهافت من حوله السنون والأعوام .

ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير ، وقباب تفضي إليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء ، كأنها الرياض الزهراء ، وجدران صقيلة ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرأة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لجة (٤) متلاطمة الأمواج يحبسها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتنغم في نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مُستعبراً

مُعْتَبِراً أُندب أشتاتنا

فقلت يا حمراء هل رجعة

قالت وهل يرجع من ماتا

فلم أزل أبكي على رسمها

هيهات يُغني الدمع هيهات

كأنما آثار من قد مضوا

نوادب يندبن أمواتنا

(٢) الطود: الجبل .

(٣) تحسّر: تكل وتضعف ، أي لا تستطيع الوصول إلى قمته لعظم

ارتفاعه . (٤) لجة: ماء كثير .

« إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى ، فابكهم كثيراً ؛ فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم . »

قال : « أترئين لهم يا سيدتي ؟ »

قالت : « نعم ؛ لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين من العظماء الساقطين . »

قال : « شكراً لك يا سيدتي فهذه أول ساعة شعرت فيها يبرد العزاء يدب في صدري مذ وطئت قدماي أرضكم هذه . »

قالت : « هل زرت قبورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار ؟ »

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه ، فإذا دعة تترجج في مقتلته وقال : « لا يا سيدتي . لقد حاولت الدنو منها فطردي عنها الموكلون بأبوابها ، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها مني . »

قالت : « أ تَمُتُ (١) إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟ »

قال : « لا يا سيدتي ، ولكنني عبدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولاءهم ما حييت . »

قالت : « إن رأيتك غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها . »

قال : « لئن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك مني ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خانه بين صباة تُقيمه وتقعده ، وأمل يميته ويحييه . »

وفت «فلورنذا» لصديقها العربي بما وعدته به ، فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها ، وهكذا ، ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما

(١) مَتَ إليه: اتَّصلَ بِهِ .

الذكرى ٦١

قال : « نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهائلة ».

قالت : « وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدِين بدِينك ؟ »

قال : « نعم لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التي أحبها فأحببتك لها ، ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدن . »

قالت : « وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ »

قال : « ولم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التي نجد فيها السعادة إن ظفروا بها ؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟ »

وكان الليل قد أظلمهما ، فبحرا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت «فلورندا» يدها في يده وقالت له : « سأحبك كما أحببتني أيها الأمير ، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبك . ولقد فرق الدين بين جسدنا ، فليجمع الحب بين قلوبنا . » وتركته وانصرف .

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيا في حياتهما الماضية من شقاء وعناء ، فأصبحا فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائرَيْن جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وتترقرق صفحة الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقيير ، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما ، ولا ينفس عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التي ابتاعها بكثير من دموعهما وآلامهما ، والتي لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسرا كل شيء .

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما «الجنود روديوك» ابن حاكم مدينة غرناطة ، فأرهما في مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى «فلورندا» قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أياما يتحبب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبت أن تصغي إليه ، وقالت له إنني

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صحنًا مفروشًا ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النحاف الطوال ، وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته فهاجت في نفسه الذكرى ، وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزناً ووجداً .

وأحس بحاجة إلى البكاء فاستحيا أن يبكي أمام «فلورندا» فتركها في مكانها لاهية عنه بالنظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها ، فكان أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها فما قرأه حتى صاح صيحة شديدة قائلاً : « واأباه ! » وسقط مغشياً عليه ، فلم يستيق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر «فلورندا» ووجد في عينيها آثار البكاء ، فقالت له :

« لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكاتمني شيئاً من أسرار نفسك ، والآن عرفت أنك لست عبد بني الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكنك أحد أمرائهم ، وأنت الساعة في قصر جدك وأمام حجرة أبيك . فما أسوأ حظكم يا بني الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين ! »

فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره ، فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها :

« فلورندا ، إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غداً . »

قالت : « وأي شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟ » فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال : « إنني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقاً لا لقاء من بعده ! »

قالت : « أ تحبني أيها الأمير ؟ »

« أ هذا الذي تصنعون اليوم ، والذي صنعتم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعي للذم ١٩ »

« نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ؛ فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالي بعهد ولا وفاء . »

« إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيف قاطع في يد الأولين ، وغزل ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عشرة البلهاء ولا أقر عيون الأغبياء ! »

« أنتم أقوياء ونحن ضعفاء ، فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة ؛ فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذي خولتكم إياه قوتكم . »

« اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء ؛ فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء ! »

ثم حاول الاستمرار في حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة الموت التي هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقاً ، فساق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساء ، وما جرد الجلاذ سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هي إلا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل .

يرى المار اليوم بجانب مقبرة بني الأحمر في ظاهر غرناطة قبراً جميلاً مزخرفاً ، هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافي ، قد نحتت في سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر ، فيهبو إليها الطير في أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بني الأحمر »

« من صديقتة الوفية بعهدة حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

لا أتزوج ابن قاتل أبي ، فانصرف بلوعة لا تزال كامنة في نفسه حتى اليوم . فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحت من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها ، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضي إليها بما وقع في نفسه ، فأبت أن تقابله ، فخرج غاضباً يحدث نفسه بأفزع أنواع الانتقام .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبي عبد الله ، سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسي مجدها وعظمتها ، وبناء قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهاناً إلى محكمة التفتيش^(١) متهماً بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له :

« لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ! » فطار الغضب في دماغه ، وصرخ صرخة دوت بها أرجاء القاعة وقال :

« في أي كتاب من كتبكم ، وفي أي عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم ؟ »

« من أي عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقاً ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر ؟ »

« أين العهد الذي اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركوا أحراراً في عقائدنا ومذاهبنا ، وأن لا تؤذونا في عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا في شعيرة من شعائر ديننا ؟ »

(١) أنشئت في إسبانيا عام ١٤٧٨ بقصد استئصال البدع ، واستخدمت وسائل العنف البالغ في عمليات التحقيق والتعذيب والإعدام .

فيها صوت ، ولا يتراءى في جوانبها شبح ، ولا يلمع في أرجائها مصباح ؛ فظننت أنني أخطأت المنزل الذي أريده ، أو أنني بين يدي منزل مهجور . حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقت ، فلم يجبني أحد فطرقت أخرى ، فلمحت من خصاصه^(١) نوراً مقبلاً ، ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً ، فتألمته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه ، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سماءه ، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه ، حتى وصل بي إلى قاعة شتاء مَعْبَرَة بالية المقاعد والأستار . ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد - ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء التي عشر هلالاً .

ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ، ثم تركني ومضى ، وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه ، ففحق قلبي خفقة الرعب والخوف ، وأحسست بشراً لا أعرف أماته^(٢) .

ثم التفت فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب ، فحيتني فحييتها ، ثم قالت لي : « هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟ »

قلت : « لا ؛ فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقت سبعة أعوام . »

قالت : « ليتك لم تفارقه ؛ فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقت حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى ، كما تعلمه ، غريباً ساذجاً ، فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان ، حتى سقط فيه ، فسقطنا جميعاً في هذا

(١) الخصاصُ جَمْعُ خصاصة ، وهي كل مُرْجَةٍ أو خَرْقٍ في باب أو غيره . (٢) المائى: الوجه الذي يأتي منه الشيء .

الهواية

« موضوعة »

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها ؟!

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاماً واحداً ، مر بي كما يمر النجم الدّهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ، ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت «فلاناً» منذ ثمانية عشر عاماً فعرفت امرءاً ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاعت لي في وجهه ؛ فجئت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدّر .

حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري ؛ فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي ، غير أسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك همّ كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام ، فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه ، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل ، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيّل إليّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة ، لا يهتف

الشقاء الذي تراه .»

قلت : « وأي شر تريدين يا سيدتي ؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟»

قالت : « سأقص عليك كل شيء ، فاستمع لما أقول :

« ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه ، وعلقت حباله بحباله ، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه ، حيث كان ، ولا تزال ، نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته ، فاستحال من ذلك اليوم أمره ، وتنكرت صورة أخلاقه ، وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده ، لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة ^(١) ، وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي . ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ، ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً ، مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده ، حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً ، فدنوت منه ، فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شيء .

« علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة رؤوسه ، في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين . وأنه ما كان يتخذ صديقاً كما زعم ، بل نديماً على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ؛ رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئاً .

« ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ؛ لأنني أعلم أن طريق الشر واحدة ، فمن وقف على رأسها لا بد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها . فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذي

(١) الفينة: الساعة والحين .

كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتد فيه رائحة النبيذ ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون - سكيراً مقامراً مُستَهْتِراً لا يحششم ، ولا يتلوم ، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً .

« وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم ، الذي كان يضمن بأولاده أن يعلق بهم الذر ، وبزوجه أن يتجهم ^(٢) لها وجه السماء ، أباً . قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنوا منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها . وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عَشْرَاته الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون ^(٣) حتى يذهب بعقولهم الشراب ؛ فيهتاجوا ، ويرقصوا ، ويملأوا الجو صراخاً وهُتافاً ، ثم يتعادوا ^(٤) بعضهم وراء بعض في الأبهاء ^(٥) ، والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي . وربما حلق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ؛ فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان . وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي ؛ فأقضي عندهم بقية الليل .»

وهنا تغيرت نعمة صوتها ، فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكي ، فبكيت بيني وبين نفسي لبكاها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

« وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال ، فكان لا بد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين ، ففهرن ، فعجز عن الوفاء ، فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ،

(٢) يتجهّم له: استقبله بوجه كريمة .

(٣) قَصَف الرجل: أقام في أكل وشراب ولهو .

(٤) يتعادوا: يتباروا في العدو ، أي الجري .

(٥) الأبهاء: جمع بهو ، وهو المكان المخصص لاستقبال الضيوف .

٦٥ الهاوية

الذي كان يتلألاً فيها تلالؤ نور الشمس في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح ، الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فمكاً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقيماً منكوباً ، قد لبس الهرم قبل أوامه ، وأوفى على الستين قبل أن يسلم الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أشفاه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجدد جبينه ، واستشرف^(٣) عاتقاه ، وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقي الأحذب ، فكان أول ما قلت له :

« لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك ! »

وكأنما ألمّ بما في نفسي ، وعرف أنني قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه ، وقلت له : « والله ما أدري ماذا أقول لك . أ أعظك ، وقد كنت واعظي بالأمس ، ونجم هداي الذي أستشير به في ظلمات حياتي ؟ أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك ؟ ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء . »

« إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي ، إنما يلجأ إليها الهمل^(٤) العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ، ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً ، حتى يأتيهم الموت فينقلهم من عارهم وشقايتهم ، وما أنت بواحد منهم . »

(٣) استشرف : ارتفع . (٤) الهمل : المتروك بلا رعاية .

ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للذاتين ، أو غنيمة للمقامرين !

« هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وبأولادي ، فقد مر على آخر حيلة بعثها من خلالي : عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنيين مآلى بملايسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال^(١) يعود عليّ من حين إلى حين بالنزّر القليل مما يستلّه من أشدق عياله ، لهلكت وهلك أولادي جوعاً . »

« فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين ، فتنقذه من شقائه ويلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح ، وأحسب أنك تقدر منه - للمنزلة التي تنزلها من نفسه - على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت . »

ثم حيتني ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعطني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني ؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم .

الآن عرفت أن الوجوه مرايا^(٢) النفوس تضيء بضائها وتظلم بظلامها ؛ فقد فارت الرجل منذ سبع سنوات فأستنتي الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ؛ ضياء الفضيلة والشرف

(١) رقة الحال : كناية عن الفقر .

(٢) المرايا : جميع مرآة .

الاستمساك حتى أبلغ قرارها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشربها حتى تُمالتها ، ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، ومادمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله .

قلت : « ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صداقة تعزمها فإذا أنت من الناجين . »

قال : « إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم ، إن كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين ! »

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركتني مكاني دون أن يحينني بكلمة ، وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً ، فأقصاه عن مجلسه استثقلاً له ، ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تلذرف عينه دموعاً واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته وولده إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور ، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زويت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ، ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ، حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الداهل المشدوه ، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينه حول

« إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم^(١) بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر ! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنياً فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فأصبحت سقيماً ، وشريفاً فأصبحت وضيعاً ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد ، فقد خَلَّت رقعة الأرض من الأشقياء .

« إن كل ما يعينك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ، فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة ، فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

« حسينا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر ، فلا نضم إليه شقاء جديداً يجلبه بأنفسنا لأنفسنا ! فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وما نحن أولاء قد التقينا ، فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي إليه ، فراعني أنه لم يحرك يده ، فقلت له : « مالك لا تمد يدك إليّ ؟ »
فاستعبر باكياً وقال : « لأنني لا أحب أن أكون كاذباً ولا حائثاً . »

قلت : « وما يمنعك من الوفاء ؟ »

قال : « يمنعني منه أنني رجل شقي ، لا حظّ لي في سعادة السعداء . »

قلت : « قد استطعت أن تكون شقياً ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟ »

قال : « لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على

(١) تبرم الأمر: سيمه وضجر منه .

٦٧ الهاوية

الحنون إلى طفلها الصغير ، فترحمه وتعطف عليه ، وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً . وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه ، حينما لا يجد معه ثمن الشراب ؛ فيعود إلى بيته نائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً ؛ فلا يجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه ؛ رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال ، حتى أضاف إليها ثقلًا جديدًا ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها ؛ فعلمت أنها حامل ، وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد ، فهتفت صارخة : « رحمك اللهم ، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة ! » وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة ، حتى جاءت ساعة وضعها ، فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز ، فأعانها الله على أمرها فوضعت . ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً ، فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها ؛ لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله ، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله ، فوفاها أجلاً في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل نائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد ، فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ، ورأى ابنتها تبكي بجانبها ، فظن أنها فدتنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها ، وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فراه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه ، فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فأكب عليها يحرق في وجهها تحديقاً شديداً ، ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت يحرق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين ، فترجع خوفاً وذعراً فوطئ

نفسه ، كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيئ ، أو يقلب نظره في أثوابه ، وما في أثوابه غير الرقاع والخروق ! وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شرراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل ، كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهذأت سورتها في رأسه ، انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت ، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها ، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما ، فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم ؛ فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها وبقيتانها . فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، ولما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز ، تختلف إليها من حين إلى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ، ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة ، بين زوج كريم وأولاد كالكوكب الزهر حسناً وبهاء . ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً ، والمخدوم خادماً ، والعزير الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديمة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات منبذات على سطح الغبراء ، تطوؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام ؛ فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد !

على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقائها وشقاء ولديها ، ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو هجرانه ؛ لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب . بل كانت تنظر إليه نظرة الأم

فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتي أن أعينك على حمل جرتك ؟ » فالتفتت فإذا فتى حضري غريب حسن الصورة والبرّ^(١) لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فأربها أمره واتقد وجهها حياء وخجلاً ، ولم تقل شيئاً ، واستقلت^(٢) جرتها ومضت في سبيلها .

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد ، فرضعت معه وليدة ، ولعبت معه طفلة ، وأحبته فتاة . وممرت بهما في جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرة ، والحياد والمركبات ، والأكوام والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأقواب المطرزة ، والغلال المرصعة ، لأنهما كانا قرويين فقيرين .

بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتألؤ السماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة ، على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة ، وأغاني الرعاة ، وضوضاء السائمة في غدوها ورواحها ، وبكاء النواير^(٣) في مسائها وصباحها ، ومن الحب الطاهر الشريف الذي يشرق على القلوب الحزينة فيسعدنا ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة .

لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو نخلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ، لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء . ولو

في تراجع صدر ابنته فأنت أنه مؤلة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : « واشقاءه ! واشقاءه ! »

وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ، ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : « ابنتي ! زوجتي ! هلموا إليّ ! أدركوني ! » حتى أعيا فسقط على الأرض ، وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح ، والناس من حوله أسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله . وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات الليمارستان ، فوا رحمته له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء !



الجزء

« مترجمة »

جلست على ضفة البحيرة لتملأ جرتها ، وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ، فغز عليها أن تكسر بيدها هذه المرأة الناعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرأة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها ، فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل .

أنست بهذا المنظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا به خيال رجل فذعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فمألت جرتها ، ثم نهضت لتحملها ،

(١) البرّة: الهيئة . (٢) استقلت الشيء: حملته وركبته .

(٣) النواير: جمع ناعورة ، وهي «الساقية» ، أي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر .

تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشئون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتاً طويلاً فلم تعد .

فرا به الأمر وأعاد البقرة إلى مُعتَلَفها ، وخرج يفتش عنها في كل مكان ، ويسأل عنها الناس جميعاً غاديهم ورائحهم ، فلم يجد من يَدله عليها حتى أظله الليل ؛ فعاد حزينا مكتئبا لا يرى أن أحداً على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابضة في كسر البيت مطرقة برأسها تفلي التراب يعود في يدها ، فدنا منها ، فرفعت رأسها إليه وقالت له :

« أين كنت يا جلبرت ؟ »

قال : « فشتت عن سوزان في كل مكان فلم أجدها . »

فألقت عليه نظرة مملوءة حزناً ودموعاً ، وقالت : « خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم . »

فانتفض انتفاضة شديدة ، وقال : « لماذا ؟ »

قالت : « قد دخلت علي الساعة جارتنا فلانة ، فحدثني أنها ما زالت تراها منذ ليالي تختلج إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضري غريب عن هذه المدرة ، أحسبه المركز «جوستاف روستان» صاحب هذه المزارع التي تليها والقصر الأحمر الذي يليها ، وقالت لي إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشهب يعدو بها في طريق القصر الأحمر ، ولا بد أنها فرت معه . »

فصرخ جلبرت صرخة جادت لها نفسه أو كادت ، وخر في مكانه صعباً . فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله ، تبكي عليه مرة ، وتمسح جبينه بالماء أخرى ، حتى استفاق في مطلع الفجر ، فنظر حوله نظرة حائرة ، فرأى أمه مكبة على وجهها تبكي وتتنحب ، فذكر كل ذلك فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها ، وسألها : « ما بكأوك يا أمه ؟ »

قالت : « أبكي عليك يا بني وعليها . »

قال : « إن كنت باكية فابك على غيري ، أما

أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت في كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت في زاوية من زوايا الأرض أنه وجد ؛ لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملا قلبها غبطة وسروراً .

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوة مختالة ، لا لأن حباً جديداً حل في قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت في طريقها برهاناً جديداً على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فترى ذلك السيد الحضري في غدوها أو رواحها يحييها أو يتسم لها ، أو يسألها عن طريق ، أو يستسقيها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقي في أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صخرة منفردة ، فكانت هذه اللحظة آخر عهدها بحياتها القديمة ، وأول عهدها بحياتها الجديدة !

هبط المركيز جوستاف روستان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها ، وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فيقضي في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته «نيس» . حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة في بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها ، وما زال يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذننها من سحره ، وعلى جيدها ومعصمها من لآله وجواهره ، ويصور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيها الأمانى الكبار في حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيا ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

استيقظ الفتى جلبرت في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقالها ، ثم هتف باسم سوزان يدعواها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها في سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسأل عنها أمه فلم

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم ، فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مذهب ، حتى نال منه ما لم يئل كره الغداة ومر العشي ، فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلاً بائساً منكوباً مشرد العقل ، مشترك اللب ، مذهباً به كل مذهب ، يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحرجات ، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحوش أنس العشير بعشيرته ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الطلاء واليعافير^(١) ، ثم يصدر إذا صدرت معها .

وربما ترامى به السير أحياناً إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر ، فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعر ذعراً شديداً وصاح صيحة عظيمة ، وانكفاً راجعاً إلى قريته لا يلوي على شيء ، وكثيراً ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تفتش عنه في كل مكان ، حتى تراه ملقى بين الأحجار ، على ضفة نهر ، أو في سفح جبل ، فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ، ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشعة ، تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أدراجها !

مضى الليل إلا أقله ، وسوزان جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلتفت إلى سرير ابنتها مرة وتقلب وجهها في السماء أخرى ، وكان القمر في ليلة تيمه ، فظلت تناجيه وتقول :

« أيها القمر الساري في كبد السماء ، ها أنذا أراك في ليلة تيمك وحدي للمرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إليّ خطيبي «جوستاف» فينظر إليك معي كما كان يفعل من قبل ؟

« لقد كنت لي أيها الكوكب المنير نعم المعين في ليالي الموحشة على همومي وأحزاني ، فهل تستطيع أن تحادثني عن «جوستاف» أين مكانه ومتى يعود ؟ وهل نلتقي قريباً فتمت بذلك يدك عندي ؟

« حدثني عنه .. هل يذكرني كما أذكره ؟ وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده ؟ وهل

(١) اليعافير: جمع يَمْفُور ، وهو الطَّيْرُ بلون التراب .

أنا فلست بحزين ، ولا باك ، فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحال قلبي الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شيء ، فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ! ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

لقد كذبت المسكين نفسه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبه ، ولكنها الغضبة التي يغضبها المحب المهجور ، تخيل إليه أنه قد نفى يده من المحب أشد ما يكون به عالقاً .

فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاه ، حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعته قليلاً قليلاً ، ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات ، فتنبير ظلامها ، وتجلو صفحتها ، وترقرق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتألقة بين يدي هذا الكوكب المنير . ودار بنظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه ، فلمح في الأفق الغربي بارقاً يخطف البصر بالألوان ، فخيّل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمساً كذلك التي أطلعها المشرق حتى تبينه ، فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابته أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماعاً شديداً ، فاسترد بصره إليه سريعاً ووضع يده على يسرى أضالعه ، كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ، لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبت فيما حدثته ، وأن تلك البارقة التي كانت تضيء ما بين جنبه من الحب قد استحالَت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضمًا ، وتمشي في نفسه مشي الموت في الحياة ، فأطلق لعبرته سبيلها . وأنشأ يئن أنيناً محزوناً تردده الرياح في جوها ، والأمواج في بحرها ، والأعشاب في مغارسها ، والسائمة في مراتبها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة ، فكفكف عبراته ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

« أ باقية أنت في القصر حتى اليوم ؟ »
فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد ،
وقالت له :

« وأين كنت تريد أن تراني يا سيدي ؟ »
قال : « في هذا القصر ، كما تركتك ، ولكنني
أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم . »
قالت : « لماذا ؟ »

قال : « لأن زوجتي قادمة إليه اليوم ، وربما
كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعجه وجودها . »

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في
عروقها من الدم قد تراجع كله دفعة واحدة إلى
قلبها ، فأصبح وحده الواجب^(١) الخفاق من دون
أعضائها وأوصالها جميعاً . ولكن المصيبة إذا عظمت
خلت عن البكاء والأنين ، فلم تصح ولم تضطرب ،
بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى
ابنتها وقالت له :

« وما ترى في ابنتك هذه ؟ »

قال : « ليس لي ابنة أيتها السيدة ولا ولد لي ؛
لأنني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام ! فخلدي ابنتك
معلك ، وعيشي معها حيث تشائين ، وقد تركت لك
هذا الكيس على المنضدة ، فخذيه واستعيني به على
عيشك ، وتركها ومضى . »

لم تلق على المنضدة نظرة واحدة ، ومشت
تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها ،
وهناك انفجرت باكياً ، وقالت : « وا سؤأناه ! إنه
يعطيني ثمن عرضي . » وسقطت مغشياً عليها .

فلم تستفق حتى أظلم الليل ، ففتحت عينها
فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي الخادمة ، وإذا الخادمة
تبكي لبكاها ، فضممتها إلى صدرها ساعة ، ثم قامت
إلى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية
التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام ، وكانت
تخفيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً ، فخلعت
أثوابها ولبستها ، ولم تبق في معصمها ولا في جيدها

(١) وَجَبَ القلب: خفق .

يجلس إليك حيناً فيسألك عني كما أسألك عنه ؟
فإن فعل ، فقل له : إن ابنته جميلة جداً جمال
الابتسامة الحائرة في فم الحسناء ، وبيضاء بياض
القطرة الصافية في الزنبقة الناصعة تحت الأشعة
الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتف باسم غير اسمه ،
ولا تبسم لرسم غير رسمه ، وإنه إن رآها أغنته رؤيتها
عن المرأة المجلوة ؛ لأنه يرى صورته في وجهها كما
تشابه الديلان المصويتان في قالب واحد .

ولم تزل تناجي القمر بمثل هذا النجاء حتى رآته
ينحدر إلى مغربه ، فودعته وداعاً جميلاً ، وقالت :
« إلى الغد يا صديقي العزيز . » ثم قامت إلى سرير
ابنتها ، فحنت عليها برفق وقبلتها في جبينها قبله
المساء ، وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عثت
بجفنها السنة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها
أحلامها إلى أمانيها وآمالها ، فرأت كأن «جوستاف»
قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابنتها على باب
القصر ، فنزل من مركبته وضمهما معاً إلى صدره
ضمّاً شديداً ، وظل يقبلهما ويكي فرحاً وسروراً .

فإنها المستغرقة في حلمها هذا ، إذ شعرت بيد
تحرّكها فانتبهت ، فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا
خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة متطلقة ، تقول
لها : « بشارك يا سيدتي فقد حضر سيدي . »

فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وقالت : « أحمدك
الله ! فقد صدقت أحلامي . » وأسرعت إلى غرفة
ملابسها فبدلت أثوابها ، ثم دخلت عليه في غرفته
باسمة متهللة تحمّل ابنتها على يدها ، فرأته واقفاً في
وسط الغرفة متكئاً على كرسي بين يديه ، فهرعت
إليه . ولكنها ما دنت منه ، حتى تراجع حائرة
مدهوشة ؛ لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد
لها به من قبل ، لا بل هو بعينه ، ولكنها رأت وجهاً
صامتاً متحجراً لا تلمع فيه بارقة ابتسام ، ولا تجري
فيه نظرة بشاشة فأنكرته . إلا أنها تماسكت قليلاً
ومدت إليه يدها تحييه ، فمد إليها يده بتثاقل وفنور ،
كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ، ولم يلق على وجه
الطفلة - وكانت تبسم إليه وتمد نحوه ذراعيها -
نظرة واحدة ، وكانت أول كلمة قالها لها :

سمعت الصوت فإذا شبّح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتفعت وفزعت ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة . فأهملها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشيخ رويداً رويداً حتى دانت ، فإذا هو إنسان في زي المساكين مستلق على ظهره شاخص ببصره إلى جدار القصر . فذهبت بنظرها حيث يذهب ، فإذا عينه عالقة بنافذة غرفتها التي كانت تجلس إليها كل ليلة ، فعجبت لذلك كل العجب ، وخفق قلبها خفقاً متداركاً ورأته يضم إلى صدره هنة بيضاء أشبه بالرقعة ضمّاً شديداً ، فأكبت عليه لتبينه ، وترى ما يضم إلى صدره ، فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو «جلبرت» يوجد بنفسه ، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعدنين في أعماق القبور :

«الوداع يا سوزان ! الوداع يا سوزان !»

فقهمت كل شيء ، فصرخت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت : « آه ! لقد قتلتك يا ابن عمي ».

ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها ، وتقول : « ها أنذا يا «جلبرت» جائية تحت قدميك ، فارحمني واغفر لي ذنبي ، فقد أصبحت امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني ».

وكانما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلاً ، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة ، وقضى :

ولما دنا مني السياق ^(٣) تعرضت

إليّ ودوني من تعرّضها شغل

أنت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

جشت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة ، قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيقها الذي أحبها حباً لم يحبه أحد من قبله أحداً حتى مات

(٣) السياق : نزع الروح .

لؤلؤة ولا ماسة إلا ألقت بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح ^(١) في مشيتها كأنما تمشي على رملة ميثاء ^(٢) .

وما جاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في حلمها هي وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها ، حتى لمحت على البعد مركبة فخمة مقبلة على القصر تحمل المركيز وامراً بجانبه ! فأغمضت عينها وتسلمت تحت جدار القصر ، ومضت في سبيلها .

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبها في تلك الساعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصر التي كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه ، وأثرهم عنده ، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلاً عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها ، فترى وجه ذنك الشخصمين اللذين أحسنا إليها كثيراً وأحبها حباً جماً فأساءت إليهما وغدرت بهما ، فقد سُدّت دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها في الأرض ، ولا في السماء !

ذلك ما كانت تتحدث نفسها به ، وهي سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهباً ولا مضطرباً ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى ، فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر ، فأضجعتها فوق عشبها ، وأسبلت عليها رداءها ، وجلست بجانبها تفكر في مصيرها .

فإنها لجالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أرجاء الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرة على صفحات الماء ، إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفاً يهتف باسمها بصوت ضعيف ، فالتفت حيث

(١) تَرَنَحَ : تمايل من السكر وغيره . (٢) الميثاء : اللينة .

برفق ، فلتمتها في جبينها لثمة أودعتها كل ما في صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة :

« الوداع يا ماري . سنتقي عما قليل يا جلبرت . المغفرة يا كاترين . » وألقت بنفسها في الماء .

قضى المركز الليلة الأولى من ليالي شهر العسل مع عروسه في شرفة القصر يسمران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ، ويرشقان من كل كأس من تلك الكؤوس رشفة تكثر كما بما عندهما منها ، حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعرا بشيء مما حولهما ، فلم يستفيقا حتى سمعا دوي الريح في أبراج القصر ، وفي ذوالب الأشجار ، فعلما أنها الربوعة فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإنهما لواققان موقفهما هذا ، إذ لمحت المركيزة في وجه المركز دهشة واضطرابا ، ورأته يلتفت التفاتاً شديداً كأنما يتسمع لصوت غريب ، فسألته ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر ، فرأى كما رأت هي على نور القمر ، طفلة واقفة على الضفة تصيح وتعول ، وتشير بيدها نحو الماء ، وتقول : « أماه ! أماه ! » فظنرا حيث تشير ، فإذا امرأة عارية إلا قليلاً تتخبط ، في لجج الماء تخبط الغرقى .

فترك المركز مكانه ونزل يعدو إلى النهر ، وهو يقول : « وا لهفتاه إن كانت هي . » وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا .

حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدومه أن يعود بالطفلة إلى القصر ، وأمر الباقيين أن يسبحوا وراء الغريقة ، ثم سقط في مكانه واهنا متهاكاً ، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء ، فسبح بعضهم وراء السابحين ، ووقف الباقيون حول المركز ينتظرون رحمة الله وإحسانه .

انتشر السابحون في كل مكان ، ومشت وراءهم

حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها ، وأنها تركتها على تلك الربوة نائمة وحدها فعادت إليها مسرعة ، وقد قررت في نفسها أمراً .

« لا أعرف أحداً من الناس أوصيه بك يا بنيتي ؛ لأن أباك أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذي كان يحبني في هذا العالم ذهب لسبيله ، ولكني أعلم أن لهذا الكون إلهاً رحيماً يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة الحزن في أفئدة المحزونين ولا عجز الشقاء بين جوانح الأشقياء ، فأنا أكل أمرك إليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء . »

« لا أستطيع أن أعيش لك يا بنيتي ، فإن أحداً من الناس لا يغتفر لي الذنب الذي أذنبته ، حتى الذي أغراني به وشاركني فيه ؛ فأنا ذاهبة إلى ذلك العالم العلوي المملوء عدلاً ورحمة ؛ لعلني أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنت بريئة ، ويرحمني إن كنت مذنبية . »

« لا أحب أن تكون حياتي يا بنية شؤماً على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس بذنبي كلما رأوك بجانبني ، فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعل راحماً من الناس يمر بك فيعطف عليك ، ويضمك إليه ، من حيث لا يعلم شيئاً من أمرك ، فتعيشين في بيته سبيحة هائلة ، لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمك فتؤلمك ذكراها . »

« اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها ويكفل أمرها ، وأنني قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرفعها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يد لها في الذي أذنبه أبواها ، فأرحمها وأسبل عليها ستر معروفك وإحسانك ، وهب لها صدراً حنوناً ، ومهداً ليلاً ، وعيشاً رغيداً . »

ثم بدأت تسرو ثيابها عن جسمها ، وتغطي بها جسم ابنتها وقاية لها من برد الليل ، حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد ، تركته ليكون سترًا لعورتها عند انتشار جثتها ، ثم حنت على الطفلة

ضاحية قرية «ليني» ، فيرى امرأة عجوزاً مكبة على قبر بين يديها تبكي وتنتحب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن القبر قبر قتله ، فيتراجع خائفاً مذعوراً ، ويصرخ قائلاً : « الرحمة الرحمة ! العفو العفو ! »

وكثيراً ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطاً في بعض الأماكن التي كن يرين فيها جلبرت ، فيقلن : « لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة . » وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه ، لولا أن يتداركه من يراه من المارة .

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان ؛ فعلموا أنها نهاية الجزاء .

مرت على هذه الحادثة أعوام طوال ، ولا يزال عجائز قرية «ليني» والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم ويبكين كلما ذكرنها ، ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بهن طائف من شرور الرجال .



العقاب (موضوعه)

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأنني هبطت مدينة كبرى ، لا علم لي باسمها ، ولا بموقعها من البلاد ، ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات ، فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيّل إليّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة ، وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه . فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان ، وأداول^(١) بين الحركة والسكون

عيون الناظرين وقلوبهم ، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة ، كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها ، عظم عندهم الأمل ، فاندفعوا وراءها مستبسلين مستقتلين يغالبون جبال الأمواج المعتزضة في طريقهم ، حتى إذا دنوا من المكان الذي لمحوها فيه لا يجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم ، فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئاً فشيئاً حتى غابت عن الأعين ولم تظهر ؛ فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة يرسبون ويطفون ، ثم ظهوروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحية أم ميتة ، وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن في الضفتين فتردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضفة ، فألقوها على الأرض فإذا هي ميتة .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مأتماً قائماً يبكي فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

لم ينتفع المريكز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضاً شديداً ، فلم تلبث أن لحقت بأمها بعد ثلاث ليال ، واستحال الحب الذي كانت تضمه له زوجته إلى بغض واحتقار ؛ فهجرته وسافرت إلى «نيس» ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه من شرفة القصر ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره . فكان كلما مشى في طريق ، توهم أن أمامه نهراً هائجاً تتخبط سوزان في لججته ، وتصيح ماري على ضفته ، فيصرخ قائلاً : « لبيك يا سوزان ! » ويندفع إلى الأمام كأنما يريد أن يلقي بنفسه في النهر الذي توهمه لينجي الغريقة التي تخيلها ، فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب ، فيسقط حسيماً طريقاً .

وكان يهيم على وجهه أحياناً حتى يصل إلى

(١) داول كذا بينهم: جملة متداولا، تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء .

يسراه ، ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير الغادي والوحش السائب ! فجثا الشيخ بين يدي الأمير ، ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه ، فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه .

ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره ، أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وقرعاً ، حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : « ما جريمته ؟ »

فقال : « إنه قاتل . ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال ، فأبى وتوقع في إيلائه ، فانتهره القائد فاحتدم غيظاً ، وجرد سيفه من غمده ، وضربه به ضربة ذهبت بحياته . »

فصاح الناس : « يا للفظاعة والهول ! إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه . » ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ، فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقال : « يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تُفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم . » فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن .

وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاءً ، لولا سحابة غبراء من الحزن تندجى فوق جبينها ، فقال الأمير :

« ما جريمتها ؟ »

فقال القاضي : « إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها نخالية بفتى غريب ، كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم . »
فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : « القتل القتل ! الرجم الرجم ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . »

فقال الأمير : « أين شاهدها ؟ »

فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير :

حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة ، لم أر بين البنى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنياتها وأبهاثها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا ، فسألت بعض الواقفين : « ما هذه البنية ، وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ » فعلمت أنها قصر الأمير ، وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم .

وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلألاً في وسط الفناء تلالؤ الشمس في دارتها ، وقد جلس على يمينه رجل يلبس مُسوحاً^(١) وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً^(٢) ، فسألت عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيت ينظر في ورقة بيضاء بين يديه ، فأكب عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : « ليؤت بالمجرمين . »

ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء ، فتكشف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيراً ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرمًا تكاد تسلمه^(٣) قوائمه ضعفاً وهناً ، فسأل الأمير :

« ما جريمته ؟ »

فقال الكاهن : « إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غِرارة^(٤) من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين . »

فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا : « ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟ » ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدير ، فتسارَّ الأمير مع الكاهن هنيئة ، ثم صاح :

« يقاد المجرم إلى ساحة الموت ، فتقطع يميناه ثم

(١) المسوح: جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان . (٢) الطيلسان: الوشاح أو الشال . (٣) أسلم: خَلَّ . (٤) الغرارة: رعاء من الخيش ونحوه لحفظ الحبوب .

« إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملأك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم . فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ؟

« من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة ، أو سلالة المستبد الأعظم فيها ، الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه ؟

« من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟

« من هو القاضي ؟ أليس هو أقدر الناس على لباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟

« ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أختياراً صالحين وأبراراً طاهرين ؟

« عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأمير القاتل سمي عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصاً . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتشيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطلة ربما ساقها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزغات الشيطان ، فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب ، أنسوا بمشهدها ، وأعجبهم موقفها ومصيرها !

« كما أن النار لا تطفئ النار ، وشارب السم لا يعالج بشره مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ، كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .»

ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث ، حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في

« تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت ، فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ، ولا على عظمها قطعة لحم .» فهلل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسلطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء .

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ، ومضوا لسيبلهم فرحين معتبتين ، وخرجت على أثرهم حزينا مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة ، التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم . وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة ، وغلوهم في تقديسها وإعظامها ، وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلمًا ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

« ليت شعري : أ لا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه ، إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضائهم ؟

« أ لا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو أهل بيته ؟

« أ لم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته ، فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

« أ لم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حله ، فتخف لوعة أسفه على الغرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لثلك ؟

« أ لم تزل قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته ، فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟

« من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

فأبكاني بكاءها وأحزني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها وقصته ، فبرزت من مخبي ومشيئ إليها ، فارتفعت لمراي عند النظرة الأولى ، ثم سكنت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها .

فابتدتها بقولي : « لا تراعي يا سيدتي ، فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئا ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فزيت لك وبكيت لبكائك ، وتمنيت لو أفضيت إلي بذات نفسك ، عني أستطيع أن أكون لك عوناً على همك . »

فاستعبرت باكية وأنشأت تخدثني وتقول : « إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعدما كان يستقل بحمله من الهم . وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونه حقبة من الدهر ، حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره . وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الشكل ، فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة ^(١) ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس ، لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها ، حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس في دننا ما نقوم به أصلاً صغارنا ، ولا ما نعلمهم به تعليلاً ، فأسقط في دننا ، وعلمنا أننا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده . »

« فلم أريداً من أن ألبأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندي ماء أكفهم ، فلم أجد بينهم من يحسن إليّ

جوها أسراب من الطير غادية رائحة ، فاخرقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظرًا هائلاً لا يزال أثره عالماً بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نواذب يندبته حاسرات . ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً مائلاً ، أو خيالاً سارياً . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلاً ، حتى غاب عن نظري كل شيء ؛ فسقطت في مكانني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل .

ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ؛ فما زال يتقدم حتى صار بجانبني ، فأشعل مصباحاً صغيراً كان في يده ، فتيينته على نوره ، فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ ، فجث بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها ، وقامت على قبره تودعه وتقول :

« في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً ، وأطهرهم لساناً ويداً ، وأشرفهم قلباً ونفساً ، فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده ، واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني بك وشيكا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقاءك ! »

زواياه غرارة^(٥) دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحذنه لولا العَوَز والفاقة ، ثم أدركه الحياء ؛ فأغضى عنها واستمر سائرًا في طريقه حتى صار بجانبها ، فوقع نظره عليها مرة أخرى ، فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه ، فلم يستطع ، فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش .»

« ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل ، وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره . ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء^(٦) تحت جدران البيت يتضورون جوعاً ، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى ، حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلق ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة ، فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ، وإذا نفثة من دم دفقت من صدره فاندحرت على رءاه ؛ فسقط في مكانه مغشياً عليه .

« ولم يزل على حاله تلك ، حتى مر به العسس^(٧) فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ، الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالته ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير ، وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووا رحمته لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده !»

بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك . وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني ، أنني لا ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل رَكْوَتَهُمْ^(١) فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهداً يتضاعون^(٢) جوعاً ، ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة ، لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ، ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ، وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل .

« فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : « إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات ، يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين ، فلو ذهبت إليه وكشفت له خلعتك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين .»

« فاستنار وجهه بنور الأمل ، وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه ، فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقته الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأفبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً ، وقال له : « إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ؛ فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك ، فأبواب الجرائم أوسع منها !»

« فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل^(٣) أو أفحوص^(٤) القطاة ، حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى

(١) الرَكْوَة: وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون .

(٢) يتضاعون من الجوع: يتضورون منه .

(٣) الحابل: الصائد لأنه يرمي الحبال للصيد ، وكفته: خبالته .

(٤) الأفحوص: حفرة تخفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها .

(٥) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه تحفظ فيه الحبوب .

(٦) الألقاء: جمع لقي ، واللقي الشيء الملقى المطروح .

(٧) العسس: الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة .

وريحانة النفوس ومتعة الأفتدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه ؛ فما كان قاتلاً ولا مجرمًا ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه ، فقطع تلك اليد الممتدة إليه ، وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لا ستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أكرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله .

قلت : « هل لك أن تقصي عليّ قصته يا سيدتي ؟ »

قالت : « نعم . نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الدين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا ، وكنت واقفة على بابه فنظر إليّ نظرة مريبة طار لها قلبي رعبًا وفرقًا ، ثم سألتني عن أخي فأرشدته إلى مكانه ، فسأله عن المال فاستنساها^(١) إياه أيامًا قلائل حتى يبيع غلته ، فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء .

« وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي ، وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير ، فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به ، فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : « لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال ، وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا ، فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك . » فقال له : « لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها . »

« فغضب أخي غضبة انتفض لها في جيبه عرق ، لم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم ، وقال له : « فلتكن حياتي فداء لشرفي . » ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ، ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غلّه^(٢) الأعوان

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رداثها ، ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ، الوداع يا خير الأزواج وأبرّ العشراء ، الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه . » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام ، حتى رأيت شبحًا آخر يترأى من حيث اختفى الشبح الأول ، وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاسًا ، فاخبتأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع ، وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعته ، ورسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى ، فرأيت الشبح على نوره . فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة ، حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة ، فمشت إليه ومدت يدها إلى الجبل المشدود به فعالجت عقده حتى انحلت ، ثم احتملته على يدها وأضجته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ، ثم هتفت صارخة : « واشقيها ! » وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيرًا متداركًا ، كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثًا ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلًا ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها .

فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه ؛ فمشيت إليها حيث صبرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ، فعلمت أنها حية ، فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة ، فرأيتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت :

« على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ »

قلت : « أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين . »

قالت : « نعم . إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيرًا ؛ فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة

(١) استنساها غريمه اللّين: طلب منه أن ينسها إياه أي: يؤجله له .

(٢) غلّه: وضع في عنقه الغل .

وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجمه في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، وقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها .

ثم التفت إليّ وقال : « لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلي هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها . »

وأراد الرجوع فاستوقفته ، وقلت له : « وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ »

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرة ، ونظر إليّ نظرة هادئة مطمئنة وقال : « نعم يا سيدي . ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها . أنا الرجل الذي اتهموها به ، وأستطيع أن أقول لك ، كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ، وإنها أظهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية . »

« لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحببني كذلك ثم شبيها وشب الحب معنا ، فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلي أبيها فأخطبني^(١) راضياً مسروراً ، حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء^(٢) بها إلا أيام معدودات ، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا . »

« حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها ، فراها القاضي فتبعته نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه ، فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه . وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرية ، فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أستطيع أن

(١) أخطبه: قبل خطبته . (٢) البناء بها: الوفاً إليها .

واحتملوه إلى السجن ، فملك حياته يا سيدي وذاك مماته ، فلئن بكيته ، أنا أبكي فتى الفتيان همه ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباء ، وأفضل الأخوة رحمة وحناناً . »

ثم قالت : « هل لك أن تعينني يا سيدي على موارثه قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة ، لا أقوى على شيء . »

فقممت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجئت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة ، حتى فارقت مكانها ، فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ، ثم مدت يدها إليّ وقالت :

« شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً ، ومضت لسبيلها . »

فأتبعته نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها ، فهاجني منظرها ، وقلت في نفسي : « إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب . » فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ، ثم ألقيت عليها رداي واحتملتها على يدي حتى أضجمتها في حفرتها .

فإنني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة وراثي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : « من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي ؟ »

قلت : « فتاة مرجومة ، رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء ، فرحمت مصرعها ، واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه . »

فقال : « إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ »

قلت : « نعم شأنك وما تريد . »

وتنحيت قليلاً ، فدنا من القبر وجثا فوق تربته ،

العيش من بعدها حتى ألحق بها .»

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائي ، وألقيت رأسي على بعض الصخور ، وأنشأت أحدث نفسي وأقول :

« ليت شعري ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض ، فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

« أجرم الزعيم الديني ، لأنه ضنَّ على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ، فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

« وأجرم الأمير ، لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها ، فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإعدام .

« وأجرم القاضي ، لأنه أراد أن يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

« وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرمًا ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته !

« فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومُزْنها .»

ثم التفتُ إلى مصرع المقبورين فوق وقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء يتلألأ فوق صفحتها ،

أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يُبل بقولها وقال لها : « ستتزوجين ممن أريد طائفة أو كراهة ، فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي !»

« وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لرفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم ، حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك . وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها ، فبث عليها عيونهم وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران ، فأقبل عليها فذعرت لمرأة وتركت حقيقتها مكانها ، وفرت بين يديه تعدو عدواً سريعاً .

« وكنت عائدًا في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأيتني فألقت نفسها علي وقالت : « إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني ، فارحمني يرحمك الله .» فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتني في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها ، فصاح : « ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها .» فأقسمت له بكل محرجة من الايمان أنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ إلي ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها ، فضربنني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة ، حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته ، فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي ، فأعود إلى ذهولي واستغراقي . حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال ، واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير ، وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة

فحَوَّلُوا معابدهم إلى مغاور لصصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يَضْنُونَ بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

« ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمرء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤسين .

« لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتنقض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ، ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ، ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شرعت به يعلو شيئاً فشيئاً ، حتى ضرب بأمواله رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

الضحية

« مترجمة »

نشأت « مرغريت جوتيه » فقيرة لا تملك مالا تشتري به زوجها ، ولا تجد بين الرجال من يبيعه نفسه بلا مال ، أو يحسن إليها بما يسد خلقتها ، ويستر عورتها ، وكان لا بد لها أن تعيش ، فلم تجد

فرفعت نظري إلى النجم ، فإذا هو المريخ^(١) يتلهب ويضطرم ، كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به ينتفض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ، ويقول :

« ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً ، حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة ، يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

« ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً ، وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحداراً ؛ فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقائعين .

« ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمثكوبون يموتون كمداً ؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

« ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

« ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

« ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ،

(١) كوكب ، وهو أيضاً « مارس » إله الحرب في الأساطير .

اليوم لامرأة مومس لا تمنحكم مالا ولا حبا جميع ما في أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد .»

ظهرت مرغريت في سماء باريس كوكبا متألعا يبعث الأنوار ويهر الأنظار ، ويملا أحوال الفضلاء بهجة وضياء ، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر ، وسال النصار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل ، وعنت لها الوجوه الكريمة ، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة ، وأصبحت أعناق الرجال في يدها ، كأنما قد سلكتهم جميعا في سلك واحد ، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون ، وتمسك عنه فيمسكون .

وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه ، لا يشبعه فيستغني عنه ، ولا يجيئه فيئأس منه ، فكانت تملأ نفس عاشقها أملا ورجاء ، حتى إذا ظن أن قد دنا به حظها ، وأن ليس بينه وبين أملة إلا أن يمد إليه يده فينالها ، ذادته عنه ذود الظامع الهيمان عن ورده أدنى ما يكون إلى فمه ، فإذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه ، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له ، بعثت وراءه شعاعا من أشعة ابتساماتها العذبة الخالبة فاستردته إليها صاغرا مستسلما .

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تعوزها بالأمس الملمعة ، وتعييها الخرق ، سيدة باريس وصاحبة عرشها ، ومالكة أزمة رجالها ، وفاجعة قلوب نساها ، والنجم الخالق الذي تبتهل إليه العيون ، والسر الغامض الذي تحار فيه الظنون .

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ، أما ما تعلمه من أمر نفسها ، فهي ترى أن جميع ما يذله لها الناس من فضة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ، لا يساوي دعة واحدة من تلك الدموع التي سكبتها على نفسها يوم باعت عرضها ، وأن جميع هذه اللآلئ والجواهر والأردية والتيجان التي يهبونها ، إنما يهبونها أنفسهم ليمتعوا بمنظرها فوق جسمها ، كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القلادة

بين يديها سوى عرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام ، فسأموها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان ، فباعته إياه كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شؤما عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكن الجمال سلعة من السلع النافقة^(١) . لا يستطيع صاحبه أن ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيرا معوزا ، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نغمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعا ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها ، الذي هو مطمح أنظارهم وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم لعرضها وشرفها .

ولقد برت يمينها بر الوفي بعهده ، فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم في أموالهم ، وفي أنفسهم ، ولم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور ، وهي تقول :

« وبيع لكم يا معشر الرجال ، ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفا واحدا لغداثي وآخر لعشائي ، فأيتيموهما علي ، فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تملك أيديكم من مال ونشئ ، بذلتموه لي طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم وأخس أقداركم !

« ولقد كان في استطاعة أصغركم شائنا ، وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعا ، أن يشتري مني جسمي وقلبي وحياتي بلا ثمن سوى سد خلتي وصيانة عرضي فلم تفعلوا ، فما هم أولاء اليوم عظماءكم وأشرافكم يجثون تحت قدمي جثي الكلب اللذيل تحت مائدة سيده ، فلا ينالون مني أكثر مما ينال منها !

« أحببتهم المال حبا جما ، فأيتيم إلا أن تتزوجوا ذات مال لتضموا طارفها إلى تليدكم^(٢) ، فابذلوا

(١) نفقت السلعة: راجت وروغ الناس فيها .

(٢) الطارف من المال: حديثه ، والتليد: قديمه .

أن تسترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها في قلوب الناس ، وأن تمحو بصلاحتها ما سلف من فسادها لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذي أسقطها وسلبها ذلك الرءاء من الشرف الذي كانت ترتديه ، يأبى عليها أن يعيد إليها رءاءه إن طلبته ؛ فلا بد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة ، وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على «مرغريت» في حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام ، حتى نزل بها مرض حجبها في بيتها عدة أيام ثم اشتد عليها ، فأشار عليها الأطباء أن تذهب إلى حمامات «البانير» للاستشفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان في ذلك المصطاف^(١) في هذا العام شيخ من الأثرياء اسمه «الدوق موهان» حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر؛ ليستشفى لها من دائها فلم يجدها العلاج وماتت بين يديه ؛ فدفنها هناك ولبت بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويكيها بكاءً شديداً .

فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه «مرغريت» سائرة وحدها ، وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى «البانير» ؛ فدهش لمنظرها دهشة عظيمة ، وخيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها ، أو أرسل إليه خيالها ليعزيه عنها لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها ذاهلاً مشدوهاً وأمسك بطرف رداءها ، وظل يحلق في وجهها تخديقاً طويلاً ، فعجبت لشأنه وسألته ما باله ، فقال لها :

« هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقبل يدك ؟ » فمدت إليه يدها وهي لا تعلم ماذا يريد ولا ما الذي أصابه ، فلثمها ثم اعتذر إليها عن جراته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه في ابنته وما راعه من الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرئت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلكت دمة رأها الشيخ من خلال أهذاب عينيها المبتلة بالدموع ، فسقط على

(١) المصطاف: مكان الاصطياف .

في عنق كلبه ، وما له من ذلك شيء ، فكأنما باعت عرضها بلا ثمن ولا جزاء !

وكانت تخلو بنفسها حيناً فتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وأنها إن حرمت هذا الجمال ساعة واحدة انفض الناس جميعاً من حولها ، وأصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم ، لا يعطف عليها قلب ، ولا تبكي عليها عين ، فتبكي بكاء الأشقياء على أنفسهم ، بل ترى أنها شقية مثلهم ؛ لأنها تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها إلا حباً كاذباً .

وربما مرت في بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس قصرها وهو جالس بين زوجته وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ، فتتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجاً وأولاداً كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئاً .

وما رآها الناس في يوم من أيامها استقبلت في قصرها رجلاً متزوجاً أو خاطباً ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها وألوا بسريرة نفسها ، لعلموا أنها امرأة حزينة منكوبة ، قد فجعها الدهر في سعادة الزوجية فعرفت قيمتها فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .

لقد تحدث بعض الذين أُلوا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو ثلاثاً بعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعن بها على الزواج ممن يردن ، فلم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهباً ، وإن ينبوع الخير لا يمكن أن ينفجر في قلوب النساء الفاجرات ! ولكن الحقيقة أنها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب «مرغريت» ، وهذه هي سريرة نفسها ، فهي فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ، وساقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلها ، ولو كان في استطاعة المرأة الساقطة

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هيأه لها الدوق عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً . ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ، ومشيت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة ، قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منته « الشانزلويه » فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها . فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ؛ فتقضي فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهافنين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقعها حتى تنتهي .

فلم تمض عليها أيام كثيرة ، حتى علم الناس جميعاً أن « مرغريت » قد استحالت حالها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة ؛ حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها فقصرت عنها أطعامهم وانقطعت منها آمالهم ، وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها . فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها ، وهي أن تلك الحادثة المحزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيبتها في صورتها ومرضها قد أثرت في نفسها تأثيراً شديداً ، وصورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى ؛ فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس ؛ لأنها تعيش من مال الدوق في نعمة لا يطمع طامع في أكثر منها . وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها ، تشبه حياة العذارى الطاهرات

يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدفعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه . ولم يزل سائرًا معها حتى وصلا إلى التزل ، فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من حين إلى حين ، فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها .

فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي اختطفها الموت من يد أبيها في زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائذ رد دعاية القضاء عنها . ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به ، وأنها ربما ماتت موتها فلا تجد بجانبها أباً كهذا الأب يندبها ويبكي عليها ، فأثر في نفسها هذا الخاطر تأثيراً شديداً ، وبكت له بكاء طويلاً ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تفارقها .

وظل « الدوق » يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد من الأنس بها ، والاعتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شُبه^(١) الوجد في صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لُدَّ لها أن يرى ذلك الشيخ الثاكل المنكوب في وجهها سلوته وعزاه ، فمنحته من عطفها وجبها ما لم تمنحه أحداً من قبله ، وأنست به أنسا لم تأنسه بإنسان سواه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى أبلت من مرضها بعض الإبلال^(٢) ، وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع ابتسامه واختراره ، فلذ لها المقام في البانير أياماً طوياً حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء ، فأزمعت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها في ذلك المزدحم العظيم الحافل بخلائها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في البانير ؛ فخلى بها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثاً طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى ، حياة المخالة والمعاشرة وتعيش في منزل يهيؤه لها ، ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني إلى باريس .

(١) شَبَّ النَّارَ: أوقدها . (٢) أَبْلَى من مرضه: برئ منه .

عربتها فركبتها ، فشعرت بالراحة قليلاً ، فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحداً ورأت على بعد خطوات منها إنساناً منصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته تخيلاً ، فعجبت لأمره ومضت في طريقها . فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمى تتمشى في أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبكت قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التي تركها الفتيان الذين زاروها في أثناء مرضها بجماً وتلوماً ، فلم تقرأ واحدة منها .

ثم حدثتها الخادمة أن فتى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان ينقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفتها بإياه فوصفته لها فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمنت لو رآته فشكرت له هذا الإخلاص النادر ، الذي لا عهد لها به في أحد من الناس .

وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى ، فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة في شرفة المنزل المطلة على الطريق ، فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرفضها ، ثم شعر بمكان مرغريت من الشرفة فتلوم ومشى وراء الخادمة ، حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فتركته وانصرف .

فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرفاً ولسانه لا يكاد يبين ، فمدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبله طويلاً ، عرفت مرغريت سر ما أودعها من عواطف قلبه ، وهي العالمة بأسرار القبلات ، ثم أذنته بالجلوس ، فجلس ، فأنشأت تسأله عن نفسه وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتبسم له فيما بين

اللواتي ينعمون بنعمة الشرف في ظلال آبائهم ، فأعجبها هذا الخيال ولد لها ؛ وكثيراً ما بكت ذلك الشرف قبل اليوم وحنّت إليه .

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقرراً ، فثار ما كان كامناً من داء «مرغريت» ، وعاد إليها نفثها وسعالها ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لا تفارقها يوماً حتى تعاودها أياماً ، فإن ألت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن رُوحت^(١) عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقي ؛ وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج^(٢) ما هي فيه ، فتخلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين ، ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهب إلى الملعب فتى في زي أبناء الأشراف وشماثلهم ، لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه ويفضي عنها إن نظرت إليه ؛ ولا يلتقي نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه حمرة ويرفض جبينه عرفاً ؛ كأنما جنى جناية لا مقيل له منها ؛ فلم تخفل به كثيراً لأنها لم ترفي أمره شيئاً جديداً ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ؛ وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه . وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها ، أنه الفتى الوحيد الذي كان يبكي في ذلك المجمع لمنظر المشاهد المحزنة التي تمثل على مسرح التمثيل ؛ لأنها تعلم أن الفتيان الفرجين المغتبطين بشبابهم وصحتهم لا يحفلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفلوا بتمثيلها .

فإنها لخالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو بارداً مقشعراً إذ فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفاً ووهناً فشعرت بيد تمسك يدها ، فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت

(١) رُوِّج عنه: تنفس عنه ما يضيقه .

(٢) تفرج: طلب ما يفرج عنه .

بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على بابك كلما جئت أسأل خادمتك عنك ، ثم أمضي لسبيلي من حيث لا ترين وجهي ، ولا تشعرين بمكاني .»

فسرت في أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحمى ، وخيل إليها أنها تسمع نغمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعا قبل اليوم من أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى . ثم قالت له : « إني أذن لك بذلك يا سيدي ، وأشكره لك شكراً جزيلاً ، بل أذك أن تزورني كلما شئت ، على أن تفد إلي صديقاً مساعداً ، لا محباً مغرماً ، فإني إلى الأصدقاء المخلصين أحوج مني إلى المحبين المغمرين .»

ومدت إليه يدها ، فعلم أنها قد أذنته بالنصراف ، فقبلها وانصرف مسروراً مغتبطاً ، فأثبته نظرها حتى غاب عنها ، فسقطت على وسادة بجانبها ، وقالت : « رحمتهك اللهم ، فإني أخشى أن أحبه !»

لقد أحبته من حيث لا تدري ؛ فإن الخوف من الحب هو الحب نفسه ، بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل ؛ فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها ، وتأنس به وبحديثه أنساً كثيراً ، وتفضي إليه بذات نفسها إفضاء الصديق إلى صديقه ، وتقص عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئاً ولا تكتُم عنه أمراً ، ثم ترامي بها الأمر ، حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته بضع دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عرض له ، لم يتمكن من إخبارها به ، فحزنت لانقطاعه حزناً عظيماً وذهبت بها الوسواس والظنون كل مذهب . ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم ، فقلقت لذلك قلقاً شديداً ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ، ولم يبق إلا أن تتردى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وخواججها ما عالجت حتى أصبح الصباح ، وقد أضمرت في نفسها أمراً .

جاء « أرمان » في صباح اليوم الرابع ، فوجدها

ذلك ابتسامات تلاطفه بها ، وتمسح عن فؤاده ما ألم به من الروع .

فحدثها أنه غريب عن باريس ، وأنه وفد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته « نيس » ليقضي فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلباً لتغيير الهواء وترويح النفس ، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه . فسأته :

« هل وجدت المقام حميداً هنا ؟ »

فصمت هنيهة ، ثم نظر إليها نظرة منكسرة ، وقال : « لا يا سيديتي .»

قالت : « لماذا ؟ »

فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها ، فعاد إلى صمته وإطراقه ، فأعادت عليه سؤالها . فقال لها : « هل تأذنين لي يا سيديتي أن أقول لك كل ما في نفسي .»

فشعرت بما في نفسه قبل أن يقوله ، وقالت له : « قل ما تشاء إلا أن تطارحني حبك وغرامك ، فإني امرأة مريضة لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لا مؤونة فيها ، فأحرى أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام .»

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً ، ومد يده إلى دمية تترقرق في عينيه ، فمسحها ، ثم قال لها : « ذلك ما يحزنني يا سيديتي ويكيني وينغص علي عيشي ، منذ هبطت باريس حتى اليوم ، فإني رأيتك فأحببتك للنظرة الأولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء ، وعلمت أنك تعيشين منذ شهر عيشة لا مطعم فيها لطامع ولا أمل لآمل ، فانقطع أمني منك ، إلا أن حيي إياك لم ينقطع . ثم رأيتك بعد ذلك في ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسجه يد المرض على وجهك الجميل ، فاستحال حيي إياك رحمة وشفقة ، وأصبحت أبكي لمرضك أكثر مما أبكي لحبك . وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئة ناعمة ، موفوراً لك حظك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحبون المغمرون . فأنا أقف الساعة بين يديك لا أطارحك الحب والغرام ؛

جميع عواطفني ومشاعري ، ولو شئت أن أقول ،
لقلت إنه أبكاني كثيراً ، وأسهرني طويلاً .

« فعلمت وأأسفاه أنني قد أصبحت عاشقة ، وأن
هذا الذي يختلج في قلبي ، وقيميني ويقعدني ، إنما
هو الحب والغرام ، فقضيت ليلة الأملس كلها أفكر
في طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التي نزلت
بي فلم أجد أحداً يخلصني منها سواك ، فأنا أسألك
يا أرمان ، باسم الصداقة والود الذي تعاهدنا عليه
بالأملس ، بل باسم الدموع التي طالما كنت تسكبها
رحمة بي وإشفافاً عليّ ، أن تنقطع عن زيارتي منذ
اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت ، ثم
لا تعد إليّ بعد ذلك ، فأحمل نفسي على الصبر
عنك حتى يمن الله عليّ براحة اليأس منك ! »

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد
مصفر ، كأن وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه
شاخصتان إليها شخوص العين القائمة ^(١) التي تنظر
إلى الشيء ولا تراه وبعد لأي ما ^(٢) استطاع أن يحرك
شفتيه ، ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير :

« وما يخيفك من الحب يا مرغريت ؟ »

قالت : « يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع
أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام
في فاتحة حياتي ، فقد كتب الله لنا - معشر النساء
الساقطات - في لوح مقاديره أن نزال نعت بقلوب
الرجال وعقولهم ، ونبتلهم بصنوف العذاب وأنواع
الآلام ، حتى يغضب الله لهم ويغار عليهم ؛ فبئسنا
بحب نحمل فيه من العذاب جميع ما حملناه الناس
من قبل ، ونشقى فيه شقاء لا ينتهي إلا بانتهاء
حياتنا ، فموت بين يدي أنفسنا مهملات مغفلات ،
لا نعاننا ناع ولا يكي علينا باك ، فهذا الذي أخافه
وأخشاه ، وأحب أن يسبق إلى أجلي قبل أن أراه .

« أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا أرمان ؛ فأنت
أجل من ذلك عندي ، ولكني أعلم أنك باق في هذا
البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك

(١) العين القائمة: التي ذهب نورها وبقيت حديقها صحيحة .

(٢) اللأني: الجهد والمشقة ، و (ما) زائدة .

طريحة فراشها ، وفي عينيها حمرة البكاء والسهرة ؛
فارتاع لمنظرها ، وقال لها :

« لعلك سهرت بالأملس كثيراً يا سيدتي أو
بكيت ؛ فأني أرى في عينيك أثر واحد منهما . »
قالت : « هما معاً يا أرمان . »

قال : « وهل حدث شيء جديد ؟ »

قالت : « اجلس بجانبني قليلاً أيها الصديق
أحدثك حديثاً قصيراً ، وربما كان آخر حديث بيني
وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراني . »

فدعر ذعراً شديداً ، ودخله من الرعب والهول ما
ملك عليه عقله ولسانه ، فلم يستطع أن يقول شيئاً
وسقط بجانبها واهياً متضعضاً ، وظل ينظر إلى
وجهها نظراً المتهم إلى وجه قاضيه ساعة نطقه
بالحكم .

فأقبلت عليه تخدشه وتقول :

« عرفتك يا أرمان ، فعرفت فيك الرجل الكريم
الذي أحبني لنفسني أكثر مما أحبني لنفسه ، والصديق
الوفى الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة
الرحمة والحنان ، فأوى إليّ مريضة حينما جفاني
الناس لمرضي ، وعاش معي بلا أمل حينما انقطع
الناس عني لانقطاع أملهم مني ؛ فأضمرت لك في
قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ،
وسعدت بك سعادة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام
حياتي .

« ولكن الله الذي كتب لي الشقاء في لوح
مقاديره من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد ، لم يشأ أن
يمتدني طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن يسلبنيها
وشيكاً ؛ فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة
الشريفة المقدسة التي كنت أستمدها منها سعادتي
وهنائي قد أخذت تستحيل في أعماق قلبي إلى
عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسني ، ولا أرى إلا
أنها ستكون سبب شقائي وبلائي ؛ فخادعت نفسي
عنها حيناً ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى كان
ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة ،
فشعرت لغيابك بحزن ألقطني وأمضني ، وملك عليّ

الضحية ٨٩

الصوت ، حتى بلغت باب المنزل فرأت «أرمان» ساقطاً تحت عتبه مغشياً عليه ، رفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله ، ثم ألقت نفسها عليه ولثمت ثغره لثمة هي أول لثمة ذاق فيها لذة العيش في حياتها ، فشر بها «أرمان» فاستفاق ، وضمها إلى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من نعيم الدنيا وهنائها !

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء «مرغريت» وعناؤها ، فقد أبكت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترحت على أرمان أن يترك باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارونه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية ؛ فقبل مقترحها وسافرا معاً يفتشان عن المكان الذي يريدان حتى بلغا قرية «بوجيفال» . وهي ضاحية من ضواحي باريس على بعد ساعتين منها ، فوجدا في بعض أرباضها منزلاً صغيراً منفرداً واقعاً على رأس هضبة عالية في سفح جبل مخضر ، تجري من تحته بحيرة صافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما ، فاكترياه ، ونقلتا «مرغريت» إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع .

ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً ناعماً هنيئاً ، لا تضطرب في سمائه غيمة ، ولا تمر بصفحته غبرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء وسواسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو منحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوباً ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهم من لفحات الهجير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من العشب الممتد في تلك البطحاء الفسيحة . يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال المائل في الشاطئ ، والأمواه والأخاديد ، والوديان والغابات والخرجات ، والكهوف والأغوار ، والغيوم والسحب والأضواء في تشكيلها وتلونها ، والظلال في تحولها وانتقالها ، وفي رؤوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفي قطع الصخور المبعثرة على

سفراً لا تملك بعده العودة إلي . فإن أبيت إلا البقاء بجاني حال أهلك بينك وبين ذلك ؛ لأنهم قوم شرفاء يضمنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارها وشنارها ، فلا تجد لك بدءاً من الخضوع لهم والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة أطلب السبيل إليك فلا أجذك ، والسلو عنك فلا أستطيعه . وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنف ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إليّ إحساناً كبيراً ؛ فطرمني من بين يديه عقاباً لي على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجد لي بدءاً من الرجوع إلى حياتي الأولى - حياة الشرور والآثام ، والهموم والآلام - التي أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

«إني أعلم يا أرمان أنك تخبني حباً جماً ، وأنت ستكابد في ابتعادك عني عذاباً كثيراً ، ولكنني أعلم أن لك قلباً شريفاً يحتمل العذاب في سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلي ، فأنت أقدر مني على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو الله تعالى لي لي ونهاري أن يمنحني الصبر عنك ، ويرزقني راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحني ؛ فلعلة يرحمنا جميعاً !»

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضععاً متهاكاً ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقاً حتى بلغه ، فوقف على عتبه ، والتفت إلى مرغريت ، وألقى عليها تلك النظرة التي يلقها المحتضر على أهله في آخر لحظات حياته ، وقال لها : «الوداع يا مرغريت !» ومضى .

فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمة مختبلة ، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به ! ثم تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ؛ فأدركها رشدها وأثباتها ، فعادت إلى فراشها تبكي وتنتحب ، وتعول إعوألاً شديداً ، وتدر في أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة ، وهي تصيح : «أرجعوه إليّ . لا أستطيع فراقه ، سأموت من بعده .»

وإنها لكذلك إذ سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة ، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت

وعزم أن يسافر إلى «نيس» ليأتي منها بالمال الذي يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجاً شديداً وخافت عاقبته ، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه ، وتبذل في ضراعتها ورجائها في سبيل بقائه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ، ورضي بالتي لم يكن يرضى بمثلها لولا لهفة الحب وضراعة الدموع ؛ وقد أضمر في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه في الميراث الذي ورثه من أمه ؛ مكافأة لها ووفاء بحقها . فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد من أن تمتد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأنشأت بتبيع القطعة بعد القطعة ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم أرمان ؛ واستمر على ذلك بضعة أشهر . حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعات أنسهما وصفائهما خادماً فندق «تورين» الذي كان ينزل به أرمان في باريس وقال له إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

قال دوغال لولده: « لقد كذبت عليّ كثيراً يا أرمان ؛ وما كنت قبل اليوم كذاباً ، ولا خادعاً ، ورضيت لنفسك بحياة كنت أضن الناس بنفسك على مثلها من قبل ؛ ومزقت بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذي لا يزال مسبلاً على وجهك ؛ وأصبحت تبذل في العيش مع امرأة عاهرة ؛ كل ما لها من الشأن عند نفسها ؛ وعند الناس جميعاً أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ؛ وفتات المائدة العامة التي يجلس عليها الناس جميعاً صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا ، وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معي إلى «نيس» ؛ فلست بتاركك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة .»

فرفع «أرمان» رأسه إلى أبيه ؛ وقال له بصوت هادئ مطمئن : « لا أستطيع يا أبته !» فنظر إليه أبوه نظرة شزاء ، وقال له : « وتلك سيفة أخرى ؛ فقد أصبحت لا تعبأ بي ، ولا تبالي بمخالفة أمري من أجل امرأة ساقطة ، لا شأن لها معك إلا أن تعبت بعقلك ؛ وتسلبك مالك وشرفك ؛ وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك .» قال : « لا يا أبته ؛ إنها ليست بعابثة ولا خادعة ،

جوانب الغدران كأنها بعض أمواجه ، وفي تلك المعركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشي الأنوار والظلمات فينتصر في صدر النهار أولهما ، ثم يُدال في آخره لثانيهما . حتى إذا جاء الليل ، عادا إلى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه ، ورشفا من كل ثغر من ثغور السعادة رشفة تسري حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمه .

مر بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يختلساه من يد الدهر في غفلته ، ثم انتبه لهما بعد ذلك - وويل للسعداء من انتباهه بعد إغفائه - فقد نضب أو أوشك أن ينضب ما كان في يد «أرمان» من المال ، وكان في يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يستعين به على البقاء في باريس مدة أخرى ، زاعماً أنه لا يزال مريضاً متألماً لا يستطيع السفر ، وكذلك كان يفعل من حين إلى حين . فلم يأت الرد ، فأقلقه ذلك قلقاً شديداً ، وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم ، يسأل في فندق «تورين» الذي كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده ، فيعود حزينا منقبضاً ، حتى إذا وصل إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه ، تطلق وتبسم كأنه لا يضمّر في نفسه همّاً قاتلاً .

ولكن عين مرغريت أقدر من أن يعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه ، فاكتنعت سرّه فكاشفته به ، وقالت : « لا يحزنك شأن المال يا أرمان ؛ فإن عندي منه ما يكفينا العيش معاً سنين طوالاً .»

ولم تكن صداقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رّفده مذ عرف قصتها مع «أرمان» ، وعلم أنها خاتنه وخانتة بعهد ، بل كانت مدينة بمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ، بل أصبح دائئوها يتقاضونها ديونهم بعدما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها .

ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة لم تفكر في عاقبتها ، فأكبر «أرمان» ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شديدة ، وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ،

الضحية ٩١

« فدعني معها يا أبتاه عاماً آخر أو عامين أهوّن عليها فيهما شقاءها ، فربما كان ذلك آخر ما قدر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب ، ساكن الضمير ، راضياً عن نفسي وعن عملي ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويهون وجدي عليها كلما ذكرتني أنني لم أحنها ، ولم أغدر بمهدا . »

فأطرق دوقال هنيهة كأنما يعالج في نفسه همّاً معتلجاً ، ثم رفع رأسه ، ونظر إلى ولده نظرة تشبه نظرة العطف والرحمة ، وقال له : « لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أختك ورائي تندبك وتبكي عليك صباحاً ومساءً ، ونحن إلى لقاءك حينئذ الظامئ إلى الورود ! واعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك في هذا الشأن ، لا يغني عنك ولا عني شيئاً يوم يقول الناس كلمتهم التي لا بد أن يقولوها غداً . وربما قال كثير منهم قبل اليوم إن أرمان دوقال سلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة موس في بيت واحد ، فعد إلى نفسك يا بني واستلهم الله الرشده يلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على عقلك . ودع هذه الحياة الساقطة التي يحياها من ليست له همة مثل همتك ، ولا مجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك ، وإني تاركك الآن وحدك وذاهب عنك لبعض شأني لتخلو بنفسك ساعة تسترد فيها ما عذب عنك من صوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التي أرجو أن تكون شفاء نفسي ، و رواء غلتي . »

ثم تركه ونزل فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتاباً خاصاً . ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في باريس ، فزارهم زيارة طويلة ؛ فلم يعد إلى الفندق حتى أظلم الليل ، فلم فرأى أرمان لا يزال في مكانه . فسأله ماذا رأى ، فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تحدر القطر على أوراق الزهر ، وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه ويكشف له من خبيثة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول :

ولكنها تخبني حباً جمّاً لم يحبه أحد من قبلها أحداً ، وأحسب أنني إن فارقتها قتلتها ، وجنيت عليها جناية لا يفارقني الندم عليها حتى الموت . »

قال : « ذلك ما يخدم به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها ، بل لهن ألسن يختلن بها الرجال ويسلبنها حبباً بين بعضهم وبعض ! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الحظوة لديها ، من دون أصحابه جميعاً . »

قال : « ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهي لا تحب أحداً غيري ، بل لا تعرف أحداً سواي ، فهي تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن ؛ لأن الخلية التي تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التي تخون زوجها ، وأخشى إن فارقتها أن تثور في نفسها ثورة من ثورات اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى ؛ حياة الشر والفساد ، والشقاء والعذاب ، بعدما استنقذت نفسها ! »

قال : « وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء الفاسدات ؟ »

قال : « ذلك خير له من أن تكون وظيفته إفسادهن ؛ فإن الأشراف في هذا العصر يفخرون بإفساد النساء الصالحات ، واستدراجهن إلى مواطن الفسق والفجور ، وإصلاح المرأة الفاسدة ، أدنى إلى الشرف من إفساد المرأة الصالحة . »

قال : « لقد أصبحت كثير الرحمة يا أرمان . »

قال : « لم لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها في الناس من يعولها من ذي قرابة أو ذي رحم ، وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلل عنها ، إلا أن يهدأ عنها حيناً ويستيقظ أحياناً ، فهي تكابد الألم مرة ، والخوف من الألم أخرى ؟ ولا عزاء لها في حالتها إلا هذه السعادة التي تنوهمها في الحب ، وترى أنها ناعمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شيء في الحياة ، وعظم حزنها وبؤسها ، وثقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتي على البقية الباقية من حياتها . »

فلم يحفل « أرمان » بذلك ومشى إليها فقبلها ،
فقالت له : « ماذا جرى يا أرمان ؟ »

قال : « أرادني أبي على السفر معه فأبيت ،
وبكيت بين يديه كثيراً فلم أنل منه منلاً ، وقد أمرني
بالعودة إليه غداً ولا أريد أن أفعل ؛ لأنني لا أحسب
حظي منه في الغد خيراً منه اليوم . وقد أصبحت
نفسي تتحدثني بعصيانها ، والبقاء هنا على الرغم منه ؛
لأنني أعلم أنني قد تجاوزت السن التي يحتاج فيها
الأبناء إلى إرشاد الآباء ، ولأنني لا أعرف أحداً بين
الناس يستطيع أن يرسم لي خطة سعادي كما
أرسمها لنفسي . »

ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ،
ونظر إليها فإذا هي مطرقة صامته ، وإذا وجهها أصفر
مريد كأنما قد نفّض الموت عليه غباره !

فقال : « ما بالك يا مرغريت ؟ »

قالت : « أشعر بألم شديد في رأسي ، وأريد
الذهاب إلى مخدعي . »

فأخذ بيدها إليه ، وجرّعها بضع قطرات من الدواء
فاستفاقت قليلاً ، ثم نامت في مخدعها نوماً مشرداً
مزعوراً ، تتخلله أنات طويلة وأحلام مرعبة ، حتى
أصبح الصباح ، فقالت له : « أرى لك يا أرمان أن
تعود إلى أبيك كما أمرك ، وأن تعاود استرحامه
واستعطافه لعلك بالغَ منه اليوم ما عجزت عنه
بالأمس . إنني لا أكون راضية عن نفسي ، ولا هائفة
بحياتي ، إن لم يكن أبوك راضياً عنك . »

ولم تزل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها .
ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة ،
كأنما يضمن بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزع ، ثم
قبلها ، وقال لها : « إلى المساء يا مرغريت . » فلم
ترد عليه تحيته حتى أبعد عنها ، فقالت بينها وبين
نفسها : « أرجو أن يكون كذلك . » وتهافتت على
كرسي بين يديها باكية منتحبة .

ولم يزل أرمان سائراً في سبيله حتى وصل إلى
باريس ، فذهب إلى فندق « تورين » فلم يجد أباه
هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن

« والله يا أبت لو علمت أنني أستطيع الحياة
بدونها ، لفارقتها برأً بك وإيثاراً لطاعتك ، ولكنني
أعلم أنني إن فعلت فقد وضعت أمري في موضع
الغَرَر^(١) ، وخاطرت بعقلي أو بحياتي مخاطرة لا أعلم
ماذا يكون حظي فيها . ولا أحسبه إلا أسوأ الحظين ،
وأحس النجمين ، ولو أن أحداً من قبلي استطاع أن
يدفع هواه عن قلبه أو يمحو ما قدر له في صحيفة
قضائه من شقاء الحب ويلائه لسلكت سبيله التي
سلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لي ، فلا
رأي لي في رده ، ولا حيلة لي في اتقائه ، وقد نزلت
هذه الفتاة من نفسي منزلة هي منزلة الحياة من
الجسم ، والغيث من التربة القاحلة ، فإن كنت لا بد
آخذني فخذ معك جسماً هامداً لا حراك به ، ونبتة
ذاوية لا حياة فيها ! »

فوضع أبوه يده على عاتقه ، وقال له : « قم الآن
يا بني واذهب لشأنك ، وعد إليّ صباح الغد لأتمم
حديثي معك ، وأرجو أن تكون في غدك خيراً منك
في أمسك . »

فخرج محزوناً مكتئباً يمشي مشية الذاهل
المشدود ، لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى
رأى عربة ، فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد هدأة
من الليل ، فلم ير مرغريت في شرفة البيت تنتظره
كعادتها ؛ فدخل عليها غرفتها فراها مكبة على
منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ، فشعرت
به عند دخوله ، فنهضت مدعورة متلهفة . فخيل إليه
عند نهوضها أنه لمح في يدها رسالة تضم عليها
أصابعها ، فظنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها
إليها المركيز « جان فيليب » من حين إلى حين ، وهو
فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها في عهدها
الأول حباً شديداً ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما
انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها
رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمنيها الأمانى
الحسان في عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ،
فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها .

(١) الغَرَر: التعرض للهلكة .

الضحية ٩٣

بها إليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال ، فأدهشه أن رأى البيت مظلمًا ساكنًا لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يترأى فيه ظل ؛ فمشى إلى الباب فرآه مرتجًا ، فوضع أذنه على خصاصه ، فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعًا شديدًا ، ويهتف باسم «مرغريت» مرة واسم «برودنس» أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال في نفسه : «لعلها ذهبت إلى بيتها في باريس لبعض شأنها واستصجبت خادمتها ، ولا بد أن تعود الآن» .

فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هداةً من الليل فلم تعد ، فحدثته نفسه بالعودة إلى باريس للبحث عنها في مظان وجودها ، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقًا غير الطريق التي تسلكها في عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حينًا ويتمشى أحيانًا ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القلق المرتاح إلا حديث خيانتها وغدرها .

ولم يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تدب في فحمة الظلام ، فسأ ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في نفسه : « ما لمرغريت بد من شأن ، ولا بد لي من المصير إليها ، والنظر في الشأن الذي شغلها ! » وكان القلق والسهر قد أخذتا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ؛ فمشى في طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الشمل حتى وصل إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار .

فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة من أشجار الحديقة يُشدُّب أغصانها ، فسأله عن مرغريت ، فقال : « إنها حضرت هنا بالأمس في منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوبًا من أثواب الولايم ، فأعطتني كتابًا ، وقالت لي إذا جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عني فأعطه إياه ، ثم ركبت عربتها هي وخادمتها وانصرفت » .

قال : « أ لا تعلم أين ذهبت ؟ »

ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتًا طويلًا حتى عاد بعد منتصف النهار ، وقد رقت قليلًا تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس ، فتقدم نحوه أرمان ، فحيّاه ، فقال له :

« لقد فكرت ليلة أمس في أمرك كثيرًا يا بنيّ فرأيت أنني قد قسوت عليك وغلوت في أمرك غلوةً كبيرةً ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان يجب عليّ أن أنظر إليها ، فإن للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة ، وحالًا خاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا ضيع ، ولا يختلف فيها سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما تريد ، على أن تعذني بالعودة إليّ في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها انقطاع حياة أو موت ، فإني إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها من النساء » .

فاستطير أرمان فرحًا وسرورًا ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويلبها بدموعه ، ويقول : « أعدك بذلك يا أبتاه وعدًا لا أخالفه ، ولا أخيس به ، ولك حكمك ما تشاء إن رأيته بعد اليوم كاذبًا أو حائثًا » .

ثم نهض يريد الذهاب ، فقال له :

« أين تريد ؟ »

قال : « أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها ما ألمّ به من الروح منذ الأمس » . فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمة كانت تترقق في عينيه .

ثم التفت إليه وقال : « ابق معي اليوم يا بنيّ فربما سافرت غدًا ، ولا أعلم بعد ذلك متى أراك » .

فبقي معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فاستأذنه في الذهاب إلى بوجيفال فأذن له فحيّاه وخرج ؛ فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ؛ فانحدرت من جفنه تلك الدمة التي كان يجبسها من قبل ، وقال :

« وارحمته لك أيها الولد المسكين ! »

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادهما التي يرجوانها في مستقبل حياتهما ، وطار

قال : « أحسب أنني سمعتها تقول للحوذي عند ركوبها : إلى منزل المركز جان فيليب ».

فجمد أرمان في مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ، ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يدها بعد عودته إليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته ، وعاد إليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمر نظره عليه إمراراً فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعاداً شديداً ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته ، فإذا هو مشتمل على هذه الكلمات :

« هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمان ، فلا يتحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلا أنني هكذا أردت لنفسي ، والسلام ».

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفاً ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشذب أغصانها ويتغنى في صعبوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامي يعجبه لحنها ، وإن كان لا يفهم معناها .

فإنه لذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت فرأى أرمان صريعاً معفراً تحت عتبة الباب ، ففزع فزعاً شديداً وظنها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقي من دقائق قلبه ، فاطمأن قلباً وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجهه ، ويدلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالساً بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال في يده . فدار بعينه حول نفسه فمرت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عينه منذ خمسة عشر شهراً يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ورسمت على ثغره أول قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : « ما أبعد اليوم من الأمس »!

وأشأ يكي بكاء الطفل الذي حيل بينه وبين ندي أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزيه عن مصابه ، ويهوئه عليه حتى هدأ قليلاً . فأمره أن يستدعي له عربة ففعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب ، وقال للسائق : « إلى فندق تورين » . فسارت به العربة إليه ، حتى إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق الخاطف ، تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى ، ثم راجع صورتهم في خياله فإذا هما : « جان فيليب ومرغريت » ، وكانت مركبته قد وصلت به إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائماً مختبلاً ، فقال :

« ما دهاك يا بني ؟ »

قال : « قد خانتني يا أبته ».

قال : « ذلك ما أندر لك به من قبل يا بني ».

ثم انقضى النهار ، وجاء الليل فقضاه أرمان ساهراً في مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض في نفسه جميع أطوارها وشؤونها فلم تبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل في مراجعته إلى الأمس واليوم الذي قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كعادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المركز في يدها عندما دخل عليها غرفتها وضنها به ضناً شديداً ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضها عن التبسط معه في الحديث بعدما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائفة لا تستطيع البقاء معه ، وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثاني إلحاحاً شديداً في العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضياً عنه ، فاستنتج من هذا كله أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال وأن أباه إما أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتر عليه الرزق

نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والحسرة عليه ما لا تنيه ^(١) الأيام ، ولا تنتقص منه السنوات والأعوام .

الأسقياء في الدنيا كثير ، وأعظمهم شقاءً ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بألامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك ، ثم يغلق دونها باباً من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس باش الوجه باسم الثغر متطلقاً متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًّا ولا كمدًا .

ذلك كان شأن « مرغريت » بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ، تضيء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها مخدعها وخالها وجه الليل مرت أمام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب « أرمان » .

ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم ، ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بدءاً من مآذقهم والتجرب إليهم والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فقبل الأفواه التي لا تشتهيها وتعتنق القمامات التي لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها وتضحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتنشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق .

فكأنها في يد الناس العود في يد المغني يقطع أوتاره ضرباً لطرباً لنغماته ، أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصراً لينعم بشذائها ، فتبهجها ذكرى ذلك الماضي السعيد ، وهذا الحاضر الشقي ، فتطلق السبيل لزفرتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشفى نفسها ، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين

(١) تنيه: تضعه .

تقتيراً ، ملته واجتوته ، وفكرت في سبيل الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتتها بكتاب المراكز فكان هو طريق خلاصها .

ولم يزل هاتماً ما شاء الله أن يهيم في تصوراته وأوهامه حتى غلبته عيناه فهجع قليلاً ، ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه ، وقال له :

« لي عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها وأريد أن أبتاعها منك بخضوعي لك ونزولي على حكمك أريد الدهر فيما سرني أو ساءني ، فهل لك أن تبلغنيها ؟ »

قال : « وما هي ؟ »

قال : « أريد أن تعطيني الساعة خمسة عشر ألف فرنك . »

قال : « وما تريد منها ؟ »

قال : « أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسي من دون الناس جميعاً حتى من دونك . »

فنظر إليه أبوه نظرة الملم بما دار في نفسه ولم يعاوده ، وأعطاه صكوكاً بالمال الذي أراد ، فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتاباً طويلاً ختمه بهذه الكلمة :

« أما وقد عرفت أنني كنت أعيش مع امرأة عاهرة ساقطة لا عهد لها ولا ذمام ، فما هي ذي أجرة لياليك الماضية مرسله إليك . »

ثم خرج ليعد نفسه للسفر ، ف قضى اليوم كله خارج الفندق ، ثم عاد إليه دُبر النهار ، فوجد فيه كتاباً باسمه ففرض ختامه فإذا الأوراق التي أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فمنعه أبوه من ذلك وقال له : « قد وعدتني ألا تخالفني في أمر فلا بد لك من الإذعان . » فأذعن ثم سافراً معاً تلك الليلة إلى نيس .

وكذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الوفيان والعاشقان المخلصان ، فعاد الفتى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التي كانت تأبأها الإباء كله ، وتخافها الخوف الشديد ، وفي

بسر الذنب الذي أذنبته إليك فيما مضى ، والذي لا تزال واجداً عليّ بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تغفر عني في ساعتني الأخيرة فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبري . واذكر يا أرمان ، أن أول عاطفة جمعت بيني وبينك وألفت بين قلبي وقلبك ، كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هي الفتاة المريضة المسكينة التي رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها ، وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذي كتبتني إليّ قبل سفرك فقد اغفرت لك كل ما فيه ، حتى قولك إنني كنت كاذبة في حبك ، طامعة في مالك ؛ لأنني أعلم أن المرأة التي تكذب الناس في حبها طول حياتها لا يمكن أن تجتد من يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع .»

ثم لبثت تنتظر حضوره أياماً طويلاً فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزناً شديداً ، وساء ظنها به ، ووقع في نفسها أنه قد سلاها واطرحها ، وأصبح لا يعبا بها ، ولا يبالي بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو شقتها ، وكانت مخطئة فيما ظنت . فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذي أرسلته إليه مذ فارقها في العام الماضي وسافر إلى « نيس » ولم يستطع البقاء فيها إلا أياماً قلائل ، ثم ملكه الضجر وأحاطت به الوحشة ، وضاعت في وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحاً عن نفسه وتفرجاً من كربته ، فأذن له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها وأخذ ينتقل في أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير به الضجر إلى غيره ، فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده .

فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها في نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه ، ومرغريت لا تعلم بشيء من ذلك ؛ فحزنت لحبوبة أملها حزناً شديداً ، ودب اليأس في قلبها ديب الموت في الحياة ، ووقع في نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من هذه الأمانة التي بقيت في يدها من بين جميع أمالها الضائعة .

سحّرها ونحرها ، ثم تأوي إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تزل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لمثلها باحتمال مثله ، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حيناً من الدهر ، فهزل جسمها وشحب لونها وغاض ماء ابتساماتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأن نفسها عن شأن المراكز فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها . ثم اختلف عليها من بعده الأخلاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها ؛ فكسدت سلعتها في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطئ أقدامها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلّت من ذكرها وحديثها ، وأعوّزها المال إعوّازاً شديداً ؛ فمدّت يدها إلى ما كان باقياً عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يف بدينها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين ، فأرسل إليها قليل منهم القليل منها ، فلم يغن عنها شيئاً .

واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافتهم عنها حيناً ثم عجزت ، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها وأثاث بيتها ورياشه ، ولؤموا في مقاضاتها لؤماً ضاعف حزنها ومرضاها ، وقضى على بقية ما كانت تضمّره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها ، فنسيت العالم خيره وشره والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعّد به ليلها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة مذ فارقها ولا كتب إليها ؛ فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منصبتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

« تعال إليّ يا أرمان راضياً كنت أو غاضباً ؛ فإنني مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتي ، لأفضي لك

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

«أرمان:

« لم تكتب إليّ ولم تأتني ، كأنما ظننت أنّي أريد أن أستعيد معك عهد الماضي ، وأين أنا من ذلك العهد ! فلو رأيته لرأيت امرأة ذائبة مدبرة لا تصلح لشأن من شؤون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك ، أن أراك بجانب فراشي في ساعتني الأخيرة ؛ لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبوري .

« ما أنا بخائنة يا أرمان ولا خادعة ، فإن الرسالة التي رأيته في يدي يوم عدت إليّ من مقابلة أبيك ليست رسالة المركز كما ظننت ، بل رسالة أبيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة ؛ وهذا نصها الذي لا يزال عالقاً بذهني حتى الساعة :

« » سيدتي :

« » أريد أن أقابلك غداً في منزلك في الساعة العاشرة صباحاً في شأن خاص بي وبك ، وأريد ألا يكون « أرمان » حاضراً تلك المقابلة ولا عالماً بها ، ولا بأنني أرسلت هذه الرسالة إليك ، ولي من حسن الرأي فيك ما يطمعني في أن يكون ما سألتك إياه سرّاً بيني وبينك حتى نلتقي . والسلام .»

« دوفال »

« فلما قرأتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرت بما وراءها ، بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنت امتنعت عليه حتى يش منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابي ؛ فحدثني نفسي أن أرفض مقابلته ، وأن أكشفك بكل شيء ، ثم

فتنكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه خيراً ولا شراً ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شيء تنكره ولا تعرفه ؛ فربما دخل عليها طبيبها وهي في أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألماً ، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم في فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون !

وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى بوجيفال فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الزاهية ، وكان لا يزال باقياً على الصورة التي تركته عليها يوم فارقه ومرت بغرفته وقاعاته ، وجلست في كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبلت جميع آثاره ويقاياه ، ولثمت الكأس التي كان يشرب بها ، والزهرة التي كان يحبها ، والقلم الذي كان يكتب به ، والكتاب الذي كان يقرأ فيه .

فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، فربما طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته في نيس ، أو يشها ما يضمهر لها في نفسه من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ ، وتستشعر في نفسها لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون في جنات النعيم ، ثم تفتح عينيها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تعود إلى بيتها في باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي أرمان في مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعها !

له من السماء ذهباً يطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم . أما أنا فأني في حاجة إلى ولدي ؛ لأنني لم أرزق ولدًا سواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مأرب الحياة .»

« فسرت كلماته في نفسي سريان الحمى في عظام المحموم وخيل إلي أن هذا المائل أمامي لا يحدثني ، إنما يجرعني السم بيده تجرعًا ، وشعرت بدلة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجللت واستمسكت ورددت نفسي على مكروهاها ، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : « لا يا سيدي ، نعم إنني أحب ولدك ، ولكني لا أطعم فيه ، ولو كان الذي يعنيني منه الطمع في ماله لفارقت منذ ثلاثة شهور ، أي منذ خلت يده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقت قبل ذلك لأن الذين لا يزالون يساوموني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغبة . على أن ولدك لم ينفق عليّ من هذا المال الذي تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفسه ؛ ولو استطعت أن أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكنني كنت أضن به أن يداخل نفسه ما يريها أو يؤلمها ؛ فقبلت منه هداياه الصغيرة التي كان يقدمها إليّ من حين إلى حين إرعاء عليه ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي ، كما نقول ، لأصبحت غنية موفورة ، لا أحمل همًا من هموم العيش ، ولا أعاني من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم !

« فأني ، لو تبينت أمري ، امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلالي ومركبتي وأثاث بيتي ، وليتها كانت خالصة لي ، فقد امتدت يد الضرورة إليها منذ عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سلعة في يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتي به الغد . وإن أبيت إلا أن تعرف ذلك بنفسك فسأطلعك على ما

استحييت من نفسي ، وأكبرت أن يعتمد عليّ رجل شريف كأبيك في كتمان سر بسيط كهذا السر فلا يجلدني عند ظنه ، وطمعت في أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله مني ، فكتمت أمر الرسالة ، وكتمت ما في نفسي منها . ولم أكن كاذبة في شكاتي وألمي حينما قلت لك في تلك الليلة : « إنني لا أستطيع البقاء بجانبك . » وسألتك أن تقودني إلى مخدعي ؛ فقد قضيت في فراشي بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها في جميع ما مر بي من ليالي الهموم والأحزان حتى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته ، ولكنني خفت أن يزورني فيراك عندي فأصغر في عينيه ، ولا أشد عليّ من ذلك .

« وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصل إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه ، فاستأذن عليّ فأذنت له ، فدخل فرأيت في عينيه جمرة من الغضب تلتهب التهابًا ، فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يجيني بيده ، ولا بلسانه .

« وكان أول ما استقبلني به قوله : ماذا تريد أن تصنع بولدي أيها السيدة ؟ وظل ناظرًا إليّ نظرًا جامدًا ساكنًا لا يطرّف ، ولا يختلج ! فعجبت لمدخله الغريب ، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضت في نفسي امتعاضًا شديدًا حتى كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : « تذكر يا سيدي أنك في منزلي ، وأنني لم أدعك إلى زيارتي ، بل أنت الذي دعوت نفسك بنفسك . »

« ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه ويقدمه حتى دنا مني ، وألقى عليّ تلك النظرة التي اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء العاهرات ، وقال : « لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان في يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك ، وقد أرسلت إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في استطاعته أن يمدك بأكثر مما أمك ، ولا في استطاعتي أن أستنزل

٩٩ مذكرات مرغريت

لي فلم أستطيع ، فأصبحت في منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعم بعيش النساء الشريقات ، ولا مينة القلب أسعد سعادة الفتيات الساقطات . وقد وجدت في ولدك الرجل الوحيد الذي أحبني لنفسي ، ومنحني من وده وإخلاصه ما ضن به عليّ الناس جميعاً ، فأنسيت به أنسا أنساني سقوطي وعاري ، وحجب إليّ الحياة بعدما أبغضتها وبرمت بها ، وكذت أقضي على نفسي بالخلاص منها ، فلا تخزمني جواره ، ولا تفرق بيني وبينه ، فإنك إن فعلت أشقيتني وبرحت بي ، وملأت حياتي همًّا وكمدًا ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبني سعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلي .

« ماذا يكون مصيري غداً إذا أصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا صديق لي ولا معين ؟ أأعود إلى حياتي التي أبغضتها وأخشأها ، فأعود إلى جرائمي وأثامي ؟ أم أقتل نفسي بيدي فراراً من شقاء الدنيا وبلائها ، فأختم حياتي بأقبح مما ختم امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فامدد إليّ يدك البيضاء ، وأنقذني من هذه الهوة العميقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذني منها سواك .

« أنا أعلم أنك في حاجة إلى ولدك ، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكني أعلم أنك شقوق رحيم لا تأبى أن تتصدق على امرأة مريضة بائسة مثلي بساعات من السعادة تتعلل بها في مرضها الذي تكابده حتى يوافيها أجلها . لا أسألك يا سيدي مالاً ولا نسباً ولا عرضاً من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معي ، فإن في بقاءه بقاء حياتي وسعادتي ، فنصدق بهما عليّ إنك من المحسنين .»

« وهنا شعرت كأنه يتحرك في كرسيه فخفق قلبي خفقاناً شديداً ، ثم رفع رأسه ونظر إليّ نظرة أهدأ نارا وأقصر شعاعاً من نظراته الأولى ، وقال : « ومن أين تعيشان ؟ »

« قلت : « عندي بقية من جواهري وحلاي سأبيعهن وأعيش بثمرتها معه في زاوية من زوايا باريس

كتمته عن الناس جميعاً حتى عن ولدك .» ثم قمت إلى خزانة أوراقي ، ففتحت منها بالصكوك والوثائق المشتتة على بيع ما بعث من جواهري وخيولي وأثاث بيتي ورهن ما رهنت منها ، فظل يقلبها بين يديه ساعة ، ويتأمل في تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إليّ مطرفاً صامتاً لا يقول شيئاً . ومد يده إلى كرسي بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله ، وطارت عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلمه من قبل .

« فعدت إلى حديثي معه أقول : « على أنني يا سيدي غير شاكية ولا ناقمة ، فقد مر بي من نوب الأيام وأرزائها ما محا من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة وأنساني جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام ، وسواء لديّ الفقر والغنى ، والحلّى والعطل ، وسكنى القصر وسكنى الكوخ ، وركوب المركبة وركوب النعل .

« وكل ما أرجو من حياتي وأضرع إلى الله وإليك فيه ، أن أرى أرمان يقاسمني همّ الحياة وبؤسها ، ويعينني على شدتها ولأوائها حتى يقضي الله في أمري بما هو قاض .

« فإن كان في الأجل فسحة قضيتها في شكرك وحمدك ، والإخلاص لك في سري وعلني ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ساعتني الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضارعة مبتهلة أن يبارك لك في نفسك ، وفي أهلك ، وأن يسبل ستره الضافي عليك في حاضرك ومستقبلك !»

« ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت في تلك الساعة عن أن أملك من دموعي ما كنت مالكة من قبل ، فظلت أبكي ، وأقول :

« رحمك يا مولاي ، إنني امرأة بائسة مسكينة قد قضت عليّ بعض ضرورات العيش في فاتحة حياتي أن أقف على حافة تلك الهوة التي يقف على رأسها النساء الجائعات ؛ فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت نفسي على الرضا بتلك الحياة التي قدرها الله

أن يقول الناس إن خلية أرمان دوفال قد باعت
جواهرها وحلاها التي أهداها إليها عشاقها الماضون
لتنفق ثمنها عليه .

« سامحيني يا بنيتي ، واغتفري لي حذتي
وخشونتي ، فإن شديداً جداً على والد شيخ مثلي أن
يرى ولده الذي وضع فيه كل آمال بيته يهوي أمام
عينيه في هذه الهوة السحيقة التي لا قرار لها دون أن
يطير قلبه خوفاً واهلاً .

« إنه مذ عرفك نسيتي ونسي أخته ، فلا
يذكرني ولا يذكرها ، وقد مرضت منذ شهور مرضاً
مشفراً فكتبت إليه أن يأتي ليعودني فلم يفعل ، ولم
يرد على كتابي ، أي أنني كنت على وشك أن أموت
ولا أراه ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبوري بحسرة لم
يحمل مثلها في صدره راحل عن الدنيا من قبلي !

« أنت صادقة يا سيدتي في قولك إنه لم ينفق
عليك جميع ما كان بيده من المال ، لأنني علمت
بالأمس أنه قامر منذ عهد قريب ، وخسر في مقامره
كثيراً ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئاً من ذلك
فما يؤمنني إن أنا تركته في هذا البلد ألا يستمر في
هذه الغواية الجديدة التي خطا الخطوات الأولى في
طريقها ، ولا يخسر في بعض مواقفه خسارة عظيمة
لا أجد لي بداً من أن أخذ بيده فيها ، فأقدم إليه ذخر
شيخوختي ، ومهر ابنتي ، فهلك نحن الثلاثة في
يوم واحد ؟

« من أين لك يا بنيتي أنه إن طال عهده بك
لا يملك ، ولا تمتد عينه إلى امرأة سواك ، فتكون
فجيعة في غداً شراً من فجيعة في اليوم ؟ ومن
أين له أنك لا تضيقين ذرعاً يوماً من الأيام بعيشة
الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولى ، حياة
الأنس والاجتماع ، والضوضاء واللحج ، وهو فتى
غيور مُستَطار ، فرما أنفت نفسه أن يزاحمه فيك
مزاحم ، وربما امتدت يده بشرٌ إلى ذلك الذي
يزاحمه ، فتنازلا ، فأصابته من يد منازله ضربة تقضي
على حياته وتفجعني فيه ؟

« كيف يكون موقفك يا سيدتي غداً إن نفذ
فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاقل

عيش الفقراء المقلين ، لا يرانا أحد ، ولا يشعر
بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نغنى بها عن
كل سعادة في هذا العالم وهناءً .»

« قال : « ذلك هو الشقاء بعينه ، فإن الحب
نبات ظلي تقتله شمس الشقاء الحارة ، وكل سعادة
في العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى
ظلاله فهي كاذبة لا وجود لها إلا في سوانح
الخيال .

« أنتما اليوم سعيدان لأن في يدكما مالا
تعيشان به ، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق
هذه الهضبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ،
فإذا خلت يدكما من المال ، وحرمتما هذا النعيم
الذي تنعمان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن
شأن الحب ولذائده ، وسرى إلى نفسيكما الضجر
والملل ، وربما امتدت تلك السامة بينكما إلى أبعد
غايتها .

« إن للحب فنوناً من الجنون ، وأقيح فنونه أن
يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث
الأيام ، ولا تنال منه الصروف والغير ، ولو عقلا لعلما
أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها
الطائرة ، تأتي به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب
به المثل مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها ،
فإن النفس تطلب حياتها وبقاءها ، قبل أن تطلب
لذائدها وشهواتها !

« أنا أعلم من شأن ولدي يا سيدتي ما لا
تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة
النكداء التي تظنين ، وهو فتى فقير لا يملك من
الدنيا إلا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا
تغني عنه ولا عنك شيئاً . وما أنا بذئ ثروة طائلة
أستطيع أن أحفظ له بها زمناً طويلاً هذا العيش السعيد
الرغد الذي يعيشه اليوم في باريس ، فلم يبق بين
يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو ما لا أرضاه له ولا
يرضاه لنفسه . واسمحي لي يا سيدتي أن أقول لك :
إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون عليّ وعليه من

مذكرات مرغريت ١٠١

كثيرة ، وتبكي كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستيقظة ، فعلمت موضع دائها ، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لي سبباً غريباً لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فإن أذنت لي حدثتك حديثه .»

« فحقق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحسست بالشر يدنو مني رويداً رويداً ، إلا أنني تماسكت ، وقلت له : « نعم أذن لك يا سيدي .» قال : « لقد أجابني الرجل على سؤالتي بقوله : إن أسرتي أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلاً من جميع وجهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك في باريس ، إنه يعيش منذ عهد طويل امرأة موسماً معروفة هناك معاشرة تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمح لنفسني أن يكون مثل ولدك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وقسوتها^(١) صهراً لولدي ولا عاراً على بيتي . فاستقبلت خشونته وجفائه بصبر واحتمال ؛ لأن الخوف على ابنتي شغلني عن الغضب لنفسي ، وقلت له : « أوافقك أنت مما تقول ؟» فأدلى لي بما أقنعني ، فلم أربدأ من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبيت في أمر الخطبة شيئاً حتى أسافر إلى باريس وأعود منها .

« ذلك ما حملني على المجيء إلى باريس . وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعاً حتى عن ولدي أرماني ؛ فانظري ماذا تأمرين ؟»

« وهنا أطرق برأسه طويلاً ، ثم رفعها ، فإذا عبرة تترقق في عينيه ، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسيت مصابي بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة لا يقول لي شيئاً ، ولا أدري ماذا أقول ، حتى هدا نأثره قليلاً ، فمد يده إلى يدي فأخذها بين ذراعيه ، وعاد إلى حديثه يقول :

« مرغريت ، إن حياة ابنتي بين يديك ،

المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلام نفسك ولواعجها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟»

« ثم ارتعش ارتعاشاً شديداً ، وظل نظره حائراً مضطرباً كأنما يخيل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذي يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ، ونظر إلي نظرة هادئة مملوءة عطفاً وحناناً ، وأنشأ يقول :

« مرغريت ، أنت أعظم في عيني مما كنت أظن ، وأكرم نفسك من أولئك النساء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفئدة الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، ولو قسم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاه .

« لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حياً كتمانك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك ، واحتفاظك بسره في ساعة تنفجر فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكوتك وإغضاءك - وأنت في منزلك ، وموضع أمرك ونهيك - أمام حداثتي وخشونتي وجنون غضبي ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدي - من حيث لا يعلم - وفاءً له وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها !

« لقد كانت ضحيته التي قدمتها لولدي بالأمس عظيمة جداً ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحية أعظم منها لابنتي ولا معتمد لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

« لقد تركت « سوزان » ورائتي تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض ؛ لأن خطيبها الذي تحبه حباً جماً قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالاً عظيماً ، ووصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات

(١) الفسولة: الانحطاط وضعف المرأة .

« ارحمني يا مرغريت ، واشفقي على ضعفي وشيخوختي ، وتصدقني عليّ بمستقبل ولدي ، وحياة ابنتي .. »

« ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فألقى رأسه على كرسیه الذي كان جالساً عليه وانفجر باكياً . »

« آه لو رأيتني يا أرمان في موقعي هذا ، ورأيت لوعتي وتفجعي ودموعي المنهمرة على خديّ انهماك الديمة الوطفاء رحمة بأبيك وإشفاقاً عليه ! »

« لقد كان يتكلم فتسيل مدامعي مع حروفه وكلماته ، كأنما هو ينشد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها ! »

« إن العظيم عظيم في كل شيء حتى في أحزانه وآلامه ، فلقد كان يخيل إليّ وأبوك يبكي بين يدي وينتحب أن كل دمة من دمعه تستنزل غضب الله على الأرض ، وكل زفرة من زفراته تلتهب بها آفاق السماء . »

« لقد أكبرت في نفسي جداً أن يجثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة ساقطة مثلي ، واستحييت من ذلك حياء تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمي فسُخِطَ فيها أبد الدهر . »

« وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفي مصابه ، وفي قصته التي قصها عليّ ، وفي الشأن الذي لي فيها ؛ فعلمت أنني قد أصبحت شؤماً على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أبيها وابنها وابنتها ، فنقلت نفسي عليّ ، وسمح منظرها في عيني ، حتى خيل إليّ أنها لو كانت حاضرة بين يدي لرميت بها من حائق إلى حيث لا يجمعني وإياها مكان بعد اليوم . »

« ثم قلت في نفسي : « إن حياتي الماضية التي قضيتها في الشرور والآثام قد قطعت عليّ طريق الشرف ، فلا حق لي في أن أطمع في حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذي اقترفته في ماضيّ قد أثلثته وحدي ، فلا بد لي أن أستقل بعبئه دون أن ألقىه على عاتق أحد غيري ، فإن

فامنجيني إياها تتخذي عندي يدك لا أنساها لك حتى الموت . »

« إنني لا أستطيع أن أراها نموت بين يدي . ولو تم ذلك لمُتْ عليّ أثرها حزناً وكمدًا ، وضمناً في يوم واحد قبر واحد ؛ لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقيًا في نفسي حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابنتها وصورتها الباقية عندي من بعدها . »

« إنني أحبها حباً جماً ، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ؛ فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت ! »

« إنك لا تعرفني يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها ، ولقديتها بما تستطيعين رافة بها وإشفاقاً عليها . »

« إنها جميلة جداً ، وبيضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طهارة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحي لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة ؛ فإنها لا تستحق الشقاء . »

« إنها اليوم تعيش بالأمل الذي أودعته قلبها يوم سفري ، فإن عدت إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل والقضاء النازل ! »

« إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصه في حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعي ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحي حبك من أجله ، ومن أجل مستقبله ، فلا تفعلي ذلك من أجله ، فافعليه من أجلي . »

« لقد قلت لي إنه الرجل الوحيد الذي أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبادليه هذا الحب ، بل كوني خيرًا منه فيه ، وليكن عزائك عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيدًا من بعدك ، وأنتك قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخًا حزينا . » وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط على كرسیه بين يدي ، وقال بَنَمَة المشرف المحتضر :

مذكرات مرغريت ١٠٣

لوعتي مثل أن أرى بين الناس فتاة محرومة السعادة مثلي .

« إنني أحب وهي تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ، فلأمت أنا فداء عنها ، لأنها أحتك ، ولأنها لم تقترب في حياتها ذنباً تستحق بسببه الشقاء .

« وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هائبة من بعدي ، وتراعى لي شبحها ، وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل ، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبي فرحاً وسروراً وهان عليّ كل شيء في سبيل غبطتها وهنائها .

« نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدة جداً ، لا يقوى عليها قلبي ، ولكني سأحملها بصبر وسكون ، لأن أباك سيصبح راضياً عني ، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سر تضحيتي ، فحجني فوق ما أحببتي ! ولأن أحتك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحجها ، وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان .

« جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضي ذنوبي وآتيها ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدي !

« قمت من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعاً ، ومشيت إلى أبيك كما يمشي الحائض^(١) إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت بيده ، فاستفاق من غشيته ونظر إليّ ذاهلاً مشدوها ، فقلت له : « أعتقد يا سيدي أنني أحب ولدك ؟ » قال : « نعم . » قلت : « حباً هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتل ؟ » قال : « نعم . » قلت : « وأن هذا الحب هو كل آمالي وسعادتي ، وما أملك في الحياة ؟ » قال : « نعم يا بنتي . » قلت : « قد ضحيته من أجل ابتك فعد إليها ويشرها بسعادة المستقبل وهنائها ، وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم

(١) الحائض: الذي حان هلاكه .

كان مقدراً عليّ أن أموت موت النساء الساقطات ، فذلك لأنني امرأة ساقطة ، أو ألاقى في مستقبل حياتي شقاءً وآلاماً ؛ فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضي وثمرته الطبيعية .»

« هنا ذكرت يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أنا التي سأتولى قتل نفسي بيدي ؛ لأن الطريق التي لا طريق غيرها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته ، أن أفاطعك وأغاضبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة . وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك وسماع ، حتى تنصرف عني انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسي بين فراقك وغضبك في آن واحد . وذكرت أن لا بد لي متى فارقتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضها وأمقتها ؛ لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتي اليوم ، ولأنني في حاجة إلى بسطة من العيش أستعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني . فدارت هذه الخواطر في رأسي ساعة ، وطالت دورتها حتى كادت تغلبني على أمري ، ثم وقع نظري على وجه أبيك المخضض بدموعه فتجلدت وجمعت أمري ومضيت قدماً لا ألوي على شيء مما ورائي .

« لقد كان شديداً عليّ جداً أن أفارقك يا أرمان ، ولكن كان أشد عليّ منه أن أرى أباك يبكي بين يدي ، وأن أكون سبباً في موت أحتك أو شقائها .

« إنني أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس ، ولقد كان يخيل إليّ وأبوك يحدثني عن أحتك وشقائها أنني أراها من خلال دموعي طريحة فراشها ، وهي تمد يدها إليّ ضارعة متوسلة وتقول : أنقذيني يا سيدتي وارحمي ضعفي وشبابي ، فأجد لكللماتها من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأني .

« إنني حرمت في مبدأ حياتي السعادة الزوجية وهنائها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يهيج حزني ، ولا يستثير كامن

الذي تعلم فيه أنني قد أصبحت على حافة قبري أن يأتيني لأراه وأودعه الوداع الأخير ، وأعتذر له عن ذنبي الذي أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة .»

« فنظر إليّ نظرة دامعة ، وقال : « وارجمته لك يا بنيّتي ، إنني أعدك بما أردت ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء .» ثم حاول أن يعرض عليّ شيئاً من المعونة فأبيت ذلك إباء شديداً ، وقلت له : « إنني لم أبع نفسي يا سيدي بيعاً ، بل وهبتها هبة .» فأخذ رأسي بين يديه وقبلني في جبيني قبلة كانت خير جزاء لي على تضحيتي التي ضحيت بها وودعني ومضى .

« فما ابتعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتي ، فجمعت ثيابي وما بقي لي من حلالي ، ووضعتها في حقبيتي ، وسافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبت إلى منزلي هناك فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذي تعلمه . والله يعلم كم سكت من الدموع ، وكم وقف قلبي بين كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتممته ، فأعطيته حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم ذهبت للوفاء بعهد الماركيز .

« أما حياتي مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئاً سوى أن أقول لك : إنه لم ير في المرأة التي كان يتخيلها ، ويعني نفسه بها ، ولم أر فيه الرجل الذي يؤنسني ويخلط نفسه بنفسه ، فافترقنا ، فأصبحت لا أعرف لي في العالم صديقاً صادقاً ، ولا كاذباً .

« هذه قصتي يا أرمان كما هي ، وهذا ذنبي الذي أذنبته إليك . فهل ترى بعد ذلك أنني خائنة أو خادعة ؟

« قلبي يحذني أنني سأموت قبل أن أراك ، وأملّي يخيّل إليّ أن ما في نفسك من المودة عليّ لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وأنتك ستعود إلى باريس في الساعة التي ينعاني لك فيها الناعي ، لتزور قبر تلك المرأة المسكينة التي تولت سعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا فارغة اليد من كل

ترك في يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك ، تموت الآن من أجلك ، فأسألك الله لها الرحمة والغفران .

« فتهلل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضي بها إليّ ، فأنساني سروره واعتباطه ألم الضربة التي أصابت كبدي ، واستحال حزني واكتئابي إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم ير في وجهي في تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واعتباطه .

« وهنا شعرت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا «برودنس» تشير إليّ بيدها . فذهبت إليها فأعطتني كتاباً جاء به البريد فقرأت عنوانه ، فإذا هو بخط الماركيز «جان فيليب» فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، وقع في نفسي أن الله قد أوحى إليّ بما أفعل . فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبي كأنني أخاف أن يعرض لي في طريقي ما يزعزع عزيمتي ، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه في بطاقة صغيرة هذه الكلمة : « سأعشى عندك الليلة .» ثم أعطيتها برودنس لتلقيها في صندوق البريد .

« وعدت إلى أليك فوجدته حيث تركته ، فقلت له : « إن أرمان لا يعلم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين تلقاه ، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لايشك في أنني صاحبة الرأي فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غداً أنني قد اتصلت برجل غيره ، فيرى أنني قد خنته وغدرت بعهده ، فلا يجد له بداً من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه مني ، وربما تألم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيلى حبي في قلبه ، كما يلى كل حب في كل قلب .

« غير أن لي عندك طلبة واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لي بها ؟» قال : « نعم أسمح لك بكل شيء .» قلت : « إنني مريضة مشرفة ، وإن العلة التي أكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان في اليوم

مذكرات مرغريت ١٠٥

أنس بأحد في العالم سوى نفسي ، ولا آنس بنفسي إلا لأنني أستطيع متى خلوت بها أن أسألكها عنك فتذكرني بك وبذلك الأيام السعيدة التي قضيتها معك في بوجيفال ، وذكرى تلك الأيام هي العزاء الباقي لي عن جميع ما خسرت يدي .

« ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التي أكابدها ، فلقد تمر بي ساعات أعتقد فيها أن الألم الذي أكابده إنما هو ألم النزع ، وأنت في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، فإذا استفتت قلت في نفسي : هذا ألم المرض ، وقد عجزت عنه ، فمن لي باحتمال ألم الموت ؟ »

« علي أن نفسي تخدني أحياناً أنه إن قدر لي أن أراك بجانبني في يوم من الأيام برئت من مرضي ، وتراجعت نفسي وعدت إلى راحتي وسكوني ، فهل يقدر لي الله ذلك ؟ »

« لا أعلم ؛ فالمستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد . »

٢٤ يناير ١٨٥١

« لم أفارق سريري منذ أيام طوال إلا صباح هذا اليوم ، فجلست قليلاً بجانب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة العامة ، فوق نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين مغتبطين ، ولم أر بينهم من وقع نظره إلى نوافذ غرفتي مرة واحدة كأنما يمرون ببيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل . »

« ما أشد وحشتي ! وما أضيع صدري ! وما أثقل هذا الجدار الذي يدور حولي ! »

« لا أطيق النظر إلى سريري ؛ لأن نفسي تخدني أنه سيكون عما قليل سلم قبري ، ولا الوقوف أمام مرآتي ؛ لأنها تخدني عن نفسي أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشراف من نافذتي لأنها تذكرني بحياتي الماضية السعيدة التي حيل بيني وبينها ، فأين أذهب وكيف أعيش ؟ »

« لا أكل إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلا منظرًا متكرراً ، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخادمتي حينما

شيء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها .

« فهأنذا أكتب هذه المذكرات ، وأتركها لك عند برودنس لعلك تقرأها في مستقبل الأيام ، فتتأمل إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة ، فتصدق ما فيها وتعفو عني ، فيبتر عفوك ظلمات قبري ، ويؤنس وحشة نفسي . »

٣ يناير ١٨٥١

« أين أنت يا أرمان ؟ أنت بعيد عني جداً ، بعيد بجسمك وبقلبك ؛ لأنك لم تهمل كتابي الذي كتبه لك ودعوتك فيه لزيارتي وسماع اعترافي الأخير ، إلا لأن ما كان في نفسك من العتب والموجدة عليّ قد استحال إلى نسيان وإغفال ، فأصبحت لا تذكرني كما يذكر المحب حبيبه ، ولا تعطف عليّ كما يعطف الصديق على صديقه ، فليكن ما أراد الله ولتدم لك تلك السعادة التي تنعم بها بين أهلك وقومك ، فإنني غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شيئاً ، ولا حاملة لك في نفسي إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما تأتي ، وما تدع . »

« لي عدة أيام لم أر فيها أحداً من الناس ؛ لأن الطبيب منعني من الخروج ، ولأن أصدقائي الذين كانوا يعرفونني فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتي بإرسال بطاقتهم إليّ مع خادمتي ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى أذن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحاً وسروراً ، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين ! »

« ولا أدري لِمَ لا يقطعون بطاقتهم كما قطعوا زيارتهم ؟ فإن كانوا يظنون أنهم سيرونني بينهم في مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلح للمعايشة والمخاطبة كما كانوا يعهدونني من قبل ، فهم في ظنهم مخطئون . »

« لقد أحسنوا فيما عملوا ؛ فإنني أصبحت لا

كُتبت إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه ، وأشكو له ما نالته يد الأيام مني وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عليه أن يأتي لزيارتي ، ففعل بيكي عندما رأي ، ولا أدري هل بكانني أو ذكر عند رؤية مصرعي مصرع ابنته الأخير فبكاه ، ثم قضى بجانب فراشي ساعة مطرقاً صامتاً لا يحدثني إلا قليلاً ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك في يد برودنس ضمة أوراق ، استبقت بعضها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر .

« لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن الطبيب ما زال يلح على جسمي بالفحص حتى أواهه واستنزف دمه ، فأصبحت لا أشرك حركة إلا شعرت بألم عظيم . »

٢ فبراير ١٨٥١

« إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهنؤها ، فقد وصل إلي من أبيك كتاب هذا نصه :

« سيدتي :

« إلي أتوجع لك توجعاً شديداً ، فقد علمت بالأمس من بعض الوافدين إلى «نيس» أنك مريضة مرضاً شديداً منذ شهرين ، وأنت لا تخرجين من منزلك إلا قليلاً ، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيراً بما قاسيت من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي . وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يوماً وأصبحت هائلة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وإنها وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصة التي نعلمها شيئاً فقد قلت لها : إن بعض الناس - ولم أسمه لها - قد ضحى بنفسه وبسعادته في سبيل سعادك وهنائك ، فلا تتركي الدعاء له في جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة ، فهي لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها . »

« أما الكتاب الذي أرسلته إلى أرماني في أوائل الشهر الماضي فلم يصل إليه إلا اليوم ؛ لأنه منذ فارقك وسافر إلى «نيس» لم يستطع البقاء فيها إلا

يسألها عني صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسئمت ، وأصبحت أشعر أن نفسي سجنينة في صدري ، سجن جسمي في غرفتي ، وربما مرت بي ساعات يقف فيها ذهني عن التفكير وخطري عن الحركة ، وينقطع ما بيني وبين يومي وأمسي وغدي وكل شيء في الحياة حتى نفسي .

« السعال يهدم أركان صدري هدماً ، والنوم لا يلج بعيني إلا قليلاً والطبيب يعذبني بمشارطه وضماذاته ^(١) عذاباً أليماً ، وكل يوم أشعر أن نفسي يزداد ضيقاً ، وبصري يزداد ظلمة ، وأن الحياة تبعد عن ناظري شيئاً فشيئاً ، حتى أكاد أحسبها شبحاً من الأشباح النائية فمتى ينقضي عذابي ١٩ »

٣٠ يناير ١٨٥١

« سمعت صباح اليوم لجباً كثيراً في فناء المنزل ، فسألت برودنس : « ما الخبر ؟ » فذهبت وعادت إلي تبكي ، وتقول : « إنهم يحجزون أثاث المنزل ياسيديتي . » فقلت : « دعهم يفعلوا ما يشاؤون . » وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مندفعين متصايحين ، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احتراماً لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوته لإشفاقاً على المريضة الملعوبة . فمشوا يسجلون كل ما وقع نظرهم عليه ، وخفت أن يسجلوا دفتر مذكراتي فأشرت إلى برودنس أن تخفيه عنهم ففعلت ، فحمدت الله على ذلك . ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد الدائنين حجزه ، وقال إنه ثمين ، سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه الحاجز أن القانون يستثني الأسرة وفرشها ، وألقى في أذنه كلمة أحسب أنني سمعته يقول فيها : « إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها ! » ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتي حارساً لا يفارقه ليله ونهاره .

« فكتبت إلى « الدوق موهان » . وهي أول مرة

(١) المشارط : جمع مشارط ، وهو ما يشرط به الجلد لاستفراغ الدم . والضماذات : العصابات توضع على العضو المجرور أو المكسور .

مذكرات مرغريت ١٠٧

تعرفها امرأة محرومة منها مثلي ، فلم أحسدهم على نعمتهم التي آتاهم الله ، بل دعوت لهم ببقائها ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزناً شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارفي الماضين قد مروا على مقربة مني ، ولم يعرفوني ، ورأيت أحدهم ينظر إليّ ، وقد مر بجانب مركبتي نظراً المتخيل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عني ومضى لسبيله ، وقد استقر في نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التي يعرفها .

« فعلمت أنني قد تغيرت تغيراً عظيماً ، وأن مرآتي ما كانت تكذبني حينما تخدثني عن تحولي واصفراري ، واستحالة صورتي ، بل صدقتني كما صدقتني الناس .

« ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجابها فعدت إلى منزلي ، وقد زال من نفسي ذلك الخاطر الذي أحزنني ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أنني سأراك عما قليل .

« وسينقضي بلفائك عهد بؤسي وشقائي .

٧ فبراير ١٨٥١

« ما أحسب أنك مدركي يا أرمان ، فقد بلغت بي العلة منتهاها وأصبحت لا أجد الراحة في قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي ، وكأن حجراً من الأحجار العاتية متمد على صدري يمنعني التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريري إلى مكنتي ، فأمرت برودنس أن تأتني بمجبرتي ودفترتي حيث أنا ، فجاءت بهما إليّ ، فأنا الآن أكتب إليك وأنا في فراشي ، فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟»

١٠ فبراير ١٨٥١

« ألملي في الحياة ضعيف جداً ، ها هو الموت يدنو مني رويداً رويداً ، لم تأت إليّ حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أنني سأموت قبل أن أراك ، إن الموت مخيف جداً يملأ قلبي رعباً وهولاً ، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدي تلك الحفرة الموحشة المظلمة التي لا أنيس لي فيها ولا سمير ، لم أتمتع بالحياة طويلاً

بضعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرق حزيناً مهموماً من أجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التي يقيم فيها ، فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفتها منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتاباً أطلعه فيه على قصتك ، وأقول له إنني لا أرى مانعاً يمنعني بعد زواج أخته من أن أذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيها ما شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك في عهد قريب .

« « أرسلت إليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبلها مني ، وأن تنظري إليها بالعين التي تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذي يحبها ويحلمها ، فإن فعلت أحسنت إليّ بذلك إحساناً عظيماً .

« لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .»

« دوفال »

« فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور في قلبي ، لم أشعر بمثلها مذ فارتكتك حتى اليوم ، فقد علمت أن سوزان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنتك لاتزال تحبني ، وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتيك ، وأنني سأراك عما قليل ، وتلك آمالي في الحياة .

« أما الهدية التي أرسلها إليّ أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أراها ، فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إليّ .»

٣ فبراير ١٨٥١

« استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ، لأن السرور الذي تركه كتاب أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبي إنك اليوم خير منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرجني في مركبتك إلى بعض المتنزهات ساعة ، ثم عودي .

« فخرجت إلى غابات « الشانزليه » فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متلهلين مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما

« لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدي ! »

١٤ فبراير ١٨٥١

« لا تخزن عليّ كثيراً بعد موتي يا أرمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائي ؛ فألقى في نفسي منذ الأمس برد الراحة واليقين ، ومحا من قلبي جميع مخاوفه ووساوسه ، فعلمت أنه قد رضي عني ، وغفر لي ذنبي ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده ، ولا أجزع من الألم ، ولا أبكي أسفاً على الحياة ، فلا يحزنك أمري حين تعلمه ، وعش سعيداً بين قومك ، وأهلك ، وأكرم أباك فهو خير الآباء وأحب أختك فهي أطهر الفتيات ، وأوصيك خيراً ببرودنس فهي فتاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لي ولك ، وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدي . »

« إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحاً أخرى تماثلها وتقابلها ، وتسعد بلقاها وتشقى بفراقها . ولكنه قدر أن تضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى . فذلك شقاء الدنيا ، وأن تهتدي إليها في الحياة الثانية . وتلك سعادة الآخرة . »

« فإن فاتتني سعادتي بك في الأرض ، فسأنتظرها في علياء السماء ! »

وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة ، قد محا الدمع أكثرها فلم يبق منها واضحاً بعض الوضوح إلا كلمة « الوداع » !

بقية المذكرات

بقلم الخادمة برودنس

١٤ فبراير ١٨٥١

« لم تستطع مرغريت يا سيدي ، أن تكتب لك أكثر مما كتبت ؛ لأن الطبيب منعها الحركة ، ولو أرادتها لعجزت عنها . »

وكانت كل سعادتي فيها آمالاً وأحلاماً ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئاً من آمالي وأحلامي .

« ما أحلى الحياة وأمرّ فراقها ، لم أئل منها طائلاً ، ولكني لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الذين يُعمرون في الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا . أما أنا فإنني سأموت في ربيع حياتي ، وسيموت ذكرى في الساعة التي أموت فيها ، وكأني لم أعش في الحياة يوماً واحداً ، وأسفاه علي ما فرطت في حياتي الماضية ، إنني أدفع اليوم ثمن ذنوبي وأثامي أضغافاً مضاعفة ! »

« لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة ، ولا أمدُّ عيني إلى ما تقصر عنه يدي فلم أفعل ، فها أنذا لا أسبغ المضغة ولا الجرعة ولا أجد السبيل إلى العيش على أية صورة كانت . »

« أ هكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتي قريب ، ولا يبكي عليّ صديق ! » هكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامي وآمالي ! »

« آه لو يمهلني الموت قليلاً فربما كنت على مقربة مني ، فأنظر إليك نظرة واحدة ثم أموت . لا أمل لي في ذلك ؛ فقد رأيت طبيبي صباح اليوم يلقي في أذن خادمتي وهو خارج من عندي كلمة ، فسألته عنها فدارت حولها ولم تقلها ، وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة . لا أكاد أبصر شيئاً مما حولي حتى يياض الصحيفة التي في يدي . كنت قبل اليوم أنفث الدم وحده ، والآن أنفث أفلاذ رثتي مصبوغة بالدم . »

« من لي بكأس من السم أشربها جرعة واحدة فأستريح من هذا العذاب الذي يساورني ، ولكن أي فائدة لي من ذلك ، وها هو ذا الموت يمشي إليّ بأسرع مما أمشي إليه ؟ رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت وحدك العالم بمقدار ألمي وعذابي ، فارحمني وهون عليّ أمري ، وامنحني إحدى راحتين . »

بقية المذكرات ١٠٩

به «، فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ؛ فغالبت عبراتي حتى خرجت من الغرفة ، فبكيت ما شاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له اسم المرأة التي يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه وقلت له : « إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين » ، فأذعن بعد لأي وجاء معي فخلا بها ساعة ثم خرج ، فسألته :

« أ يرحمها الله يا سيدي ؟ » قال : « إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين » ، فحمدت الله على ذلك .

« ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى عضواً من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان في صدرها يترجح بين الصعود والهبوط . »

١٥ فبراير - ساعة الغروب

« إن مرغريت تتعذب كثيراً يا سيدي ، وأحسب أنها تعالج سكرات الموت . »

« لم يقاس إنسان في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها . إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تدوب لها حبات القلوب . »

« ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها وأضجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منهما دمعان كبيرتان ، وكأنما أحست بي فاعتنقتني وضممتني إليها ضمّاً شديداً ، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزعها وجهها . »

١٥ فبراير - نصف الليل

« قُضي الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جثتها التي ستذهب غداً إلى قبرها ، تلك غايتها وغاية كل حي ؛ فصبرك على قضاء الله وبلائه ! »

« لقد هتفت باسمك كثيراً يا سيدي في ساعتها الأخيرة ، وكان آخر عهدها بالحياة أن نظرت إليّ نظرة طويلة مملوءة حزناً ودموعاً ؛ ثم حركت أصبعها حركة خفيفة ، وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذي

« أ تذكر يا سيدي ذلك الجسم الغض الناعم ، الذي كان يموج بالنور موجاً ويشرق وراء بشرته إشراق الخمر في كأسها ؟ لقد أصبح اليوم عظماً مجلداً وهيكلًا قائماً لا يساوي ثمن النظر إليه ! »

« وا رحمته لك ! لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشعورها ، وليتهما ماتا معها ؛ فإنه لا يعذبها شيء مثل خواطرها وأفكارها ! »

« لا يدخل من باب غرفتها داخل ، حتى ترفع نظرها إليه تظن أنك قد جثتها ، فإذا دنا منها ورأته أبطقت جفنيها على دمعة تنحدر من بينهما بالرغم منها . »

« إنها لا تتكلم كثيراً فإذا تكلمت كان أول حديثها : « أ لم يأت أرماني ؟ » فإذا أجبتها أن لا ، سألت عن أمر آخر تتلهى به ، أو عادت إلى صمتها مرة أخرى . »

« لقد رابها اليوم أن طبيبها لم يأتها ، فلما أردت أن أعتذر لها عنه لم تصدقني ، وقالت : « الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك بالأمس » ، فسكت ، ولم أعرف ماذا أقول . »

١٤ فبراير ١٨٥١

« أصبح اليوم صوتها ضعيفاً جداً لا أكاد أسمعه ، وأظلم بصورها فهي تنظر إليّ ولا تراني ، وقد أشارت إليّ في الصباح مراراً أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجري منها الهواء متدفقاً ، ولكنه لا يصل إلى صدرها . »

« آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياتي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها ، أو بعض سنات من النوم تأوي إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلّني ويعذبني عذاباً شديداً ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة ! »

١٥ فبراير

« بعد صمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها ، ونادتن بصوتها الخافت الضعيف فدنوت منها ، فقالت لي : « أريد الكاهن فأتيني

الغطاء عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال :
« الوداع يا أعز الناس عندي ! الوداع يا خير فتاة
في الأرض وأشرف روح في السماء ! » ثم أعاد الغطاء
على وجهها ، وتراجع عنها وأذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب ، ولم يمش
وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق
موهان ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقول في نذبه
وبكائه :

« هأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى ، ولا
أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة
بائسات من ضحايا تلك المقادير . »

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ،
وأصبحت مرغريت رهينة قهرها ، وأرمان طريح فراشه
يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الشاكل المفجوع .

ثم اشتد به المرض بعد ذلك ، فلم تر برودنس بدأ
من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر
وحضرت معه ابنته وزوجها ، ولبثوا بجانبه شهراً
يعللونه ويشفقون له ، حتى أبطل ونجا من خطره .

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعوها قبل
سفرهم ، فبكوا حوله بكاء شديداً ، وكانت سوزان
أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي
المرأة التي ضحبت بنفسها في سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوغال إلى ولده ، وقال له :
« أ تغفر لي ذنبي يا بني ؟ »

قال : « نعم يا أبتاه لأنها غفرت لك ذنبك
إليها . » ثم انصرفوا .

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات المسيو
دوغال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت
بين جنبه لوعة معتلجة ، لا يروحها عنه كلما ساورتها
إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها
وزيارة قبرها من حين إلى حين .

كان ملقى بجانبها وقالت : « أرمان » ففهمت أنها
توصيني أن أبلغه إليك ، ثم أسلمت روحها .

« عزيز عليّ يا سيدتي ما لقيت من العذاب قبل
موتك ، وعزيز عليّ أن تموتي ، ولا تجدي بجانبك من
يغمض عينيك ويلقي رداءك عليك سواي ! وفي
سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما
حملت في حياتها شراً لمحسن ، ولا لمسيء ، وذلك
الصدر الرحب الذي كان يسع الدنيا بأرضها وسمائها
فلا يضيق عنها ، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما
أضمر في حياته غير الخير أو الإحسان ، ولا فاض إلا
بالرحمة والحنان . »

بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت ، ثم
أنارت حولها الشموع ، وبعثت إلى الكاهن فجاء
وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه ، ومشت هي إلى
المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى
فرغت منها .

ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شبكاً مائلاً
على باب الغرفة ، فمشت إليه فإذا هو أرمان في لباس
السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة
غريبة هائلة كتلك النظرة التي تسبق صرعات الجنون ،
ثم استردها وألقاها عليها ، وسألها :

« من هذا المسجى على هذا السرير ؟ » فبكت
برودنس ولم تقل شيئاً ، فسقطت حقيقته من يده ،
وجمد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك .

ثم اندفع إلى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقي
بنفسه عليه ، فأدركته برودنس ووقف الكاهن في
وجهه ، وقال له :

« احترم الموت أيها الفتى . » فاختنقت عبراته في
صدره وارتد ارتداداً شديداً وسقط مغشياً عليه .

فلم يستفك إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد
أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى
دنا من السرير ، وقال :

« رحمة بي أيها الناس ، فقد فاتني أن أودعها ،
وهي حية ، فأذنوا لي أن أودعها ميتة . »

فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع

الفضيلة
أول وقصيني

إهداء الرواية

يُعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ،
لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ، ولأن حياة الفتاة جمالها
الذي لا جمال لها سواه ، فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتیان مصر
وفتياتها ؛ ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التي أحب أن أراها فيه ،
وليضعاً حياتهما المستقبل على أساس الفضيلة كما وضعها : پول
وفرجينى .

مصطفى لطفي المنفلوطي

الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسي ، وهي مدينة صغيرة نصف متحضرة ، يتفرّع من يمينها طريق لاجب^(٥) عريض ينتهي بضاحية «بمبلموس» .

وهناك الكنيسة المسماة بهذا الاسم قائمة بمماشيتها المدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزران وسط أقيع فسيح ، ثم الحرجات والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة إلى ساحل البحر ، حيث يرى هنا خليج «تومبو» أي خليج القبر ، وعلى يمينه رأس يسمى «كاب مالبرو» أي الرأس البائس ، ثم الخضم الفسيح بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة ، كأنها السفن السابحة على سطح الماء ، وأكبر ما فيها جزيرة «كوان ديمر» تتهدى بينها كأنها البرج العظيم .

ولا يزال يسمع المقبل على ذلك الوادي حين يدنو منه عصف الرياح الضاربة في بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الأشجار ، ودمدمة^(٦) الأمواج المتوتبة على صخور الشاطئ وهضابه ، حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شيء ؛ فلا يحس إلا صدى ضعيفاً لحفيف سعف النخل ، ولا يسمع إلا وسوسة الأمطار المتساقطة برفق ولين على رؤوس الصخور المساء ، فترسم على جوانبها المكسوة بالطحلب ألوان الطيف^(٧) ، ثم تنحدر عنها متسللة إلى حيث تسقي أحواض الأزهار المهمة ، التي لا تمتد إليها يد ، ولا يقتطفها مقتطف ، ثم تفضي بعد ذلك إلى الغدران والأفنية فتتمدها بالجم الكثير من أمواها ، وإلى خمائل الأشجار ولقائف الأعشاب ، فتتسرب في أحشائها انسراب الأفاعي الرقطاء في بطون الرمال . ولا يرى بين يديه إلا هضاباً شماء قد نبتت في سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الأشجار الباسقة ، التي تعابت أشعة الشمس أوراقها الخضراء المترعرة وتكسوها بما شاءت من ضروب الألوان ؛ ذهبيها وفضيها ، وأرجوانها وناريها .

(١)

جزيرة موريس*

هي إحدى الجزر الإفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة «مدغشقر» ، وعلى مدى غير بعيد من جزائر «سيشيل» ، وهي جزيرة قفراء بلقع إلا قليلاً من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها ، يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوروبيين النازلين بينهم ، ويسخرونهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواها وتقليم أشجارها ، كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها .

يرى المقبل على هذه الجزيرة شرقيّ الجبل القائم خلف عاصمتها «بور لويس» وادياً مستطيلاً مُسَوَّراً يسور طبيعي من الآكام^(١) والصخور ، قد تراءت في وسطه أطلال كوخين دارسين ، لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانها ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما . ويرى الأرض المحيطة بهما مختلفة الألوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء ، مختلفة السطوح ما بين أنجاد^(٢) وأغوار ، وأحافير^(٣) وأخاديد ، ومتعرجات ومستدقات ، إلى كثير من الجداول والغدران القائمة والمتداعية ، كأنما كان يعيش فيها ، قبل اليوم ، قوم يتوكون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها ، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها ، أو رحلوا عن العالم أجمعه .

ولم يكن لذلك الوادي على اتساعه وانفراجه إلا فجوة^(٤) واحدة من ناحيته الشمالية ، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه جبل الاستكشاف ؛ لأنهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة إلى الجزيرة ، ويسفحه تقع مدينة «بور لويس» ، قصبة

* جزيرة موريشيس .

(١) الآكام: جمع أكمة، وهي التل .

(٢) الأنجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض وصلب .

(٣) الأحافير: ما خُفِر من الأرض . (٤) الفجوة: الفتحة .

(٥) اللاجب: الواضح . (٦) دَمْدَمَةُ الأمواج: ضجيجها .

(٧) ألوان الطيف: هي الألوان المنحلة عن أشعة الشمس .

ويعتبره الجميل الأنيق .

ويدأته بالتحية فرفع رأسه إليّ متوسماً وألقى عليّ نظرة هادئة مطمئنة ، ثم رد تحيتي رداً جميلاً ، وكأنما شعر لي بمثل الذي شعرت له به من العطف والود ، فأقبل نحوي باسمًا متلهلاً .

وجلس على صخرة محاذية للصخرة التي أجلس عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه و وضع قبعته بجانبه ، فأقبلت عليه ، وقلت له :

« لعلك تعيش في هذه الجزيرة يا سيدي منذ زمن طويل ؟ »

قال : « نعم طويت فيها رداء شبابي ، وها أنذا أطوي فيها رداء شيخوختي ، وستبرد عظامي غداً تحت صخورها وجنادلها . »

قلت : « هل لك أن تخدني قليلاً عن شأن هذين الكوخين الدارين ، وعمن كان يسكنهما قبل أن تعث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزأوه ؟ »

فوجم قليلاً وظل صامتاً لا يقول شيئاً ، وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألئ غمامة رقيقة من الهم والاكتئاب ، ثم تنهّد تنهدة طويلة ، اختلجت لها أعضاؤه وقال :

« نعم يا بني . إن هذا الوادي الذي تراه اليوم خراباً يباباً ^(٥) ، لا يمر به المار إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعبر ، كان منذ عشرين عاماً روضة غناء ، يعيش فيها أقوام سعداء بأخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ، ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذي تراه اليوم . »

« إن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الأشجان وتستدرف الدموع ، إلا أن أبطالها ليسوا ملوكاً ، ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح والملاعب والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التي تقرأونها ، بل قوم فقراء مغمورون تفتحهمهم

ولا تنحدر إلى قاع الوادي وتنسبط في أرجائه إلا وقت الظهيرة ، فإذا أدبر النهار وطفلت ^(١) الشمس للإياب ، كان منظر الأصيل أبعد منظر رآه الرائي في جمال ألوانه ، وانسجام ظلاله ، ورقة أضوائه ، وتلهّب أفاقه ، وذهاب العين بين أرضه وسماائه في أبهى من الحلة السيّراء ^(٢) والروضة الغناء .

فإذا انحدرت الشمس إلى مغربها خيم السكون على كل شيء من ماء وهواء ، وكوكب ونجم ، واستحال المنظر إلى وحشة مخيفة كوحشة القبور ، لا نائمة فيها ولا حركة ، ولا بارق ، ولا خافق .

* * *

(٢)

الشيخ

كان يلد لي كثيراً أن أختلف إلى هذا المكان الجميل صباح مساء ، وأن أستريح إلى منظره الهادئ الساكن . فإني لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية ، أقلب الطرف بين أرضه وسماائه ، وأفكر في شأن هذين الكوخين الدارين ، وفيما تنطق به آياتهما من العظات والعبر وآثارهما من الأحاديث والسير ، إذ مر بي شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة ، قد نيف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجاء ^(٣) في يده ، ويلبس سراويل واسعة وصيداراً ريفياً بسيطاً ، وقبعة عريضة من الخوص ، كشأن سكان تلك الأصقاع ^(٤) ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على كتفيه ، وقد تلاًلاً وجهه الأبيض النحيف الضارب إلى السمرة بذلك النور الساطع الذي يتلألاً دائماً في وجوه الريفيين الأتقياء ؛ نور البساطة والطهارة ، والنبل والشرف ، فأنست به

(١) طفلت الشمس: أي دخلت في الطفل، أي الأصيل .

(٢) السيّراء: المخططة .

(٣) عصا عجاء: ذات عَجَر، أي عقد في وسطها

(٤) الأصقاع: جمع صقع، وهو الناحية .

(٥) الياب: الخالي، الذي لا شيء فيه .

ويقول:

* * *

(٣)

مدام دي لاتور

في عام ١٧٢٦ قدم هذه الجزيرة فتى من «نورماندي» اسمه «مسيو لاتور» ؛ ليطلب رزقه في هذه الجزيرة المقفرة بعدما أعياه طلبه في فرنسا وعجز عن أن يجد له فيها معيناً حتى من أهله وذوي رحمه .

وكانت تصحبه زوجته وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر ، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها إلى قومها فأبواها عليه ؛ لأنه كان فقيراً مقللاً ، ولأنهم كانوا من المدلين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، فلم يكن مما يهون عليهم أن يصهروا^(٢) إلى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم ، فزوجها سراً بدون مهر وهاجر بها إلى هذه الجزيرة ؛ عله يجد سبيلاً إلى العيش فيها ، فتركها هنا وسافر إلى جزيرة «مدغشقر» ليلتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الأراضي المهجورة فيقتات منها هو وزوجته .

فلم يتح له الحظ الذي أراد ؛ لأنه سافر إلى «مدغشقر» في الفصل الذي يَوتأ^(٣) فيه مناخها ويمتلئ فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة ، فلم يلبث أن اشتكى شكاة ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه بعض الأثاث وشيئاً من المال فتناهبته الأيدي هناك ، كما هو الشأن دائماً في تراث الغرباء من الأوروبيين الذين يموتون بعيداً عن أوطانهم في تلك الجزر النائية ؛ فأصبحت امرأته بعده أرملة مسكينة لا سند لها ولا عضد ، ولا من يعينها على أمرها ، إلا جارية زنجية كانت قد ابتاعها عند

العيون وتتخطاهم الأنظار .

« ومن كان هذا شأنهم لا يحفل بهم أحد من الناس ، ولا يُعنى بسماع شيء من أخبارهم وتواريخهم ؛ لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة من الطريق الذي ألفوه واعتادوه ؛ فهم لا يصدقون أن قوماً فقراء متقشفين يعيشون في أرض فقرة جرداء ، منقطعة عن العالم بأجمعه ، قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريقة الفضيلة والبساطة .»

فأكبرت الرجل في نفسي وأعظمته ، وعلمت أنه يحمل بين جنبه نفساً كبيرة سامية ، تختلف صورتها عن صورة هذه الأسماك الحقيمة التي يلبسها ، وقلت له :

« نعم يا سيدي ، إنني أعترف لك أننا - معشر الأوروبيين - لا نفهم من معنى السعادة إلا ذلك المعنى الذي نقوله ، ولا نحجب بالقصة إلا إذا كان أبطالها أولئك الملوك الظلمة ، والقواد السفاكين ؛ ولكننا نستطيع أن نصغي في بعض الأحيان بلذة وسرور إلى أحاديث الفقراء والبائسين .

« ومهما بلغت القسوة بالقلب الإنساني وغمرت الشهوات شعوره ووجدانه ، فلا بد أن تهب عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الإلهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ؛ فيستطيع أن يعود إلى نفسه قليلاً ، وأن يفهم أن في العالم صنوفاً من السعادة التي لا يعرفها ولا يألُفها ، وربما أكبرها وأعظمها وتمناها لنفسه ودُّ لو طال استمتاعه بها .

« فقص عليّ قصتك يا سيدي ، فما أنا ، لو علمت ، إلا رجل بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طلبها ، من المدن والحواضر ، بين الدور والقصور ، فلعله يجدها في القفر الموحش ، بين الهضاب والصخور .»

فوضع يده على جبينه المغضن^(١) ، كأنما هو يفتش في طياته عن بعض الذكريات القديمة ، أو يستجمع ما تفرق من شواردها ، وأنشأ يحدثني ،

(٢) أصهر إليه: صاهره .

(٣) بيت الأرض توتأ: كثر فيها الوباء .

(١) المغضن: المليء بالتجاعيد .

يحتسب ، وترى له دائماً خيراً مما يرى لنفسه ، أبت
أن تسلمها إلى وحشتها وكآبتها ، فأتاحت لها
صديقة كريمة تؤنس وحشتها ، وتعينها على أمرها .

* * *

(٤)

مرغريت

كانت تعيش في هذه الأرض قبل عام واحد من
حضور «مدام دي لا تور» امرأة صالحة كريمة رقيقة
الحال اسمها «مرغريت» ، وفدت إليها على أثر نكبة
حلت بها في مسقط رأسها «بريتانيا» ، وخلاصتها أن
نبيلاً من النبلاء الاصطلاحيين ، أي الذين اصطلاح
الناس على تلقيهم بهذا اللقب ، نزل ببلدتها
للإصطيفاء بها ، فرأها فأحبها ، وكانت فتاة غريبة
ساذجة تصدق كل ما يقال لها ، فصدقت ما حدثها
به عن الحب والزواج والسعادة والرغد .

كأنما خيّل إليها أن العظماء عظماء في
أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء في مظاهرهم
وأزيائهم ، لا يخلفون إذا وعدوا ، ولا ينكثون إذا
عاهدوا ، فاتصلت به اتصال الزوج بزوجه حينما
وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذن
أبويه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ملأها واجتواها (٣)
كما ملأ الكثيرات من أمثالها من قبلها ، فرحل
عنها فجأة أعظم ما كانت غبطة به وأملأ فيه ، وترك
لها تحت وسادتها شيئاً من المال ، خيّل إليه أنه الثمن
الذي يقوم لها بوفاء ما بذلت من عرضها وشرفها ؛
فجن جنونها ، وهرعت إلى قُرْصَة (٤) البحر التي
علمت أنه سيسافر منها ، فلم تر من سفينة الماخرة
على سطح الدماء (٥) إلا ما يرى الراثي من أعقاب
النجم المغرب (٦) ؛ فبكت إلى ما شاء الله أن تفعل ،

(٣) اجتوى الشيء: كرهه .

(٤) قُرْصَة البحر: محط السفن ، أو الميناء .

(٥) الدماء: البحر . (٦) المغرب: المنحدر إلى مغربه .

حضورها ببعض دريهمات .

ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر
المهاجرين المقيمين في هذه الجزيرة من عون الحاكم
ومساعدته ، أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ ؛
لأنها كانت أجلّ في نفسها من ذلك ، ولأنها لم
يكن يعينها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذي
كان موضع آمالها ووجهة حياتها أن تكون لها صلة
مع أحد من الناس كائنًا من كان .

أكسبها بأسها هذا قوة وجلداً ، وصحت عزيمتها
على أن تعتمد في حياتها على نفسها ، وأن تتخذ لها
قطعة من الأرض تستصلحها بيدها هي وجارتها ؛
علها تجد فيها قوتها ومرزوقها .

والأرض في هذه الجزيرة ، على جذبها وإقفارها ،
لا يعدم أن يجد فيها الإنسان بضع قطع خصبة
صالحة للنماء والاستثمار . ولكنها كانت تريد العزلة
والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم ؛
فتركت المواضع الخصبة الميثاء (١) وأوغلت في
المجاهل البعيدة ، تفتش عن قطعة أرض معتزة في
سفح جبل ، أو بطن غور ، أو وراء منقطع ، لا يطرقها
طارق ولا يمر بها سابل (٢) ، حتى وصلت إلى هذا
المكان الذي نحن فيه ، فأعجبها منظره الهادئ
المنفرد ، وسكنت نفسها إليه سكون الطائر الغريب
إلى العش المهجور .

وكذلك شأن البائسين المنكوبين يشعرون دائماً
بحاجتهم إلى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم
وجلبته ، إلى المعتزلات النائية القصية والمواطن الخشنة
الوعدة ، كأنما يخيّل إليهم أن صخورها وهضابها
قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وأرزائه ،
أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسري إلى
قلوبهم وأفئدتهم ، فيروح عنها بعض ما بها ويملوها
راحة وسكوناً .

إلا أن العناية الإلهية التي تتولى حراسة الإنسان ،
وتمده بلطفها وعنايتها ، من حيث لا يقدر ولا

(١) الميثاء: اللينة السهلة .

(٢) السابل: المار في الطريق المطروقة ، الجمع سوابل وسابلون .

وأعجبها منها إخلاصها وصراحتها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بدءاً من أن تمنحها من بنات قلبها ^(٤) مثل ما منحها ؛ فأفضت إليها بسرها وحدثها حديثها من مبدئه إلى منتهاه ، فقالت لها مرغريت :

« أما أنا يا سيدتي فقد لاقيت عقوبتي التي أستحقها ، بما أسرفت على نفسي ، وفرطت في أمري ، فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة ، لا ذنب لك ، ولا جريرة ؟ »

ثم دعته إلى كوخها الحقيق ، فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة ، وهي تقول :

« أحمذك اللهم ، فقد وجدت لي في هذا المغرب النائي أختاً لم أجد مثلها بين أهلي وقومي ، وما أحسب إلا أن آلامي قد انتهت . »

وكنتم أسكن في ذلك الحين وراء هذا الجبل على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكنني كنت - على بعد ما بيني وبينها ، واعتراض هذه العقبات دوننا - متصلاً بها أزورها ، وأنفقد حالها ، وأرعى لها ما يرعى الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلة لا توجد إلا في سكان القفار المهجورة ، والمغتربات النائية . فلا الجبال الشامخة ، ولا الصحارى الشاسعة ، ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأنما هم يقطنون محلة واحدة ، أو منزلاً واحداً .

أما في أوروبا فكثيراً ما يعيش الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم أو ممر ضيق ، أو ظلة دائية ، ثم هو لا يعرفه ، ولا يحييه ، وربما أنكر وجهه وصورته . وهناك قلماً يستطيع القادم الغريب أن ينزل ضيفاً إلا عند نفسه ، في أحصأ البلاد وأغناها ، وأرغدها عيشاً ، وأصلحها حالاً .

وهنا يجد ساعة نزوله المنزل الرحب ، والمناخ الكريم في كل دار وكوخ ، سواء في ذلك فقراء الناس وأغنيائهم ، وسوقتهم وأشرافهم ؛ كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الأولى ؛ حياة

(٤) بنات القلوب: همومها وأسرارها .

ثم عادت إلى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث إلا قليلاً حتى شعرت أنها تحمّل جنيناً في أحشائها ، فأسقط في يدها ^(١) ، وعلمت أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها ، بعدما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التي هي كل ما تملك العذراء في يدها ، وكل ما تستطيع أن تقدمه مهرًا لزوجها .

فأزمعت الرحيل إلى إحدى المستعمرات النائية لتواري في قاعها السحيق سوائها وعارها ، فوفدت إلى هذه الجزيرة بعد عناء كثير وعقبات عظمى ، واستطاعت بمعونته بعض المحسنين الراحمين أن تتابع لها خادماً زنجياً ، يعينها على أمرها ويساعدها على حراثة الأرض التي أوت إليها ، واستخراج ثمراتها .

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات ، لا تعرف أحداً من الناس ، ولا يعرفها أحد سواي ، وكانت تجلس دائماً على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ، ترضع ولدها وتنسج نسيجها .

فلما وفدت هيلين «مدام دي لاتور» رأتها جالسة في مكانها الذي اعتادت الجلوس فيه ؛ فعجبت لأمرها وأنست بمرأها أنساً عظيماً ؛ لأنها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن في الناس إنساناً له حال تشبه حالها ؛ فندت منها وحيثها ، ثم جلست بجانبها وأخذت تسألها عن شأنها ، فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصروع الذي زلت فيه قدمها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها :

« إن الله لم يظلمني ، ولم يقسُ عليّ فيما فعل ، بل عاقبني على جريمتي التي اقترفتها عقاباً عادلاً شريفاً ؛ فله العتبي ^(٢) معطياً وسالماً ، وله الحمد على نعمائه وبأسائه . »

رثت لها هيلين «مدام دي لاتور» وأوت ^(٣) إليها

(١) أسقط في يده-على صيغة المبني للمجهول-تخبر وندم .

(٢) له العتبي: أي له الرضا .

(٣) أوى له: رزق له وأشفق عليه .

شامخين إلى مصبه في البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة الخضرة والأعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها في فصل الأمطار ، وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف ؛ فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما في الحقيقة قسمان متعادلان ، تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما .

فلما فرغت من تهيتتهما اقترعت بين السيدتين عليهما ، فكان القسم الأعلى نصيب هيلين «مدام دي لاتور» ، والقسم الأدنى نصيب مرغريت ، فرضيت كل منهما بنصيبها ، إلا أنهما أبتا أن تفرقا في مسكنهما وعيشهما ، فرأيت أن أنشي لهما كوخين متجاورين ، يتجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما يتجدان في الكوخ الواحد ، وأن أجعل أحدهما في ذيل القسم الأول ، والثانيهما في رأس القسم الثاني ، فتسكن كل منهما في أرضها ، وكأنها تعيش مع صاحبتها في مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغبطتا بها .

فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال ، واجتلاب الأخشاب من الغابات ، وصنع مواد البناء ، وأنشأت لهما كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الأغصان المتشابكة ، وغرست حولهما خميلة من أشجار اللاتينية تظللهما ، وتقيهما وهج الشمس وغائلة^(٣) المطر .

وهنا صمت الشيخ وأطرق ، ثم رفع رأسه بعد قليل ، فإذا دمعة رقاقة تترجع في مقلتيه ، كلما حاولت أن تسيل أمسكها ، واستمر في حديثه يقول : « نعم بنيتهما وشيدتهما وأنشأت لهما السقوف والأبواب والكوى والنوافذ ، وها أنذا أراهما الآن بين يدي ساقطين متهدمين ، فلا أبواب ولا سقوف ولا نوافذ ولا كوى ، ولا قُطان^(٤) ، ولا سكان .

« وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى في نفسي ، فلا تبرح مخيلتي حتى تذهب معي إلى قبري ، فأبقى على هذه البقايا المائلة من جدرانها وأحجارها ، ليستثير مرأها شجني ويهيج آلامي .

البساطة والسذاجة ، والعيش في الأجواء الحرة المطلقة ، تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التي فطروا عليها من كرم وسماحة ، وجود وإثارة ، وود وإخاء .

وبعد ، فلما سمعت أن جارتى قد نزلت بها ضيفة غريبة ، أتيت إليها أنفقد حالها وأعينها على أمرها ، فإذا أنا بين يدي فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتأكل هالة وضأة من الشرف والذبل ، تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ، ويتراءى في عينيها المتضعضعتين^(١) الدابلتين الأثر الذي يراه الإنسان دائماً في عيون الفتيات المنكسرات ؛ اللذل والانكسار في ميدان الحياة .

وما هو إلا أن جلست إليها جلسة خفيفة حتى ألمت بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتها عن مستقبل حياتهما في هذه الجزيرة ، وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها سعيدتين هائمتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادي مزرعة لهما تقتسمانها بينهما ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادماهما الزنجيان ، فأعجبهما مقترحي ، وعهدا إليّ بتنفيذ ما أشرت به .

وكانت مساحة الوادي نحو عشرين فدانا ، فقسمته قسمين : قسماً أعلى ، وقسماً أدنى ؛ أما الأول فيبتدىء من رؤوس تلك الصخور العالية التي تكسوها السحب أريدتها الشفافة البيضاء ، وتنبعث من خلالها أمواه نهر «اللاتينية» وينتهي عند هذه الفجوة التي تراها أمامك ، ويسموننا هنا «لامبرازير» ؛ لأنها تشبه في شكلها فوهة المدفع ، وتكثر في هذا القسم الصخور والوعور^(٢) التي يتعذر السير فيها ؛ إلا أنه كثير الأشجار والنخيل ، حافل بالينابيع والغدران .

وأما الثاني فيبتدىء من هذا المكان منحدرًا مع النهر الجاري بجانبه إلى نهاية الوادي ، حيث ينحرف النهر بعد ذلك سائراً في رملة ميثاء بين جبلين

(١) المتضعضعتين: الضعيفتين .

(٢) الوعور: الأماكن الصلبة المخفية .

(٣) غائلة: شر . (٤) القُطان جمع قاطن ، أي الساكن .

وفوق رؤوس الهضاب ، وزرع البطاطا في التربة الجافة اليابسة ، وشجيرات القطن في الربوات العالية ، وقصب السكر في الأرض القوية المتينة ، وغرس على ضفة النهر حول الكوخين أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والأفياء^(٢) الظليلة ، ولم يفته أن يزرع لنفسه بضعة شجيرات من التبغ يروّج بتدخينها عن نفسه هموم دهره وآلامه .

وكان يذهب - فوق ذلك - إلى الغابات البعيدة والأحراش النائية ؛ لاحتطاب الحطب واجتلاب أعشاب الوقود ، ويقضي جزءاً عظيماً من يومه في تمهيد الأرض ، وتذليلها ، وتكسير الصخور ، ورسف الحصى ، وإنشاء الممرات والمستندات والجداول والأقنية .

وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضياً مغتبطاً ، لا أعينه عليه إلا بالرأي والإرشاد ؛ لأنه كان يحب سيديته حباً جماً ، ويخلص لهما إخلاصاً عظيماً .

وربما كان للغرام يد خفية في ذلك النشاط الغريب المنبعث في أنحاء نفسه ، كما هو الشأن في أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فإنه كان مغتبطاً كل الاغتباط بتلك الصلة التي نشأت بينه وبين الزنجية «ماري» في العمل ، وبوده لو استحالَت إلى صلة أخرى غيرها أدنى إلى نفسه ، وألصق بفؤاده ، وقد تمّ له بعد عام واحد من انصاله بها ما أراد ؛ فقد سمحت له سيدته بالزواج منها فبنى بها ليلة عيد ميلاد فرجينى ، وسعد بجوارها سعادة لا تختلف في روحها وجوهرها عن السعادة التي يهنأ بها البيض المتمدنون .

وكانت ماري فتاة نشطة حاذقة ، ذكية الذهن ، صناع^(٣) اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت في مسقط رأسها «مدغشقر» العلم ببعض الصناعات اليدوية التي يزاولها الناس هناك ؛ فكانت تجيد صنع السلال من لحاء أشجار القصب ، ونسج المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار اللينة .

(٢) الأفياء: جمع فيء، وهو الظل بعد الزوال ، ينسبط شرقاً .

(٣) صناع اليد: ماهرة في العمل باليد .

وأحزاني ، أو كأن طوارق الحدّثان^(١) التي لا تنبالي أن تعصف بقصور الملوك وصروح الجبابرة وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الأبد ، وقفت وقفة الإجلال والإعظام أمام هذه الأكواخ الحقيمة المشعّنة ، فأبت أن تقضي عليها القضاء كله ؛ إجلالاً لها واحتراماً لذكرى أصحابها الأوفياء المخلصين .

« وبعد ، فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض ، فولدت طفلة جميلة ، كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه ، وسألتني أن أكون (عرايها) وأن أتولى تسميتها كما توليت تسمية ولد صديقتها ، فأشرت على مرغريت أن تفعل ؛ لأنني أردت أن تكون لها أمّاً ثانية ، فسمتها «فرجينى» ، وقالت لأمها :

« سيهب الله ابتك نعمة الفضيلة والعفة ؛ فتحيا حياة سعيدة هاتئة ، فإنني ما فقدت السعادة إلا منذ اليوم الذي انحرفت فيه عن طريق الفضيلة .»

* * *

(٥)

الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاستها بأثرة نشطة ، فأخذت هي وصديقتها مرغريت تعملان في أرضهما بمعونة الزنجي «دومينج» ، وهو رجل كهل قد نيف على الخمسين من عمره ، إلا أنه كان فتى الهمة والعزيمة واسع الخبرة في شؤون الزراعة الجبلية وأساليبها ، فكان يغرس في كل أرض ما يناسبها من البذور والأغراس ، لا يفرق ذلك بين القسمين ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر .

فزرع الذرة في التربة المتوسطة ، والحنطة في الأرض الجيدة والأرز في التربة السبخة ، والقرع والقثاء وما أشبههما من النبات المتسلق حول الصخور

(١) الحدّثان: الليل والنهار، وحدّثان الدهر: نواتيه وحوادثه .

الطبقات والأجناس وعاشرت الناس أخياراً وأشراراً ، وأغلياء ، وأذنياء ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابين ، والصدقة بين المتصادقين ، فلم أر في حياتي منظراً أجمل ولا أبهج ، ولا أحلى في العين ، ولا أوقع في النفس ، من منظر الحب والصدقة بين هاتين السيدتين الكريمتين ، حتى كان يخيل إليّ أحياناً أن نفسيهما قد استحالتا إلى نفس واحدة يحملها جسدان .

وكنت إذا حدثت إحداهما شعرت كأنني أحدث الأخرى معها ، وإذا حدثتهما معاً كنت كأنني أحدث نفسي واحدة ذات صورة واحدة ولون واحد ، فلقد وُحِّدت بينهما الهموم والآلام ، ومازجت بين نفسيهما الوحدة والعزلة والفكرة والرأي ، والحاجة والمصلحة ، والدكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنظقت كل منهما بما نظقت به الأخرى ، وشعرت بما شعرت به ، وفكرت فيما فكرت فيه .

وكأن الله تعالى إذ زوّى (٣) عنهما الأرض الفسيحة ذات الطول والعرض ، وحرهما فيها نعمة العيش الهني ، أبدلهما منها بتلك الروضة الغناء من الحب والإخلاص ؛ لتعيشا فيها ناعمتين هائنتين ، لا تمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجف بأرضهما رجفة .

فإن اضطربت بين جوانحهما في بعض الأحيان نار أقوى من نار الصداقة وأشدُّ منها لهيباً واستعاراً ، لا تلبث أن تهب عليها عاصفة من دينهما وتقواهما ، فتلوي بها عن سبيلها وتطير بها إلى العالم الثاني كما تتطاير الشعلة الملتهبة في جو السماء ، إذا فقدت مادتها التي تتغذى بها على وجه الأرض .

وكان أعظم ما يؤنسهما ويروّح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤية طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان ويعدوان ويظفران (٤) ، وينامان في مهد واحد ، ويستحمان في إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقاً إلى صاحبه إذا فقد مكانه وغاب عنه وجهه ، كأنهما أخوان شقيقان ، بل

وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ، ومناظرته ، وترتيب أثاثه ، وتربية الطيور الداجنة ، ورعي الماشية ، ومزاولة الطبخ والغسل ، فإذا فرغت من عملها حملت ما فضل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب - ولم يكن بالشيء الكثير - إلى سوق المدينة ، فباعته فيها ، ثم عادت ببضعة دريهمات تعطيتها لسيدتيها .

أي أن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعزتان للبن ويضع دجاجات للبيض ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

وكان لا بد للسديتين من أن تعملوا عملاً يعينهما على عيشهما ، ويروح عنهما سامة الوحدة ومللها ، فكانتا تغزلان بياض نهارهما وأحياناً سواد ليلهما على ضوء القمر ، فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ، ولكن مقترراً مكثوداً ؛ فأكلتا الدُّخْنَ (١) والذرة ، وشربتا الماء الرُّنْقَ (٢) ، ولبستا القمص البنغالية الخشن التي يلبسها الإماء في هذه الجزيرة ، ومشتا على الأرض حافيتين غير منتعلتين ، إلا في اليوم الذي كانتا تذهبان فيه إلى الكنيسة في حي «مبلموس» لأداء الصلاة .

وقلما كانتا تذهبان إلى «بور لويس» ، عاصمة الجزيرة إلا في الدرجة القصوى من الضرورة ؛ حياة من نفسيهما وفاراً من أعين الساعرين والهازيين . فإن فعلتا نالهما من الألم والامتعاض ما ينغص عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما .

ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا إلى مزرعتهم ، فإذا أشرفنا عليها ، ورأنا على بعد منظر خادميها المخلصين وهما يهبطان إليهما من قمة الجبل ليساعداهما على صعوده وتسلقه ، وشعرنا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ويمازج أنفاسهما ، نسينا في هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما ، وآلم نفسيهما من خشونة الناس وقسوتهم وفضولهم ، وكبرياتهم ، وكأنما قد نبتنا في هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ، ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها .

ولقد عشت في كل جو وبيئة وخالطت جميع

(٣) زوّى الشيء: طواه وجمعه وقبضه، أي ضيق عليهم الأرض.

(٤) يظفر: يقفز.

(١) الدُّخْن: نبات عشبي جه كالسمسم (٢) الرُّنْق: المكر .

حياة الطفولة ١٢١

وشروها ، وتقالدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ، فلا ينالهما من أذاها شيء .

* * *

(٦)

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الأشياء وغرائبها ، أغرب من تلك الصلة التي كانت بين هذين الطفلين الساذجين الطاهرين ، ولا أعجب من ذلك الامتزاج الذي بين روحيهما ، فإذا شكاً پول شكت فرجيني لشكاته ، وإذا بكاً لا يخفص عبرته ، ولا يسرّي حزنه إلا رؤيتها باسمه بين يديه ، وكثيراً ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشئون ، فلا يدل على ألمها وحزنها إلا بكاءه ونشيجه ، فكانت إذا ألم بها ألم طوت عليه ضلوعها ، وكانت نفسها ضناً به أن تراه باكياً أو متألماً .

وما جثت هنا مرة في شأن من الشئون إلا رأيتهما معاً يحوان ، أو يدركان أو يتداعبان ، أو يتماسكان ، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لعبة ، فلم يكن شيء من الأشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ، فقد كان لهما مهد واحد ينمان فيه معاً عارفين كمادة الأطفال في هذه الجزيرة ، وقد تلازما وتأخذا ، وتوسّد كل منهما ذراع صاحبه ، كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر .

وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلمتا الأخ والأخت ، وهي كلمة جميلة جداً ما خلق الله في الكلم أجمل ، ولا أحلى ، ولا أشرف معنى ، ولا أطرب نغمة منها ، ويزيدها جمالا وحسناً صدورها من أفواه الأطفال الصغار ، كأنها عهد يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غداً ، أو كأنها راية السلام البيضاء ، يرفعونها على

توأمان متشابهان .

وكثيراً ما كانت ترضع إحداهما ولد الأخرى ، وتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدها ، حتى قالت هيلين مرة لمرغريت : « سيكون لكل منا ولدان ولكل من ولدنا أمان » .

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ندي واحد بعدما فجعهما الزمان بأسرتيهما ، وحرهما حنان أبويهما وعطفهما ، سبباً في نموها وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ، كالصنوين الباقيين من شجرتين ، قد عصفت الريح بهما وبأغصانهما ، إذا لُفّح أحدهما بالآخر ، أورقا وأثمرا بأبهى وأجمل مما لو بقي كل منهما في مكانه .

وكان يلذ لأبيهما كثيراً الحديث عنهما ، وعن مستقبل حياتهما ، وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدهما ، كأنما قد بقيت في زوايا قلوبهما بقية من ذلك الألم الماضي ، ألم حرمانهما الهناء الزوجي ، الذي كانتا تتعللان به في مؤتلف^(١) حياتهما ، فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به .

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهي أحياناً بكائيهما ونشيجهما ، حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما إلى منزلة في الحياة فوق منزلتها ، ونزول الأخرى فيها إلى مقام دون مقامها ، فعاقبتهما الطبيعة على تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد ، الذي تقاسيانه وتذوقان مرارته .

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يَتَمَنَّان^(٢) في مهدهما ، ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما ، وتشعران ببرد العزاء يتدفق في صدريهما ، خصوصاً عندما تذكران أن الهناء الذي فاتهما في ماضيهما لن يفوت ولديهما في مستقبل أيامهما . وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاصد المدنية ،

(١) مؤتلف: أول حياتهما ، أي في شبابهما .

(٢) يَتَمَنَّان: بغمت الظبية ، أي صوت إلى ولدها بالين صوت ، وتَقَم الحديث لفلان: لم يوضح له ، وهو المقصود .

الصغيرين المتلاصقين في ذلك الإزار بمنظر طفلي «ليدا»، وقد حفرا معاً في محارة واحدة .

وكانت حياتهما بسيطة ساذجة ؛ لأن ذهنهما كان بسيطاً ساذجاً خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا يفكران في شأن غير شأنهما ، ولا يسبحان في محيط غير محيطهما ، ولا يتقلدان بذهنهما من الحاضر إلى الماضي أو المستقبل ، ولا تترامى أبصارهما إلى ما وراء الأفق المحيط بهما ، كأنما يظنان أن العالم ينتهي حيث تنتهي جزيرتهما .

ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلهما وأميتهما وبعدهما عن هموم العلم ومشاغله ؛ فلم يقدر لهما أن يسهرا ليلهما منكين على المذاكرة والمدارس ، حتى يغلبهما النوم فيناما في مكانهما ، ولم يدرفا الدموع الغزار يوماً من أيامهما أمام معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكلاته ، حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يثر غيظهما وحنقهما عجزهما عن التغلب على خصومهما في ميدان المجادلة والمناظرة ، حتى تنشق مرارتهما غيظاً وحنقاً . وما شعرا في ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما أن يعرفا غير ما يعرفان ؛ لأنهما يعلمان أنهما ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين هائنين ، وها هي السعادة تظللهما بأجنتها البيضاء ، وتتدفق بحرّاً زائحاً تحت أقدامهما ، وإلا ليؤديا واجب الحب والإخلاص لذيئك الشخصين الكريمين عليهما ، وها هما يقومان بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيدته ، بل عابد لمعبوده .

فما بهما من حاجة إلى من يعلمهما أن الكذب حرام ؛ لأنهما لا يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ؛ لأن جميع ما يقع تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ؛ لأن ما يشتمل عليه كوخهما بسيط محدود ، لا يحتمل جشعاً ولا نهماً ، ولا أن البر بالوالدين واجب ؛ لأنهما كانا يعبدان أميهما عبادة هي فوق البر والإحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ؛ لأنهما وإن لم يذهبا إلى الكنيسة إلا قليلاً ، فقد كانا يصليان

رؤوسهم ، ويلوحون بها في الآفاق .

ثم أخذت تلك العلاقة الطفولية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جدية ، يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر ، وإلى معونته ومساعدته ، فبدأ يشتركان في خدمة المنزل ومناظرة شئونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله ، من طلب العيش ومعالجة القوت ، كل فيما هيأته طبيعته له .

فلحقت فرجيني بالزنجية «ماري» تتعلم منها الطبخ ، والغسل ، والنسيج ، وإعداد المائدة ، وتهيئة الفراش ، وخياطة الملابس ، وصنع السلال ، إلا أنها كانت تعنى بما يتعلق بأخيها پول قبل كل شيء . ولحق پول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة ، التي كانت لا تفارق عاتقه ، على فلاح الأرض ، وحرثها ، وتخطيطها ، وتقسيمها ، وتحويل مياهها ، وقلع حشائشها ، وتسلق رباه ، وتقليم أشجارها ، فإذا عثر في طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر في عشه ، أو حشرة في حفرتها ، أو سمكة ملونة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها في جيبه ؛ ليقدمها هدية لفرجيني حين يعود إليها .

وكانا على اختلاف شأنهما ، واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وجدت فرجيني فقد وجد پول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدرًا إليها ، أو مشرفاً عليها ، أو هائفاً بها ، ما من ذلك بد .

وأذكر أنني كنت منحدرًا ذات يوم من قمة الجبل ، وكان الجو ماطرًا مكفهرًا ، فرأيت فرجيني مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقي به المطر المتساقط ، فهزعت إليها لأساعدها على المسير ، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الإزار الذي يضمها لا يضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها پول ، فنظرا إليّ ضاحكين متهللين ، كأنهما مغتبطان باهتمامهما إلى تلك الفكرة الجميلة ، التي استطاعا بها أن يلجأ من ذلك الفئث المنهمل إلى ظلة واحدة ، فذكرني منظرهما هذا ومنظر رأسيهما

حياة الطفولة ١٢٣

كأنهما ثغران ضاحكان ، وإن قطبت سبحتا وحدهما في جو السماء ، حتى تلتقي زرقتهما بزرقتها .

أما بول فقد كانت قامته أطول قليلاً من قامة فرجيني ، ونظرة أحد من نظرها ، وأنفه أكثر شمماً من أنفها ، ولونه أقرب إلى السمرة من لونها ، أي أن ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة في تكوينها واستدارتها ، وكانت تنبعث من عينيه نار من القوة والنشاط ، تكاد تلهب التهاباً ، لولا تلك الأهداب الندية الحافة بهما .

وكان لا يزال ثائراً مهتاجاً ، ما يهدأ ولا يسكن حتى تقبل عليه فرجيني وتجلس بجانبه ، فإذا هو الطفل الصغير بساطة وسداجة وداعة ولطفاً .

وكثيراً ما كانا يجلسان معاً صامتين هادئين ساعات طوالاً على ضفة نهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية ، أو قمة مشرفة ، وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومد قدميه العاريتين ، فكأنهما تمثال رخامي عتيق من تماثيل أولاد « نيلوبي »^(٤) ، وكأن حياتهما حياة الملائكة الأبرار في عالمها العلوي ، لا تشعر بحاجتها إلى الحروف والكلمات في التعبير عن شعورها وإحساسها .

ولم يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الألسنة في نطقها وإفصاحها ؟ ولم يكن جبهما حباً صناعياً ولا متكلفاً فيحتاجا إلى استدامته واستبقائه ، وتأريث^(٥) ناره في قلبيهما بالملق والدهان والتدليل والترفيه وخلابة الألفاظ وسحر البيان . لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته ، لما استطاع أن يجيب بشيء ؛ لأنه لا يفهم من الحب سوى أنه حاجة إلى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه ، ولا يغيب عن وجهه ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً .

ولقد استقر هذا الشعور في نفسيهما وملك عليهما حواسهما وخواجهما ، فلم يفكرا في تشخيصه وتحديدده واستعراض صورته وألوانه ؛ فكان

(٤) في الأساطير اليونانية ، هي زوجة أوديسيوس أحد أبطال اليونان .
(٥) أُرث النار : أوقدها .

في كل أرض ، وفي كل جو ؛ في البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ، وفي بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالي وأواخرها .

وكذلك أشرقت حياتهما الأولى إشراق الفجر المنير في صفحة الأفق ، مبشراً بيوم صحو جميل ، وأخذت تمر بهما الأيام عذبة صافية ، جريان الغدير المتفرق على بياض الحصباء^(١) ، سواء ليلها ونهارها ، وصباحها ومساءها .

وكان من شأن فرجيني أن تستيقظ صباح كل يوم مبكرة ، والطير لم يفارق وكره ، فتحمل جرتها وتذهب بها إلى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة ، فتستقي منه ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الإفطار ، حتى إذا برزت الشمس من خيلها ، وأخذت تنفض يدها غبار الظلام عن وجه الأرض ، وتمسح جبين الطبيعة المكتئب بريشة أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغيت من كوخها هي وولدها ، فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ، ثم اصطفوا لأداء الصلاة ، وبسطوا أيديهم إلى السماء ضارعين إلى الله تعالى أن يكلاًهم^(٢) بعين رعايته ، ويسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهيب لهم من أمرهم رشداً .

فإذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ لتناول الطعام على مائدة من العشب الأخضر تحت ظلة دانية من الأغصان المتشابكة تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النثار الفضي اللامع .

فكان أثر ذلك الغذاء الطبيعي البسيط ، تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك الأرض الندية المخضلة^(٣) ، عظيماً في نمو الولدين وترعرعهما ، ونضرة وجوههما ، وحلاوة ملامحهما ، فلم تبلغ فرجيني الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها ، واعتدل قوامها ، وتهدل شعرها الأصفر اللامع على كتفيها ، كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، وأضادت عينها الزرقاوان بنور سماوي غريب ، كأنه قبس من النور الإلهي . فإن ابتسمت ابتسمتا معا ،

(١) الحصباء: صغار الحجارة .

(٢) يكلاًهم: يرعاهم .

(٣) المخضلة: المبتلة .

وظلت يتحدثها حديثاً طويلاً عن ابنتها وما تخشاها عليها في مستقبل حياتها ، إن نشب بها ظفر جارح من أظفار الدهر ، وفرت المنية بينها وبينها ، ثم قالت في ختام كتابها :

« إن كنت ترين أنني لا أزال مذنب بعد ذلك ، وأن تلك الدموع السخية التي رويت بها ثرى الأرض أنني عشر عاماً ، لا تكفي لمحو زلتي من صحيفة أعمالي ؛ فارحمي هذه الفتاة المسكينة ، من أجلها ، لا من أجلي ؛ فهي حفيذة أختيك وغصن دوحتك ، والبقية من أسرتك . »

لبثت تنتظر رداً على كتابها ، فلم يأتها ، فأبعتها بآخر ، ثم بآخر ، وضربت في ذلك ضراعة لم يكن مثلها مما يهون على مثلها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨ ، أي بعد قدومها هنا باثني عشر عاماً ، وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو «دي لا بورنيه» حاكماً على الجزيرة ؛ إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسلمها كتاباً ورد عليها من عمته ، فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وعلمت أن أيام شقاها قد انتهت ، وأن الله رحمها ، ورثى لبؤسها وشقاها .

وهُرعَت إلى «بور لويس» لمقابلته ، فدخلت عليه في ذلك الثوب البنغالي الخشن الذي اعتادت أن تلبسه في بيتها ، غير حافلة بشيء إلا تلك السعادة التي ستقدمها عما قليل لابنتها ، فاستقبلها الرجل استقبالا جافاً خشناً ، وهي المرأة الشريفة الطاهرة التي تغضي العيون بين يديها لإجلالها وإكبارها ، والبايسة المسكينة التي تهابها النفوس ؛ مرثاة لها ومرحمة لبؤسها وشقاها .

ولم يزد على أن أوما إليها برأسه إيماءة خفيفة ، ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته من يده وأنشأت تقرأه بلهفة وسرور ، إلا أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتقع لونها ، وارتعشت يدها ، وترنحت في مكانها ترنج الشارب الثمل ؛ فقد كتبت إليها عمته تؤنبها وتقرعها تقرعاً مؤلماً مهيناً ، وتشمّت بها وبمصيبرها ، وتقول لها :

أشبه شيء بالإيمان في قلوب العجائز ، والإلهام في أنفُس الحيوان ، والعبقرية في أذهان الخاملين المغموين ؛ فهما ينعمان بحب هادئ لطيف ، لا جلبه فيه ولا ضوضاء ، ولا تجاذب ولا تأخذ ، ولا شكوى ولا عتاب ، ولا سهر ولا قلق ، ولا خوف من الطوارق ، ولا خشية من الفواجئ .

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتألاً وجهها بتلك المحاسن الباهرة ، بدأت تفكر في أمرها وأمر مستقبلها ، وتقول في نفسها :

« ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غداً إن عدت عليّ عوادي الدهر ، وفرت المنية بيني وبينها ، وخلفتها وحدها هنا في هذه القفرة المجردة ، بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة ، لا سند لها ولا معين ؟ »

وكانت لها في فرنسا عمة مثرية ثراء واسعاً ، إلا أنها كانت امرأة متكبرة تياهة شديدة الذهب بنفسها ، مدلةً بجواهرها ونفوذها ، مشردة في آرائها وأفكارها ؛ فنقمت عليها أشد النعمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذي اختارته زوجاً لها ، واعتبرت حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التي حلت بها وبأسرتها ، فأبّت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة ، عندما عزمت على السفر إلى هذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها ، وضراعتها ومناشدتها ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ إليها في شأن من شؤون حياتها ، ما تردد لها نفس على وجه الأرض .

أما الآن وقد أصبحت أمّاً يعينها من أمر فتاتها ما يعني الأمهات من أمر فتياتهن ، فلم تر بدءاً من أن تحمل نفسها على ذلك المكروه ، الذي عافته برهة من الزمان ؛ فكتبت إلى تلك العمة القاسية كتاباً طويلاً أفضت إليها فيه بخواطر نفسها ، و وساوس قلبها ، وقصت عليها قصة حضورها إلى هذه الجزيرة ، وما كان من وفاة زوجها على أثر حضورها ، وحياتها الشقية التي شحياها الآن من بعده وحيدة منقطعة ، لا ناصر لها ولا معين .

قد كتبت إلى مسيو دي لا بوردييه ، حاكم الجزيرة ، أوصيه بك خيراً فاعتمدي عليه ، وعلى معونته ، ولا تكتبي إليّ بعد اليوم .»

وكانت صادقة في كلمتها هذه ؛ فإنها كتبت إلى ذلك الرجل كتاباً توصيه بها فيه ؛ إلا أنها ملأته بدمها وتلبها ، والاستطالة عليها في عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها عذراً عنده في قسوتها عليها ، وعنفها بها وضنها عليها بالمعونة والمساعدة .

فكان من أثر ذلك في نفسه أن ازدراها واحتقرها ، وتجهّم لها حين رآها ، ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، لم يسألها عن شأن من شؤونها ، ولم يمنحها غير وعود كاذبة ، كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجراً ومللاً ، فكانما أوصته بقتلها والقضاء عليها .

* * *

(٧)

العزاء

عادت هيلين إلى المزرعة ونفسها تسيل لوعة وأسى ، فما بلغت كوخها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة ، وتهافتت على سريرها باكية منتحبة ، فهرعت إليها صديقتها تسألها ما شأنها ، فأشارت إلى الكتاب وقالت :

« ها هي ذي خلاصة حياتي ، من أولها إلى آخرها .»

ولم تكن مرغريت تحسن القراءة ، فأنتها بالكتاب ، فأنشأت تقرؤه عليها وفؤادها يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها :

« متى تخلى الله عنا يا هيلين فتلجأ إلى الناس في شؤوننا ، ونعتمد عليهم في رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم بما هياؤ الله لنا من القوت في هذه الجنة الصغيرة التي نعيش فيها ؟! فما فينا من يشكو جوعاً أو عطشاً ، ولا من يمشي عارياً أو حافياً ، ولا من

« هذا جزاء تمردك وعصيانك ، وخروجك عن أهلك وقومك ، وانقيادك إلى شهوتك البهيمية ، واسترسالك فيها استرسالاً دفع بك إلى أحضان ذلك الفتى الوضع المهيّن ، الذي لا يليق به أن يحل سيور حذائك ، حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذي لا يمحي .

« ولقد أحسنت كل الإحسان بمغادرتك هذه البلاد ، وفراارك إلى تلك الجزيرة النائية المنقطعة ؛ لتدفعني فيها نفسك وعارك إلى الأبد . وما موت زوجك ، وولادة ابنتك ، وشقاء عيشك ، والوساوس التي تعتلج في صدرك خوفاً على فتاتك ، وعلى مستقبلها ، إلا عقوبة أنزلها الله بك ليمحّص^(١) عنك ذنوبك ، ويمهد لك سبيل غفران سيئاتك ؛ فاصبري ، ولا تجزعي ، حتى يقضي الله قضاءه فيك .»

ثم أنشأت تدلّ^(٢) عليها بنفسها ، وتفاخرها بعفتها وطهارتها وترفعها وإياها ، وأنها قضت أيام حياتها عانساً متبلة ، ما تزلق بها شهوتها في هوة من تلك الهوى التي تزلق فيها أقدام النساء الجاهلات ، ولا تسلم قيادها إلى رجل من الرجال كائنًا من كان ؛ ضناً بحريتها أن تعبت بها أيدي المطامع والأهواء .

وكانت كاذبة فيما تقول ؛ فهي امرأة دميعة شوهاء ، غريبة الأخلاق والأطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة ، وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكي ، وكان كبرياؤها الكاذب يأبى عليها إلا أن تتزوج من رجل من ذوي البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة . وليس بين هؤلاء جميعاً من يرضى أن يبيعها نفسه بيعاً ، مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف العيش ، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبرياتها .

ثم ختمت كتابها بقولها : « لا بد لك أن تعملني لنفسك ؛ فقد علمت أنك في جزيرة صالحة للعمل والاستثمار ، وأن جميع المهاجرين الذين يؤمنونها يعودون منها بالثروة الطائلة والربح الكثير . على أنني

(١) محصّ: خلّص وطهر . (٢) تدلّ: تبه وتفاخر .

وجه الشمس ساعة ثم اضمحلت .

* * *

(٨)

الاستعمار الأوربي

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان في جوهما نمو النبات المحيط بهما ، وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجايهما . فبينما فرجيني جالسة في الكوخ ذات يوم تهوى طعام الإفطار لأسرتها كماداتها والشمس لا تزال في خدرها ، وأماها قد ذهبتا مع دومينج لأداء صلاة الأحد في كنيسة «مبلموس» ويول في الحديقة يشدّب بعض أشجارها ، وماري وراء الكوخ تشتغل ببعض شئونها ، إذ دخلت عليها زنجية مسكينة آفة^(٢) كأنها الهيكل العظمي نحولاً وهزالاً ، ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بحقوقها^(٣) ، فجثت على ركبتها بين يديها باكية منتحبة ، وأنشأت تقول لها :

« الرحمة يا سيدتي ، فإني أكاد أموت جوعاً ، وقد مرّ بي يومان ، وأنا أجوب هذه الأحرار والغابات ، أتوارى مرة وأظهر أخرى ، وأقتات كل ما هو فوق التراب ، مخافة أن تقع عليّ عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدوني إلى سيدي ، والموت أهون عليّ من أن أعود إليه ، فهو رجل قاس غليظ لا يزال يجلدني ويمزق لحمي بسوطه ، كلما بدا له أن يفعل ذلك .»

ثم كشفت ثوبها عن جسمها ، وأشارت إلى مواضع الضرب منه ، فإذا خطوط حمراء ملتفة ، لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة ، ثم قالت :

« ولقد حدثت نفسي كثيراً بالانتحار ، فما كان يمنعني منه إلا الخوف والجزع ، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثاً حسناً ، ويقولون إنكم ، وإن

(٣) الآفة: الهاربة من مولاها . (٤) الحقو: الخصر .

بيت مغتماً أو محزوناً ، فروّحي عن نفسك ، فالله أرحم بك وبنا من الأقارب والأصدقاء .»

ثم عجزت عن امتلاك نفسها ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء ، فتهافت هيلين على عنقها وضممتها إلى نفسها وظلت تقول لها : « آه يا صديقتي آه يا صديقتي !»

وكانت فرجيني واقفة بجانبها فأثر في نفسها هذا المنظر المحزن ، فاستعبرت^(١) باكية ، وظلت تتناول يد أمها مرة ويد مرغريت أخرى ، فتقبلهما وتبذل لهما بدموعها وتقول لهما : « أرجو أن لا يكون ذلك من أجلي ! فبكي لبكائها الزنجيان - وكانا واقفين عند الباب - واشتد نحيبهما ونشيجهما .

أما پول فقد عصفت في رأسه عاصفة الغضب وظل يضرب الأرض بقدميه ويشير بيديه مهدداً متوعداً ، لا يعلم من يهدد ، ولا من يتوعد ، ولا على أي رأس من الرؤوس يرسل صاعقة غضبه ، لأنه لم يفهم مما كان شيئاً .

فكان هذا المأثم الغريب ، في تلك الساعة الرهيبة ، مظهرًا من مظاهر الإخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، و وجدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، وما اجتمعت القلوب على شيء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والأحزان ، فسُرّي^(٢) عن هيلين قليلاً ، وضمت پول وفرجيني إلى صدرها ، وقالت لهما :

« إنكما ، وإن كنتما يا ولدي سبب أحزاني وآلامي ، ولكن الشقاء لم يأتي منكما . فلم يفهما شيئاً مما تقول ، ولكنهما علما أنها قد هدأت وسكنت ، وأنها تبسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها .

وما لبثوا جميعاً أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ولعبهم ومرحهم .

وكانت تلك الحادثة أشبه شيء بسحابة اعترضت

(١) استعبرت: سال دمعها . (٢) سُرّي عنه: زال ما به من هم .

القامة ، مهزول الجسم ، غائر العينين ، مقطب الجبين ، كأنما قد جثمت روحه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل من يدنو منها .

فارتاعت فرجيني لمنظره المرعب المخيف ، إلا أنها لم تجد بداً من التقدم ، فمشت نحوه خائفة مضطربة ، تعتمد على يد پول ، والجارية من خلفهما تتبعهما حتى بلغت ، فجثت بين يديه ، وأخذت تضرع إليه أن يعفو عن جاريته المسكينة ويرحمها ، وتناشده الله والكتاب في ذلك ، فلم يكثر في مبدل أمره لمنظر فتى وفتاة فقيرين ، زرين في ملبسهما وهياتهما .

إلا أنه لما وقع نظره على فرجيني ، ورأى منظرها البديع الجذاب ، وشعرها الأصفر الذهبي المسترسل على ظهرها ، وتلك العصاة الزرقاء التي تدور بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحياة يترقق في وجهها ترقق الطل في رقات الورد ، وسمع صوتها الرخيم المتهدج ، كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بهت رشده ، وأخرج غليونه من فمه ، وابتسم ابتسامة نكراء ، وتقدم نحوها قليلاً وألقى عليها نظرة فاجرة مرية ، وقال لها :

« أيتها الفتاة الجميلة قد عفوت عنها ، لا من أجل الله ، ولا من أجل الكتاب ، بل من أجلك أنت ! »

فأشارت فرجيني إلى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدتها نعمته وفضله . ثم انكفأت راجعة تركض ركض الهارب ويول يتبعها ، حتى ارتقيا الجبل الصغير الذي هبطا منه وجلسا تحت دوحه من أدواحه يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالاً عظيماً ؛ فقد قطعاً في ذلك اليوم خمسة فراسخ في أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيها ، ولا يهدآن ، ولا يتبلغان بطعام ، ولا شراب ، فقال پول لفرجيني :

« ها قد مال ميزان النهار ، وبيننا وبين مزرعتنا مفازة منكرة ، لا أحسب أننا نستطيع قطعها قبل الغروب ، وليس في هذه البطحاء المحيطة بنا شجرة واحدة ، ذات ثمر صالح نطعمه أو ننقع ظمأنا بعصارتها ، وأنت ظامئة جائعة ، لا طاقة لك بالصبر

كنتم من هذا الجنس الأبيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ؛ فأضرع إليك يا سيدتي أن ترحمني ، وتعودي عليّ بلقمة أتبلغ^(١) بها ، وأن تحولي بيني وبين الشقاء . »

وهنا اشتد بكاءها ونحيبها ، فأوت^(٢) لها فرجيني ورقت لها رقة شديدة ، ونهضت إلى الطعام الذي كانت أعدته لأسرتها ، فأتها به ، فالتهمت في لحظات قليلة ، وأخذ وجهها يتطلق فرحاً وسروراً ، فقالت لها فرجيني :

« أ تخين أن أذهب معك إلى سيدك وأشفع لك عنده ؛ عله يعفو عنك ويرحمك ، ويكون لك في مستقبله خيراً منه في ماضيه ؟ وما أحسبه إلا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك الملعوب المقرح . »

فشكرت لها الجارية فضلها ورحمتها ، وقالت لها : « سأتبعك يا سيدتي حيث شئت ؛ فأنت ينبوع الرحمة والإحسان . »

فهتفت فرجيني بيول فحضر فحدثته حديث الجارية ، والرأي الذي رآته لها ، فوافقها على رأيها واقترح عليها أن يرافقها في رحلتها ، ثم سارا معاً والجارية تتقدمهما ، وتخرق بهما الغابات والأجمات^(٣) ، في ممرات مستدقة غامضة تعرفها ، وكانت تعترضهما في مسيرهما بعض هضبات عالية ، كانا يجدان مشقة عظمية في تسلقها ، حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الأسود حيث مقام الرجل ، فاندحرا إليه .

وهناك شاهدا أبنية عظيمة فخمة تحيط بها حدائق غناء ، وأدواح ملتفة ومزارع منبسطة ، وعبيد كثيرون منتشرون في كل مكان يحرقون ويحصدون ، ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأرواح ، ويحملون الأثقال ، ويقطعون الصخور ، ولمحا صاحب المزرعة يتمشى بينهم مشية الخيلاء و « غليونه » في فمه ، ينفث منه الدخان ، وييده عصا خيزران طويلة ، وهو رجل طويل

(١) تبلغ بالشئ : اكتفى به وقنع .

(٢) أوى له وإليه : رحمه ورثى له .

(٣) الأجمات : الأشجار الكثيرة الملتفة ، مفردا أجمة .

من خيوط ليفية متداخلة متينة النسيج ، سمكة القشرة ، تعيا بها الفؤوس القاطعة ، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقها فتھوي بين يديهما فيظفرا بشمرا ، ولم يكن لديهما نار ، ولا شيء مما تقتدح به النار .

وليس في تلك المدرة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها ، واختلاف صورها وأشكالها حجر من أحجار الاقتداح ، ففتقت الحاجة لپول حيلة من أغرب الحيل وأبدعها .

وقديماً فتقت الحاجات حيل الرجال ، واستنارت دفاتن ذكائهم وفطنتهم ، وما انتفع العالم في جميع شؤونه وأحواله بمثل ما تفتقه الحاجات والضرورات ، ولا نبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا في تربة الفقر والإقلال ، فعمد إلى طِرٌّ^(٣) رقيق الأطراف ، مما يقوم لدى سكان تلك الأصقاع مقام المدى في منفعتها وجدواها ، فبرى به طرف غصن يابس متين حتى صيره كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقباً دقيقاً بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرف الغصن الأول في ثقب الغصن الثاني بعدما شد عليه بقدمه ، وظل يديره بكتلتا يديه بسرعة عظيمة ، فما هي إلا لحظات حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها من ساق النخلة فنشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلاً حتى هوت بين يديه هوي الكوكب الناري من سمائه ، فأخذ يفرض اللفافات عن طلعتها الأبيض الضئير .

وجلس هو وفرجيني يشتويان ويأكلان ألد طعام وأهنأ حتى اكتفيا ، ومرت بهما ساعة سرور وغبطة ، نسيا فيها يؤسهما وشقاءهما ، ثم ما لبثا أن جمعا شتات نفسيهما وأخذتا يتمثلان حيرتهما وضلالهما ، وبعد الشقة^(٤) بينهما وبين أرضهما ، ويذكران قلق أميها عليهما وجزعهما لغياهما ، ويقولان في نفسيهما لا بُدَّ أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة في شأنهما ، حينما عادتا من الكنيسة إلى المزرعة فلم تجداهما ، ولم تعرفا الوجه الذي

على ذلك أكثر مما صبرت ، فخير لنا أن نعود إلى مزرعة مولى الجارية ، ونطلب إليه أن يمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضائناً علينا بهما .

فوجمت فرجيني وقالت : « لا يا پول . إن هذا الرجل قد ملأ قلبي خوفاً ورعباً ، وما أحب أن أرى وجهه مرة أخرى ، واذكر تلك الكلمة التي كانت تقولها لنا أمي دائماً : إن خبز الأشرار يملأ الفم حصى . فلنمض في سبيلنا ، وما أحسب أن الله يخذلنا ، أو يتخلى عنا . »

قال : « وما العمل ، والشقة بعيدة ، والمثال وعر ، والأرض قاحلة جذباء لا ماء فيها ، ولا ثمر ، ولا شيء مما يتبلغ به المتبلغ ، أو يتعلل به الظالم ؟ »

قالت : « إن الله الذي يسمع زقوقة العصفور الصغير في عشه فيرسل إليه الحبة التي تقوته ، والقطرة التي ترويه ، سيسمع دعاءنا ، ويرد لهفتنا ، وما ذلك عليه بعزير . »

ثم سارا في طريقهما فما أبعدا إلا قليلاً ، حتى سمعا خرير ماء على البعد ، فانتعشا وصاحا بصوت واحد : « إن ههنا ماء ! » وتبعوا الصوت حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية ، ينفجر من صدوعها ماء زلال رراق ، كأنه دَرَبٌ^(١) البلور في شفافه ولعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ، و وجدا من حوله بعض الأعشاب التافهة ، فأصابا منها قليلاً ، ثم جلسا في مكانهما .

وإنهما لذلك إذ لمحا على البعد نخلة ساحقة من نخيل الجوز ، والجوز أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيق مستطيل ، لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الإنسان إلا قليلاً ، و ربما ذهب في الهواء ستين قدماً أو أكثر ، وله في شغفاته^(٢) لفائف ضخمة متراكمة أشبه بلفائف الكرب ، تحمل في جوفها طلعاً أبيض ناصعاً ، حلو الطعم جيد الغذاء .

فانجها بها إذ رأياها ، وهرعا إليها ، وكانا بين أن يصعداها ، وهو ما لا سبيل إليه ، أو يقطعهاها ، وهو ما تعيا به قوتيهما ؛ لأن جذعها على رفته ونحافته مؤلف

(١) الدَرَبُ : ما دَرَبَ من الشيء . (٢) شغفاته : أعاليه .

(٣) الطَر : الحجر المحدد . (٤) الشقة : السَّقر .

كطريق الشر؟

ولم يزل سائرًا بها حتى بلغ الضفة الأخرى ، وأراد أن يستمر في سبيله حاملاً إياها على ظهره ، ويصعد بها الجبل المثلث الرأس اعتزازاً بقوته وبأسه فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها .

واستمر سائرين في أرض وعرة كأداء^(٣) كاطراد السيف تخفى فيها النعال ، وتدمى الأقدام ، وكانت فرجيني قد نسيت نعلها في كوخها ، حينما ورد عليها من أمر تلك الزنجية المسكنية ما أذهلها وطار بلبها ، فأضر بها الجهد ، وأدمى قدميها المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته ، وأخذت تنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانية عليها ، فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ، ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ، فانتعلته ، فهدأ بعض ما بهما ؛ وأقبلت على پول تقول له :

« ها هي ذي الشمس قد أشرفت على المغيب ، ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جداً ، وقد نال مني التعب ولم يبق لي جلد على المسير ، فاتركني وحدي هنا ، واذهب إلى المزرعة لتخبر أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إليّ من قبلكم من يحملني إليكم . » فأبى پول مستعظماً الأمر ، وقال :

« الموت أهون عليّ من أن أتركك وحدك في هذا المكان الوحش المقفر ، فسأبقى معك ما بقيت ، فإن أظلنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز ، فأطعمتك ثمرها ، كما فعلت الغداة ، ثم نسجت لك من أعوادها وأغصانها مهاداً^(٤) ليّنا تنامين عليه ، وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح . »

فأذعنت لرأيه ، وكانت قد شعرت بشيء من الراحة بعد ما خصفت قدميها بتلك الأعواد المخضلة ، فقامت تعتمد يمينها على فرع قطعته من تلك الشجرة ، ويسرها على كتف پول حتى بلغا غابة كثيفة ، قد أحاط بها من جميع أقطارها كثير من الأدواح الباسقة المتلفة فدخلها ، وما أعنا

ذهبا فيه .

ثم نهضا من مكانهما وأخذوا يدوران بأنظارهما يمينه ويسرة ليتعرفا الطريق التي أتيا منها فأضلاها فسقط في أيديهما^(١) ، ولم يعرفا كيف يعودان ، وكان پول أهدأ من فرجيني روعاً وأثبت جأشاً ، فظل يعللها ويهدئ روعها ، ويقول لها :

« إن كوخنا يكون دائماً في مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس ، فإذا نحن اتجهنا جهة الشرق ، لا نجد عنه يمينه ولا يسرة ، ثم إذا صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذي نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا في مزرعتنا . »

وأخذوا يسيران في الوجهة التي توهمها ، فمرّا بغابات كثيرة ، وأدواح ملتفة ، وهضاب عالية ، وأنهار جارية ، لم يبطأ السائحون لها أرضاً حتى اليوم . وظلا على ذلك ساعتين حتى اعترض طريقهما نهر واسع يتدفق ماؤه تدفقاً ، فذعرت فرجيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجائمة في مجراه ، واستحال عليها أن تضع قدمها فيه فلم ينشب^(٢) پول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء ، لا يحفل بتيابه المتدفق ، ولا بصخوره المتزلقة ، وظل يقول لها وهو سائر بها :

« لا تخشي شيئاً يا أختاه ؛ فإنني جلد قوي ، لا يعجزني حمل شيء من الأشياء كيفما كان شأنه ، وأشعر أنني أزداد قوة وجلداً حين أكون معك ؛ وأستطيع أن أقول لك إن نفسي كانت تخدثني بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية ، حينما ظننت أنه احتقرك وازدراك ، فلم يحفل بك ولا برجائك ، ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالي بعواقبها . »

فاضطربت فرجيني وقالت له : « ولكنك لا تفعل يا پول إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريكاً ، دع الأشرار يا صديقي وشأنهم ، لا تهجم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت شرمهم في صدورهم ، حينما لا يجد له مضرباً ولا منتدحاً . »

ثم تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت : « آه يا رب ! لِمَ لَمْ تجعل طريق الخير سهلاً ليّنا ؟ »

(٣) الأرض الكأداء: الشاقة الوعرة . (٤) المهاد: الفراش .

(١) سقط في يده: تحير . (٢) لم ينشب: لم يلبث .

على الأرض باكياً منتحباً ، فذعرت فرجيني حين رآته
على تلك الحال ، وهرعت إليه وضمته إلى نفسها
وظلت تقول له :

« لا تبك يا پول ؛ فإن بكاءك يقتلني هماً
وكمداً ، واغفر لي جريمتي التي أجرمتها إليك ؛
فلولاي لما قاسيت هذا البلاء الذي تقاسيه الآن ،
ولقد كان خيراً لي ألا أقدم على عمل من أعمال
الخير أو الشر إلا بعد استشارة أُمي ».

ثم قالت له : « دع البكاء وتوجه إلى الله تعالى
بالضراعة والابتهال ؛ عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل
لنا من أمرنا مخرجاً ».

وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورهما
وجدانتهما ، وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب
نفوس القانتين^(٢) المتبتلين ، في مواقف خشوعهم
وابتهالهم . وكانت الشمس قد انحدرت إلى
مغربها ، ولم يبق منها في حاشية الأفق إلا كما يبقى
على صفحة البحر الهادئ من آثار السفينة الماخرة ،
فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب
ينبح نباحاً شديداً فصاح پول :

« إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون الأيائل
في أعماق هذه الغابات ؛ ليطلقوا عليها كلابهم
فتعقرها ».

ثم اشتد نباح الكلب ، وأخذ يدنو منهما شيئاً
فشيئاً ، فارتعدت فرجيني وقالت : « يخيّل إليّ يا پول
أني أسمع صوت كلبنا « فيديل » ! لا بل هو
بعينه ، وما ارتبت فيه قط ».

وما أنمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل »
تحت أقدامهما ، يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ،
ويكاد ، لو استطاع ، أن ييكي فرحاً بهما ، ثم ما
لبث أن رأيا الزنجي دومينج مقبلاً عليهما ؛ فازداد
سرورهما واغتابطهما ، وما وقع نظر الرجل عليهما
حتى هرع إليهما وجثا تحت أقدامهما باكياً مستعبراً ،
وظل يقول لهما :

« لقد مر بأميكما اليوم يا ولديّ يوم ما مر بهما

(٢) القانت: المطيع لله والخاشع له .

فيها إلا قليلاً حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء
تلك الهضاب الشامخة ، والأدواح العالية ، وغاب
عن عينيها الجبل المثلث الرأس ، وكان علمهما
الذي يهتديان به ، فإذا هما في مَضَلَّة بهماء ، لا
يريان فيها غير الصخور العالية ، والهضاب المشرفة ،
والأشجار المتشابكة ، والمسالك المتشابهة ، والأعماق
المتغلغلة ؛ فذعر پول ذعراً شديداً ووقف في مكانه
حائرًا ذاهلاً لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع ، ثم اندفع
يعدو ههنا وههنا هائماً مخبولاً ؛ عله يجد طريقاً أو
مسلكاً ، أو دليلاً يهديه الطريق ، فلم يجد ، فتسلق
شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها وظل يدور
بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس ، أو
يرى قرص الشمس في منحدرها إلى مغربها ، فلم ير
غير ذوائب الأشجار العالية تتلألأ على أوراقها
الخضراء أشعة الشمس الذهبية قبل انحدارها إلى
الغروب ، وغير الظلال الممتدة التي يرسلها الليل
طلائع لجيوشه الزاحفة المتدفقة .

وكانت الرياح قد هدأت وخفت صوتها شأنها
ساعة الغروب ، وساد السكون على كل شيء ،
فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء
السابحة في أجواز الفضاء ، لا يدب فيها حيوان ،
ولا يخطر لإنسان ؛ فملك الخوف قلب پول ، وجن
جنونه ، وأخذ يصيح بأعلى صوته ، لا يدري من
يحدث ومن ينادي :

« الغوث ، الغوث ! النجدة ، النجدة ! إليّ أيها
الناس ؛ لتنتقلوا فرجيني البائسة المسكينة ! » فلم يجبه
غير الصدى المتردد .

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته ،
حتى خيّل إليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك
الأصدا ، فنزل من مكانه حائرًا متضعضعاً ، ليس
وراء ما به من الهم غاية . ثم وقف وأجال نظره في
الفضاء فلم ير ماء ولا ثمرًا ولا نخيلاً ولا شجرة ، ولا
كُنًا^(١) ولا مأوى ، ولا شيئاً مما يقتات به المقتات ، أو
يتعلل به المتعلل ؛ فصرخ صرخة عظمى وتهافت

(١) الكُن: كل ما يرُد الحر والبرد من الأنبية ونحوها .

الأسود ، ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه ، فصعدت ورائه حتى قادني إلى عين ماء جارية ، رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة ، لا يزال ينبعث دخانها ، وبقياء طلع مشوي متناثر حولها ، فعلمت أنكما عَجَمًا^(١) بهذا المكان ، وأن الجوع قد نال منكما منالاً عظيماً فتجشمتما في طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادني الكلب بعد ذلك إلى هنا كما تريان ، ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ . وقد أرسلت لكما سيدتاي هذا الطعام فكلاه ، وخلدا لنفسكما راحتها وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود .

وأخرج لهما طعاماً كثيراً وأثماراً متنوعة ، وركوة^(٢) ماء قراح^(٣) ، وشيئاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص على فرجيني أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة ، حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للمسير ، فإذا پول وفرجيني ضعيفان متضعضان ، لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين والإعياء .

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب ، لا يدري ماذا يصنع ، أ يحملهما على عاتقه ، وهو لا طاقة له به ، أم يقضي الليل بجانبهما ووراءهما أمأهما تنتظرانهما انتظار الظامئ الheimer عُلالة الماء البارد ، أم يرجع إلى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما ؟ وكيف له بتركهما وحدهما في هذه القفرة الموحشة ، التي لا يعلم إلا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوف وأهوال ؟

فتنفس تنفّسة طويلة وأنشأ يقول : « أسفي على تلك الأيام المواضي ، حين كنت أحملكما فيها يا ولدي على ذراع واحدة ، ما أشكو ولا أتبرم ! أما

(١) عاج بالمكان يعوج : أقام ، وعاج على المكان : عطف ومال عليه ، ومنه قول الشاعر :

فماجرو فافترو بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق (٢) الركوة : إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء .

(٣) ماء قراح : ماء صاف خالص .

مثله منذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ، ولقد كان جزعهما عظيماً جداً حينما عادتا من الكنيسة فلم يجداكما ، ولم تعرفا أي سبيل سلكتما ، ولا أي أرض اشتملت عليكما . ولم تستطع ماري أن تقول لهما شيئاً ؛ لأنها كانت مشغلة ببعض الشئون وراء الكوخ في الساعة التي خرجتما فيها فلم تركما . وقد فتشنا عنكما كل غاد ورائح ، فلم نجد من يدلنا عليكما ؛ فرأيت أن أستعين بالكلب « فيديل » على تتبع آثاركما ، فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتتمها ، وكأنه علم ما يُراد منه ، فألصق خيشومه بالأرض ، وانبعث في الطريق التي سرتما فيها ففعل الدليل الحاذق ، فتبعته أحترق الغابات والأجمات وأتسلق الصخور والهضاب ، وأجتاز الجداول والأنهار ، وأشعر بجميع ما شعرتما به من المتاعب والآلام ، حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوربي ، على شاطئ النهر الأسود . وهناك حدثني بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما إليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة ، كانت قد أبقت منه وخافت الرجوع إليه ، فوعدكما بالعفو عنها ، ثم ما لبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلمتا ما تم في شأنها .

فاضطربت فرجيني وقالت : « وماذا تم في شأنها ؟ ألم يعفُ الرجل عنها ؟ »

فابتسم دومينج وقال : « نعم ، عفا عن قتلها ولزهاق روحها ، أما ما دون ذلك فلا ، فإنه ما لبث على أثر ذهابكما أن أمر بشدها إلى بعض الأشجار عارية ، وظل يجلدتها بسوطه حتى تنثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكي العيون وتذبذب الأكباد ، وقد رأيها بعيني فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة . »

وما أتم كلمته حتى صعدت فرجيني وهتفت بكلمتها التي كانت ترددها دائماً : « آه يا رب ! لم لم تجعل طريق الخير سهلاً لينا كطريق الشر !؟ »

ثم عاد الزنجي إلى حديثه يقول : « ثم انكفأ « فيديل » راجعاً فتبعته فسار قليلاً على شاطئ النهر

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب الشمس عند سفح الجبل ، وقد نصبنا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوءها وجوه القادمين ، فما لمحا المحفة على بعد حتى طارتا إليها ، وضمتا ولديهما إلى صدرهما باكيتين ، منتحيتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم ، والتفتت هيلين إلى ابنتها ، وقالت لها : « أين كنتما أيها الولدان الشقيان ؟ ومن أذنكما بالذهاب وحدكما في هذه القلاة الموحشة ؟ » فجئت فرجيني بين يدي أمها ، وقالت لها :

« العفو يا أمه ! فقد جاءني اليوم زنجية مسكينة آبهة من سيدها تتضور جوعاً ، وتسيل نفسها هماً وكمداً ، فسألني أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من يؤسها وبلائها ، فقدمت لها ما شاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت في أمرها بعد ذلك ، فلم أر خيراً لها من أن أصحبها إلى سيدها ، وأسأله العفو عنها والمرحمة بها ، وأبى پول إلا أن يصحني ، فذهبتا إلى شاطئ النهر الأسود .

« فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق ، وظللنا حائرين ساعات طوالاً حتى وافانا دومينج ، وكان التعب قد نال منا منلاً عظيماً ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء السود الطيبون لمساعدتنا ، وصنعوا لنا هذه المحفة وحملونا عليها ؛ رحمة بنا ، ووفاء بذلك المعروف القليل الذي بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزي الله المحسنين خير جزاء بما فعلوا .

فضمتها أمها إلى صدرها ، وقالت : « قد عفوت عنكما يا ولدي ، ولا حرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين .

ثم عادوا جميعاً إلى أكواخهم فرحين مغتبطين ، وقدموا للزواج كثيراً من الطعام والشراب ، فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا .

اليوم فقد وهن عظمي ، وضعتُ منّي ^(١) ، وتقاربت خطاي ، ولم يبق لي في الحياة إلا هذه الخطوات البطيئات التي أخطوها إلى قبري .

وإنه لذلك إذ لمح أشباحاً سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل ؛ فراحه منظرها ، ثم تبينها ، فإذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليتهم البيض في شعاب الجبال ومخارمها ^(٢) ، وكانوا قد سمعوا وهم في مكمنهم حديثه مع الولدين ، ورأوا حيرته في أمرهما ، فجاءوا لمساعدته ، وقال له زعيمهم :

« إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلباً وأشرفهم نفساً ، وأدناهم رحمة ؛ فقد جشما اليوم نفسهما عناء عظيماً في سبيل مساعدة زنجية مسكينة ، كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما ، فرحمهما وأويا إليها وذهب بها إلى سيدها ؛ ليشفعا لها عنده ويسأله العفو عنها والمرحمة بها .

« وقد رأيناها صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطئ النهر الأسود فشكرنا لهما في أنفسنا فضلهما ونعمتهما ، وعجبنا كيف استطاع ذلك الإهاب الأبيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلباً غير أسود ، وقد سمعنا الآن حوارك معهما وعلمنا أنهما في حاجة إلى من يحملهما إلى مزرعتهم ، فجعنا لتتولى ذلك بأنفسنا ؛ مكافأة لهما على نعمتهما التي أسديها إلى تلك الطريدة المسكينة .

ثم أشار إلى أصحابه فاقتطعوا في لحظات قليلة بضعة أعواد من الأشجار العاتية ، وصنعوا منها ما يشبه المحفة ، فصعد إليها پول وفرجيني ، وحملها أربعة منهم على عواتقهم ، ومشى الباقيون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغنون أغانيهم الخاصة ، كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التي يعالجونها في أنفسهم ، حتى وصلوا عند منتصف الليل إلى المزرعة .

وعظفت على الناس جميعاً ، من تمت إليه بصلة ،
ومن لا تمت إليه بشيء .

ولم تحقد على الناس ، أو تضرر لهم في نفسها
شراً ، وما لها إلى الناس حاجة ، ولا رأي لها في
مطالبهم بشيء مما في أيديهم من مال أو جاه ، أو
قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله
لها ، ولم تطلب مزيداً ، ورضيت من حياتها بهذه
العلالة القليلة التي تتعلل بها ، فأراحت نفسها من
هموم المطامع ومتاعها .

وكانت أحاديثها التي تجري بينها أحاديث طاهرة
بريئة ، لا تطغى فيها الألسنة والأفكار ، ولا تتناول
شيئاً من شئون الناس خاصها أو عامها ، والغيبة رسول
الشر بين البشر ، بل هي أسُّ الشرور جميعها
قديمها وحديثها ؛ لأن المرء إذا اعتقد من طريقها
الشر في صديقه أو عشيرته ، وملكته فكرة سوء الظن
به ، أبغضه واجتواه ، وحذره واتقاه ، وكان لا بد له
من إحدى اثنتين : إما أن يصارحه ببغضه إياه ؛ فتصبح
حياته معه حياة نكدة ، لا نهاية لهمومها وآلامها ؛ أو
يماذقه^(١) ويداوره ، فيصبح رجلاً منافقاً كذاباً ؛ وخير
له من هذا وذلك ألا يسمع عن الناس خيراً أو شراً .

نعم ، إنها لم تكن تعتمد في حديثها على العلم
والتاريخ ، كما يعتمد الناس في مجتمعاتهم ، ولا
كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والأمثال ،
والعظات والعبر ، والمقارنات والموازنات ، ولكنها
كانت لذيدة شهية ، رقيقة مستملحة ؛ لأنها كانت
تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعة المفتوح
أمامها ، وكتاب الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير
الذي لا يقبل تأويلاً ، ولا يحتاج إلى تفسير ، والذي
يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله ؛ فلا حاجة به
إلى من يدلّه عليه ، أو يرشده إليه .

وما هي إلا أيام قلائل ، حتى انتشر لتلك الأسرة
الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكر عطر ، فأخذ
الناس يتحدثون بأدبها ولطفها ، ومروءتها وكرمها ،
وأيدائها الظاهرة والخفية ، ورحمتها الخاصة والعامة ،

(٩)

السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن
أقول لك يا بني إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ،
لا غيث يهطل من السماء ؛ وإن النفس الكريمة
الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ، ومطامع
الحياة وشهواتها ، سعيدة حيثما حلت ، وأنتى وجدت ؛
في القصر وفي الكوخ ، في المدينة وفي القرية ، في
الأنس وفي الوحشة ، في المجتمع وفي العزلة ، بين
القصور والدور ، وبين الآكام والصخور . فمن أراد
السعادة فلا يسأل عنها المال والنسب ، والفضة
والذهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ،
بل يسأل عنها نفسه التي بين جنبيه ؛ فهي ينبوع
سعاده وهوائه إن شاء ، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد .

وما هذه الابتسامات التي نراها تتلألأ في أفواه
الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين لأنهم
سعداء في عيشتهم ، بل لأنهم سعداء في أنفسهم .
وما هذه الزفرات التي نسمعها تتصاعد من صدور
الأغنياء والأثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لأنهم
أشقياء في عيشتهم ؛ بل لأنهم أشقياء في أنفسهم ،
وما كدر صفاء هذه النفوس ، وأزعج سكونها
وقرارها ، وسلبها راحتها وهنائها مثل عاطفة البغض ،
ولا أثار صفحتها وجلّى ظلمتها مثل عاطفة الحب .

فأشقى الناس جميعاً الميغضون الذين يضمرون
الشر للعالم ، فيجزيه العالم شراً بشراً ، وأسعدهم
جميعاً المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم
وصفاءهم ؛ فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل
ما منحوهم .

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة
أن تكون سعيدة هائلة على فقرها وإقلالها وجعجعة
المصائب بها ؛ فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً
طاهرة شريفة ، لا تضرر حقداً ، ولا تعرف غلا ،
فأجبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسيء ،

(١) ما ذق فلان فلانا : لم يخلص له الرد .

الليمون ، والبرتقال ، والتمر الهندي ، ونخيل البلح ، والجوز ، وألوانا من الأزهار والأنوار تتألق في أغصانها تألق الأحجار الكريمة في التيجان المرسعة . وأجرى المياه حول تلك الأغراس وفي خلالها بنظام دقيق ، كأنما قد خطها بالبركار ، وزرع الأكمات والروابي المشرفة على الوادي من جميع نواحيه ؛ فتراعت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرام صغار مكسوة برقاق الخز والدجاج على اختلاف أصباغها وألوانها ، ولم يترك بقعة جديدة ، ولا أرضاً صلبة إلا هز تربتها ، وأحيا مواتها فاستحالت إلى روضة أنف^(٢) تتدفق ثماراً وأزهاراً ، وتسيل عيوناً وغدراناً .

وأعجب ما كان يعجب الناظر في هذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعالي الجبال ، تشر الخصب حولها نثراً ، وتدور بالرُّبى والهضاب قلائد وعقوداً ، والخمائل والأشجار أوشحة ومناطق ، وتتلقى في سيرها وتدفعها تلوي الحيات المدعورة الهائمة على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السطح مشيت برفق وهدوء تتبسط في مهابها ومناحيها ، ثم تتلقى أطرافها ، فتكوّن بركا صغيرة مستديرة ، تحف بها الأعشاب المخضرة كما تحف بالعيون أهداها ، فإذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل إليك أنها المرايا الصافيات في أطرها^(٣) ، أو أحجار الفيروز في خواتمها .

ولما كانت الأرض في تلك الدائرة متدرجة غير مستوية ؛ فقد راعى أن يغرس الأدواح الباسقة في البقاع المنخفضة ، والأشجار المتوسطة في الأماكن المتوسطة ، والشجيرات القصيرة في المشارف العالية ، فاستوت رؤوس الأشجار في علوها وارتفاعها ، كأنما قد قرضت ذوائبها بمقراض ؛ أو كأنما غرسها غارسها في بطحاء مستوية .

وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة ، فيغرس بين يديها الأشجار العظيمة المورقة ، فتتلاقى ذؤابة الشجر بذؤابة الهضبة ؛ فتتكون منهما قبة جوفاء تشرّف على مجلس رطب ظليل ، كانوا^(٢) الأنف من الرياض: ما لم يرعه أحد .

(٣) الأطر: جمع إطار، وهو ما يحيط بالشيء .

وإن لم يعرفوا لها اسماً ولا لقباً ، فإذا سأل السائل من السابلة أو الطارئین : « من هم ؟ » كان جواب المصعب : « إنهم قوم طيبون وكفى . » كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ، ينشق الناس طيبتها ، ويحمدون عرفها ، وإن لم يعرفوا مكانها !

* * *

(١٠)

العمل

وكان بول وهو في الثالثة عشرة من عمره كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطاً وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهى به أمثاله من الغلمان في مثل هذه السن ، وكأنما كان يشعر في نفسه أنه مسئول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض ؛ فلا بد له أن يعمل حتى يصل إلى الغاية التي يريد ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيماً ، وقد وهبه الله قريحة وقادة وذوقاً خصباً ، وذوقاً سليماً ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الأشياء والتأليف بين متناقضاتها ، فرسم في ذهنه صورة بديعة لذلك الوادي الجميل ، كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لإبرازها وتحقيقها فلم يخطئ ، ولم يضطرب ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا في القليل النادر مما يستعصي مثله على أمثاله .

فكان لا يراه الرائي إلا غادياً أو رائحاً أو مصعداً أو منحدراً ، أو متسلقاً شجرة ، أو مكباً على قناة ، أو حاملاً غرساً ، أو خائضاً نهراً ، ودومينج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الأغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة والقطن والقصب ، تزرع كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار

(١) المرّف: الرائحة مطلقاً ، وأكثر ما يستعمل في الرائحة الطيبة .

ورفع في أعلاها منديلاً أبيض يشبه العلم ، وناطه^(١) بخيوط مختلفة تسترسل في أسفل الشجرة ، فإذا لمحني مقبلاً على البعد شد الخيط ، فانتشر المندبل واضطرب في الهواء ، وكان ذلك إعلاناً للأسرة بقدومي ، كما يرفع العلم على قمة الجبل إعلاناً بقدم سفينة إلى الشاطئ .

وكذلك كان شأنهم دائماً في تسمية الأماكن والبقاع والجنود والأشجار التي يحونها بأسماء لطيفة يرمون بها إلى غرض خاص ، ويسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل إليّ أنهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية ؛ فتدب فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم « ميدان الاتفاق » على بساتين من العشب الأخضر مسوّى بوضع شجيرات متسقات من أشجار البرتقال ، كان پول وفرجين يرقصان عليه معاً في ضوء القمر . وأطلقوا اسم « الدموع المسوحة » على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين ومرغريت لأول عهدهما باللقاء ، وأخذت كل منهما تقص على صاحبتها قصتها وتبثها أحرانها وآلامها ، ففضمها الأخرى إلى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا حقلاً من القمح باسم « نورماندي » مسقط رأس هيلين ، وآخر من الأرز باسم « برتانيا » مسقط رأس مرغريت ، إلى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا - وقد هجروا بلادهم إلى الأبد ، وحالت الحوائل بينهم وبينها - أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيلاً ، بعدما فقدوها سكناً وموطناً ؛ ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطفوا من حرارة شوقهم إليها .

وأغرب من ذلك أن الرنحين « ماري و دومينج » لم يكن قلبهما خالياً من ذلك الشعور الطيب الشريف ؛ شعور الوفاء للوطن والحنين إليه ؛ فأطلقوا اسم « أنغولا » و « فول پوانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع ؛ شغفاً بأوطانها وعهود صباهما وضناً بذكراهما أن تزول .

(١) ناطه: وصله .

يفيئون إليه من حر الهاجرة ، فإذا هم في روضة يانعة من رياض الجنة ، تزخر أشجارها ، وترن أطيارها وترف ظلالها ، وتتهادى نسايمها . وأجمل من هذا وذاك أنه غرس صفيين متقابلين من الأشجار الوحشية الضخمة ، يمتدان على مدى بعيد فتألف منهما دهليز ضيق مستطيل ، لا تنفذ إليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل إليه أضواء النهار ، فإذا دخله الداخل خيل إليه أنه يسير في نفق مظلم تحت الأرض ، وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك الوحشة التي يشعر بها سكان السرايب في سراديبهم ، أو عملة المناجم في أعماق مناجمهم .

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة الزاهرة ، وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من الرّبي والهضاب كان يعيش هؤلاء القوم في أكواخهم البسيطة عيشاً سعيداً هائلاً ، متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء في قصورهم وبساتينهم والسعداء في جناتهم وعيونهم .

فإذا انقضى النهار وأوت الشمس إلى خدرها ، صعدوا إلى صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادي جميعه ؛ فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره ، وخمائله وكرومه ، ومروجه وحرجاته ، وظلاله وأضوائه .

فإذا ألقوا بأنظارهم في جو السماء المائج فوق رؤوسهم بأضوائه وأنواره ، خيل إليهم أنهم بين سماءين متقابلتين ؛ سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ؛ أو روضتين مترائيتين ، تتألق في إحداهما الزنايق البيضاء على دياجاة زرقاء ، وفي أخراهما الورود الحمراء على قطيفة خضراء .

* * *

(١١)

التاريخ

وكانوا يسمون هذه الصخرة « اكتشاف الصداقة » ؛ لأن پول غرس في قماتها شجرة دقيقة من شجر الأثل ،

العظيمة ، كما أمدتنا الأجيال الماضية بذكرياتها وعهودها ، فحفرت على ساق شجرة العلم كلمة « هوراس » اللاتيني : « وقاك الله شر العاصفة ، ولا عبثت بك إلا أيدي النسائم » ، وعلى جذع شجرة كان پول يجلس تحتها أحياناً لي شاهد منظر البحر الهائج ، قول الآخر : « ما أعظم سعادتك ، لأنك لا تعرف إلهاً غير إله النبات ! » وعلى باب كوخ هيلين ، وكان هو مجتمع الأسرة ومتنهدا ، هذه الكلمة : « هنا ضمير صالح ونفس لا تعرف الخداع ».

وكانت فرجيني تستقل هذه الكلمات وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لي مرة :
« حبذا لو أنك كتبت على شجرة العلم : ثابت دائماً رغم اضطرابه ، بدلاً من كلمتك التي كتبتها ».

فأجبتها : « ذلك إنما يقال في موقف الحث على الفضيلة » ، فاحمر وجهها خجلاً وصمت .
ذلك كان شأن هذا الوادي فيما مضى ، أما اليوم فقد عفا فيه كل شيء ، ودرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم الماضية إلا كما يبقى من الوشم في ظاهر اليد ، وأصبحت أعيش في هذا المكان ، كأني أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال منف ، وما مضى على تاريخنا أكثر من عشرين عاماً .

* * *

(١٢)

مخدع فرجيني

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة المؤثرة منظرًا أبدع ، ولا أجمل ، ولا أعلق بالقلوب ، ولا أشهى إلى النفوس من منظر ذلك المكان ، الذي كانوا يسمونه « مخدع فرجيني » ، وهو كهف صغير منحوت في أصل الصخرة الكبرى ، كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع

وكانت تعجبني من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح الأثرية الغالبة على شعورهم وجدانهم ؛ لأنني أعتقد أنها هي بعينها روح الوفاء والإخلاص ، وأن من لا خير فيه لماضيه ، فلا خير فيه لحاضره ومستقبله .

وما زلت منذ نشأت لا أؤثر منظرًا من مناظر الحياة ، ولا مشهدًا من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم ، أثير به في سفرة من أسفاري في بادية منقطعة ، أو صحراء شاسعة ، فأقف بين يديه ساعة من نهار ، وأرى في تويّه وأحجاره ، وصخوره المبعثرة ، وأعمدته المتناثرة ، ونقوشه المحفورة على بقايا جدرانها ، صورة أولئك القوم البائدين ، الذين كانوا يسكنونه ويعمرون عرصاته ومغانيه ، وكأني أسمع في صفير رياحه وعزيف جنه وغيلانه صائحًا يصيح بي :

« لقد كان يعيش في هذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون كما تشعرون ويفكرون كما تفكرون ، ويؤمنون في الحياة الطيبة الهائلة كما تؤملون ، وهم وإن ذهبوا بأجسامهم ، وبخلا وجه الأرض من سمرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملات أسرار حياتهم إلا أرواحهم وآثارهم ، التي بقيت على الأرض من بعدهم ».

هنالك أشعر أنني قد انتقلت من حاضري إلى ماضي ، وأني أعيش في تلك العصور القديمة بين آبائي وأجدادي ، أحدثهم ويحدثونني ، وأقضي إليهم بذات نفسي ، ويفضون إليّ بذوات أنفسهم ، فأقضي على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأني وقد فاضت نفسي شعورك بأن النفس الإنسانية خالدة باقية ، لا تنال منها عاديات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الأيام والأعوام .

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الكلمات أو نقشها على كل ما يقع عليه نظري من الجذوع والأشجار ، والصخور والأحجار ، وكل ما أمر به في طريقي مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء ، كأني كنت أريد أن أمد الأجيال المقبلة بالذكريات

معلقة في الهواء ، أو كأنها تمثال مائل في الفضاء .
و ربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة ،
فغسلتها على حافة النبع ، أو جلست ناحية تحلب
ألبان ماشيتها ثم تمخضها .

وكان پول يختلف إلى هذا المكان من حين إلى
حين كلما أمكنته الفرصة ، فيجلس إلى فرجيني
جلسة هائلة سعيدة ، يغتبطان فيها بتلك العزلة
الهادئة الساكنة ، وذلك المنظر الساحر البديع .

وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورهما
وغبطتهما منظر الطيور البحرية وهي مقبلة من شاطئ
البحر الهندي مع الظلام زُمراً زُمراً ، ترسم في
صفحة السماء خطوطاً مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة
وناقصة ، وتغرد أغاريدها المختلفة الألحان والنغمات
حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضي فيه
سواد ليلها ، فإذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر
رايته البيضاء في آفاق السماء طارت مع أشعته
وأضوائه ، وذهبت من مذهبها حيث تشاء .

وكان پول قد عز عليه ألا تتمتع فرجيني بذلك
المنظر البديع الرائق في جميع أوقاتها ، فأخذ ينقل
إلى الأشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات
القرية فراخ الطير في أعشاشها فيتبعها أمهاتها . وما
هي إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها في الروض
الأريض^(١) موطناً جديداً تروح إليه وتغدو ، فأنست بها
فرجيني أنساً عظيماً ، وعطفت عليها عطف الأم
الرءوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها ،
وتحمل لها في حجرها حبوب القمح والذرة ، فتنتثرها
بين يديها . فإذا رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت
إليها من أوكارها وأعشاشها صادحة مترنمة ،
وحامت فوق رأسها لتلقط الحب من يدها مرة ومن
الأرض أخرى ، فيكون منظرها في اختلاف ألوانها
وتَمَعُّجها^(٢) واضطراب حركاتها أشبه شيء بمنظر
الثوب المَقْفُوف^(٣) ، قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه
الحريرية فماج بعضه في بعض ، فظل فرجيني لاهية

غزير صاف ، تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت
مرغريت قد بذرت بذرة إحدهما منذ أربعة عشر عاماً
يوم ولادة ولدها پول ، وبذرت هيلين بذرة أخرى منذ
ثلاثة عشر عاماً يوم ولادة ابنتها فرجيني ، فنبتتا مع
الولدين وسميتا باسميهما . وما ذهبتا مذهبهما في جو
السماء حتى تداخت شعفاتهما واشتبكتا كأنهما
تتعانقان ، وكانت نخلة پول أطول قليلاً من نخلة
فرجيني ؛ لأن پول كان أسن من فرجيني لعام واحد
وأطول قامة منها .

و ربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذي
تركوه للطبيعة ، تذهب في شأنه حيث شاءت من
مذهبها ، دون أن يتناولوه بهتذيب ولا تنسيق ؛ فنبتت
من حول المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان
والأشكال والأحجام والأطوال ، ما بين ضخيم
الجدوع ودقيقها ، ومنتشر الفروع ومجتمعها ،
وضارب في أعماق الأرض ، وذهب في جو السماء ؛
فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها ،
وروائحها ونفحاتها ، ودب بعضها إلى ظهر تلك
الصخرة المشرفة ؛ فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره
ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطاً دقيقة ناعمة ، ترفرف
في الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف
الماء .

و لم يكن شيء من الأشياء أحب إلى فرجيني
وأشهى إلى نفسها من أن تأوي في أوقات راحتها
وفراغها إلى هذا المكان الجميل ؛ لتمتع نظرها
بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء المتفجرة من ذلك
النبع الغزير ، ومرأى تينك النخلتين البديعتين
المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء
المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه « مخدع
فرجيني » .

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت إلى هناك
غنيمات وأعنزها فتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها
أن ترى واحدة منها قد وثبت إلى ظهر الصخرة ،
وقفت على مؤخر أطرافها ، وشرابت بعنقها لتتناول
بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضمًا ، فكأنها

(١) الأريض: كثير النبات، والخير . (٢) التمعج: التلوي والتشي .

(٣) المَقْفُوف: الثوب الرقيق، أو الذي فيه خيوط بيضاء على الطول.

وما لم ينضج ، وما نقل منها إلى الظل ، وما أبقى
تحت أشعة الشمس ، وعن الكروم وعناقيدها ،
والقمح وسنبله ، والذرة وأعوادها .

وتحدثهم فرجيني عن عصارة القصب ، ومنقوع
الشعير ، وشراب الليمون ، وأمثال ذلك من الأشربة
التي تعلمت من أمها صنعها ، واعتادت أن تقدمها
لأسرتها صباح كل يوم ومساءً ، وقد تحدثهم أحياناً
عن حديقتها الصغيرة ، فتظل تصف لهم نبعها
المتفجر الثَّجَّاج^(١) ، ونخلتها الباسقتين المتعانقتين ،
وما نبت حولها من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما
يختلف إلى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير
وجماعاتها ، ليلها ونهارها ، صادحة مترنمة ، كأنها
فرقة موسيقية تتحد نغماتها وتختلف رنائها .

وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة
الملوذة هولاً ورعباً ، كقصّة السائح المسكين الذي
ضل به طريقه في إحدى الليالي الداجية المدهمة
في بعض غابات بريتايا الموحشة ، فخرج عليه بعض
اللصوص من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ، ثم
خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه في أحشاء الغابة . أو
قصة السفينة التي عصفت بها الريح في بحر
الشمال ، وأحاط بها الموج من كل جانب ، وأخذت
عليها جميع السبل ؛ فغرقت وغرق معها ركابها ،
ولم يبق من آثارها إلا بضعة ألواح ألغاهها الموج على
جوانب بعض الصخور النائية ؛ فيتأثر پول وفرجيني
لسماع أمثال هذه القصص تأثراً شديداً ، ويتفجر في
قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء
البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ما تملك أيديهما
أن لو وفقا في يوم من أيام حياتهما إلى هداية سائح
ضال عن طريقه ، أو إنقاذ غريق من مخالب الموت .

وكثيراً ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيكا من
قصص « العهد القديم » وبعض آيات من « العهد
الجديد » فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل
نفوسهم أسى ، وعيونهم أدمعاً ، إلا أنهم ما كانوا
يحقنون كثيراً بتفهم مضامينها ، واكتناه أسرارها ،

(١) الثَّجَّاج: الشديد الانصباب .

بهذا المنظر مفتتنة به ، ويول معتبط باغتهاطها ، راض
عن نفسه برضاها حتى يعودا معاً ساعة الغروب إلى
كرخهما .

وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة
بعيدة جامدة ، كأنما ينظر إلى شبح مقبل عليه ،
فألقيت نظري حيث ألقى نظره فإذا هو محدد في
تلك البقعة التي سماها « مخدع فرجيني » وأخذ
يهمهم كأنما يحدث نفسه ويقول :

أيها الولدان العزيزان ، إن أنس شيئاً فإنني لا
أنسى أيامكما العذبة الجميلة التي ملأتما فيها حياتي
سروراً وغبطة ، وكنتما لي صديقين حميمين ، ما
أنكر منكما ولا تنكران مني شيئاً ، ولا أنكما كنتما
أبّر الناس بي وأحدهم عليّ ، حتى أصبحت أشعر
أنني أعيش بجانبكما في أسرتي بين أهلي وقومي ،
وأن أيام صباي قد عادت لي بوجهها الطلق النضير ،
فسلام عليكم حيث كنتما ، وسلام على عهدكما
البائد الدارس ؛ عهد الصلاح والبر ، والفضيلة
والشرف ، والحب والوفاء !

* * *

(١٣)

ليالي الشتاء

وكان إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء برداً وقرراً ،
وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أحجارها ،
قضوا داخل أكواخهم ليالي سمر جميلة ، يجتمعون
فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح
ضئيل ، يلقي أشعته الصفراء الخفاقة على ما نيط
بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير ،
وما كُدس في أركانه من حقائب وجوارق وقرب
وروايا ، فترى كأنها الأشباح الجاثمة ، أو الوحوش
الرابضة ، فيتحدث پول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته
وثمراته ، وأحواضه ومستنبتاته ، وما نضج من أزهارها ،

لبعض غيومه القاتمة أن تلم بمسائهم الصافية فتغشي صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فإذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أو هم ، رأيت الباقيين قد أحاطوا به وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من دونه بالذي أصيب به ، ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه ، حتى ينتزعوا الهم من بين جنبه انتزاعاً ، فإذا هو بارئ سليم ، كأن لم يشك قبل اليوم همًا ولا ألمًا .

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة في كنيسة « مَبلَموس » ذات القبة العالية ، التي تراها هناك في وسط ذلك السهل الفسيح ، مشاة على أقدامهم ، لا يشكون تعبًا ولا نصبًا ، فإذا وصلوا إليها رأوا كثيرًا من الأثرياء وأرباب النعمة مقبلين في هوداجهم المحمولة على أعناق عبيدهم في رونق بديع ، يملأ العين بهجة ، والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم ، ولا يكتثرون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو يجيبوا داعي مودتهم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن القوي لا يمنح الضعيف وده ومجته إلا لبيتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ، ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأثره ، ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا من ذلك شيئًا .

كما أنهم يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ؛ ضئًا بنفوسهم أن يسري إليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ويغشي لألاءها ^(١) ؛ فاتهمهم الناس بالضعف مرة وبالكبرياء أخرى ، ومضوا معهم على ذلك عهدًا طويلًا حتى عرفوهم حق المعرفة ، واستشفوا سريرة نفوسهم ؛ فعملوا أنهم أشرف من هذا وذلك ؛ فإنهم ما كانوا يرضون بأنفسهم أن يلقوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس ، فيسألهم حاجة من الحاج ^(٢) ، أو يستعين بهم على

كأنما كانوا يشعرون أنفسهم أنهم أغنياء عن هذا كله ، بما وهبهم الله من إيمان فطري بسيط لا يحتاج إلى تفسير ، ولا توضيح ، ومن يقين راسخ في أعماق قلوبهم ، يثلج صدورهم ، ويملاً فضاء نفوسهم راحة وسكينة ، حتى كان يخيل إليهم أحيانًا أن الفضاء الذي بين أيديهم إنما هو معبد مقدس ، يصلون لله في أية بقعة من بقاعه شاءوا ، ويرون الله في أي مطلع من مطالعه أرادوا . فكان الطبيعة بين أيديهم لإنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة مقام الآيات المتلوة ، والبراهين الحسية مقام البراهين التوفيقية المقررة .

وهل الرحمة الإلهية إلا تلك الثمرات التي نبتت لهم في أرض مقفرة مجدبة ، لا ينبت مثلها غير الجهد والشقاء ؟ وهل القدرة الربانية إلا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التي اختلفت أوضاعها وأشكالها وطعموها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ؟ وهل العناية الصمدانية إلا ذلك التوفيق الغريب ، الذي ضم بعضهم إلى بعض ، على بعد دارهم واختلاف مواطنهم ؟ فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متألقة ، يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الأهل والوطن والمال والنسب .

وكانت تجري بينهم تلك الأحاديث والطبيعة خارج الكوخ هائجة صاخبة ، تجلجل رعوها ، وتعصف رياحها ، وتتدفق سيولها ، وتصخب أمواجها ؛ فيحمدون الله تعالى على أن كفاهم شرورها وويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الأمين ، الذي يفزعون إليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السنة أن تخالط أجفانهم ؛ فينسلوا إلى مضاجعهم ويناموا فيها نومًا هادئًا ساكنًا ، لا قلق فيه ولا اضطراب ، ولئن كان صحيحًا ما يقولون من أن لكل امرئ في الحياة يومين ؛ يوم يؤس ويوم نعيم ، لقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعًا يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسهم إلا بما يحبون ويرتضون .

وكان الدهر يأبى عليهم أحيانًا إلا أن يُجري حكمه فيهم كما يجريه على الناس جميعًا ، فيأذن

(١) اللألاء: الضوء والنور . (٢) جَمَعَ حاجة .

نفسها : « يخيل إليّ وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطخب أنني أرى بين كل موجتين قبراً محفوراً ! » ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها ، وتثوب إلى رصدها وتستأنف سرورها ومرحها ، فيدعوها پول إلى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التي لا هُجر فيها ، ولا يشوبها عار ولا إثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة ، لا أزال أذكر منها حتى اليوم قطعة « البحر الزاخر » التي يشي فيها قاتلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر البَيْس ، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ، وينعى نعيًا كثيرًا على أولئك الذين يدفعهم شربهم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه ؛ طلبًا للثراء الواسع ، والمال الكثير بدلا من بقائهم في أوطانهم بين أهليهم وعشيرتهم، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق .

وكان يخطر لفرجينى أحياناً أن تمثل بعض الروايات القصيرة التي سمعتها من أمها ؛ فتظهر على مسرح الشاطئ الرملي حاملة جرتها على رأسها ، كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء ، حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج وماري ومرغريت في طريقها ، كأنهم رعاة مَدِينٍ يحولون بين ابنة شبيب وبين البئر ، فيلمحها پول على البعد فيسرع لنجدها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق ، كما فعل موسى ، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الأحمر ؛ لتضع الحجر فوقها ، فكأنه يكللها بإكليل الزواج ، فأقوم أنا بتمثيل دور «شبيب» وأزوّج ابنتي «صفورة» من الفتى «موسى» .

وأحياناً كانت تمثل دور البائسة «راعوث» ، حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة لا أهل لها ولا رحم ؛ فتظل سائرة في طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين ، وكان يمثلهم دومينج وماري ومرغريت ، يحصدون في مزرعتهم ، فتنبع خطواتهم ، وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتبلغ بها فيراها پول ، وهو يمثل دور «بوعز» أحد نبلاء المدينة ، فتدركه رقة لها فيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها ، فترتد بين يديه ،

كارثة من كوارث الدهر ، أو يدعوهم إلى زيارة مريض ، أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الأكواخ القذرة الويئة لزيارة المرضى ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين .

فإذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلاً وعللوه كثيراً وحاطوه بعطفهم وعنايتهم ، فتقدم له مرغريت الدواء ، وفرجينى الابتسامات ، وهيلين التعزية ، ويول النصائح الطبية ، فكانوا يعالجون في آن واحد نفسه وجسده ، ثم يعودون وقد خالطت نفوسهم عاطفتان مختلفتان ؛ عاطفة الحزن على أولئك المعذبين المتألمين ، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم وتهوين آلامهم .

وكان منزلي على مقربة من تلك الكنيسة ، ليس بينها وبينه إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صعداً حتى يصل إليه ، فإذا قضوا حاجتهم من مؤاساة البائس ، وتعليل المريض ، وتعزية المنكوب ، سلكوا تلك الطريق إلى منزلي ؛ ليقضوا عندي بقية يومهم ، فكنت أعد لهم الغداء على شاطئ جدول صغير تحت ظلّة دانية من شجر الموز . وكان غداؤنا بسيطاً جداً ؛ لا يزيد على ما يقذفه إلينا البحر من أسماك ، وما يسقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به في فضاء الجو من سارح أو بارح . وربما ضممنّا إليه شيئاً من التوابل والأفاويه المركبة من الأعشاب الهندية الحارة ، فإذا قضينا غداًنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطئ البحر ؛ لنمتّع أنظارنا برؤية أمواجه ، وهي مقبلة علينا يتلو بعضها بعضاً حتى تنكسر تحت أقدامنا ، ثم تنبسط قليلاً على ذلك الشاطئ الرملي الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن .

وكان پول إذا رآها مقبلة فرّ من بين يديها كأنه طريقها الذي تطلبه ، وربما تلتكأ في جريه عمداً حتى تدركه فإذا هو مكفن في كفن صاف من نسيجها الأبيض ، فصرخ فرجيني حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى ، كأن الأمر قد بلغ عندها مبلغ الجذ ، أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين

تفر إليها من وحشة الظلام وهوله ، وإذا كل شيء صامت جامد إلا ما كان من جرجرة الآذي^(٢) تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلوق الوحوش الضارية ، فنجمد أمام هذا المنظر الرهيب ساعة ذاهلين مستغرقين ، وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملأ الأعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود إلى أنفسنا فيودع بعضنا بعضاً ، ثم نفرق إلى أكواختنا .

* * *

(١٤)

آدم وحواء

نشأ پول وفرجينى في هذه الجنة الأرضية ، منشأ أبوين الأولين في جنتهما السماوية ، فكان پول مثال آدم ، له قامة الرجل وشطاطه^(٣) ، وبساطة الطفل وسذاجته ، وكانت فرجينى مثال حواء لها جمال الأنوثة وحلاوتها ، ودعة النفس وعدويتها .

وكانا يعيشان في معتزلهما هذا حرين مطلقين ، لا يسيطر عليهما مسيطر من تلك القيود التي تسيطر على عقول الناشئين وضمايرهم ، في تلك البلاد التي يسمونها بلاد الحرية والطلاقة ، ولا تسجنهما العلوم والمعارف في سجنها الضيق المظلم ، الذي يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب في فضاء الكون كما يشاءن .

و لم تكن لديهما ساعة لمعرفة أوقات الليل والنهار ، ولا تقويم لمعرفة الفصول والأعوام ، ولم يتلقيا درساً واحداً في علم الهيئة ، ونظام الكواكب والنجوم ، ولكن الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ما تمنح العلوم والمعارف أمثالهما ؛ فاستأننا بالأنشعة والظلام على معرفة الأوقات ، وينضوج النبات وظهور الأنمار وتلون الأزهار على معرفة

وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج ، فتذرف عيناه الدموع ؛ رحمة بها ومراة لها ، ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة في منتداهم ، ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها .

وهنا تذكر هيلين حياتها الأولى ، وأنها كانت أشبه شيء بحياة تلك الفتاة الإسرائيلية المسكينة ، وأنها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل ما لقيت ، وكابدت من آلام الحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكي بكاء طويلاً .

ثم لا تلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التي ختمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلاً ، وتتفأدل خيراً لا يبتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد .

وجملة القول إننا كنا نتمتع في ذلك اليوم بجميع ما يتمتع به السعداء في منتدياتهم ومجمعاتهم ومعاهد أنسهم ولهوهم ، من أكل وقصف^(١) ، ورقص وتمثيل ، ولعب ومزاح ، لا فرق بيننا وبينهم إلا أننا لا نزخرف المسرح الذي تنتقل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطئ ، والصحراء والسماء ، والكواكب والنجوم ، والنبات والعشب ، وهدير الأمواج وزفيف الرياح ، ودمدة الرعود كما يزخرفون ؛ فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالاً .

ولا نزال هكذا حتى تدنو ساعة الأصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع على قمة الجبل متوهجاً كاللهب الأحمر ، فيظل ينثر ذراته الذهبية في عرض الفضاء ، وتظل قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان ، كأنها الدنانير المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر في سكون ذلك الجو وهديره إلى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ، ويخيل للناظر إلى الجدوع المائلة كأنها بقايا بركان قديم قد غمرها في سالف العهد ، ثم انحسر عنها فإذا هي أعمدة صدفئة من البرنز القاتم . ثم لا يلبث الظلام أن يمتد وينبسط فإذا الفضاء سكون وحشة ، وإذا البحر خشية وجلال ، وإذا الطير حائمة على أوكارها ،

(٢) الآذي: موج البحر . (٣) الشطاط: الطول وحسن القوام .

(١) اللقص: اللهو واللعب ، والافتنان في الطعام والشراب .

أنك أنضر منها حسناً وأطيب أريجاً . فإذا غبت عن ناظري وراء أكمة من الأكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذي أنت فيه ؛ لأنني أشعر أن موجة من النور تحيط بك حيثما ذهبت وأنى حلت ، فإذا برق لي شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادي ؛ فلا أحتاج للسؤال عنك . فإذا رأيتك وأنت عائدة إلى المنزل خيل إليّ لجمال مشيتك ورشاقة حركاتك ، كأنك قطاة تنتقل على بساط الخضرة ، وأنت موشكة أن تستقلي بجناحك في جو السماء .

« إنك كل شيء يا فرجيني ، إنك حياتي التي لا أستطيع أن أعيش بدونها بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة . إن زرقه عينيك أصفى من زرقه السماء ، وإن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذي يحول في أديمك لهو الكوثر الذي يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان .

« أسمع صوتك الذي هو أشبه شيء بصوت الطائر الغرد فيخفق قلبي خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدي في يدك فتنبعث في جسمي رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور ! » أ تذكرين يا فرجيني يوم حملتك على ظهري واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ، ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشرير ؟

« لقد كنت في ذلك الوقت تعباً وهائلاً ، ولكنني ما شعرت بملامسة جسمك لجسمي ، حتى خيل إليّ أنني قد استحلّت إلى طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت عليّ في تلك الساعة أن أطيّر بك في آفاق السماء لفعلت !

« لا أستطيع أن أفهم ما هذا الذي يؤثر عليّ منك يا فرجيني ؛ فإنني لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وأنس بك ، فلم أضطرب حين أراك ، ولم أرعد حين يلمس جسمي جسمك !؟

« إنك لا تستطيعين أن تحبيني كما تحبيني أمي ، أو تعطيني عليّ عطفها ، أو تقاسميني همومي وآلامي مقاسمتها ، ولكنني أشعر أن الذي أضمره لك من

الفصول ، وبعدد ما غرسا من الأشجار على عدد ما مر بهما من السنين والأعوام ، فكانا يقولان : « قد حان وقت الغداء . » إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها ، و « قرب الليل . » إذا التفت أوراق التمر الهندي على أثمارها .

وكانا إذا وعدا أحداً بزيارة ، جعلاً ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج أثمار النارج ، وإذا سئلت فرجيني عن عمرها أجابت : « قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربع عشرة مرة ، وأشجار البرتقال ثمانية وعشرين . »

وإذا سئل پول بكم يكبر فرجيني^(١) أجاب : « بمقدار ما بين النخلتين المائلتين على حافة النبع . » كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما إلهان من آلهة الحقول التي تعيش بينها وترعاها .

فكانا لا يعرفان تاريخاً غير تاريخهما ، ولا يطالعان مصوراً غير مصور جزيرتهما ، ولا يقرعان كتاباً غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامهما ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى في كل ما يأخذان وما يدعان .

وكانا إذا خلوا بنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لا يتكلفان فيها ولا يتعملان ، ولا يحاولان أن يضعا حجاباً بين ما يدور في سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما .

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران بمكانتي ، وكان پول قد عاد من عمله ساعة الغروب ، فرمى بفأسه وحقيبتيه إلى الأرض ، وجلس إلى فرجيني يقول لها :

« إنني لأراك يا فرجيني وأنا متعب مكدود ، ما أكاد أنماسك ؛ فأنسى تعبتي وشقائي ، وكأنني لم أحمل في يومي فأساً ، ولم أفلح أرضاً ، وربما وقع نظري عليك وأنا على قمة الجبل وأنت في سفحه ، فيخيل إليّ أنك ورده بين الورود النابتة حولك ، إلا (١) يكبر فلان فلانا ؛ يزيد عليه في العمر .

وامتزاج أنفاسي بأنفاسك .

« إنني أحب والدتي حباً جماً ، ولكنني أحبها أكثر من كل وقت في الساعة التي أراها تنحو عليك فيها وتضمك إلى نفسها وتدعوك : يا ولدي . وربما غفرت لها إغضاءها عني أحياناً ، ولكنني لا أستطيع أن أغفر لها إغضاءها عنك .

« إنك تسأل في نفسك : لِمَ تحبني أكثر من كل شيء في العالم ؟ أما أنا فإنني أحبك هذا الحب نفسه ، ولكنني لا أسأل نفسي عن سبب ذلك ؛ لأنني أعلم أن الطائرين اللذين ينشأن في منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان ويتألفان ، حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة .

« انظر إليهما ، ها هما يتصايحان ويتهافتان على بعد ما بينهما ، كأن كلا منهما يقول لصاحبه : تعال إلى جانبي ولا تفارقني ؛ فإنني لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيداً عنك !

« كذلك نحن يا بول نشأنا في منشأ واحد ، ورضعنا ثدياً واحداً ، ونمنا في مهد واحد ، وابتدنا في حوض واحد فأصبحنا شخصاً واحداً ، فإذا افرقنا ساعة ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه ، أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتي في سفحه ، كما يفعل ذلك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتى نلتقي .

« تقول إنك أحببتني منذ ذلك اليوم الذي رأيتني فيه أعطف على تلك الجارية المسكينة ، وأنا أقول لك إنني أحببتك من ذلك اليوم نفسه ؛ فإنني لا أستطيع أن أنسى أنك أوشكت أن تخاطر بنفسك في سبيلي ، حينما عزمت على مقاتلة الرجل الشرير من أجلي ، بل خاطرت بها فعلاً حينما حملتني على ظهرك وأنت تعب مكدود ، واجتزت بي ذلك النهر الزاخر المتدفق ، لا تعلم أ تصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك .

« إنني أجتو كل يوم بين يدي ربي أسأله الرحمة لأمي وأمك وماري ودومينج ، حتى إذا مر ذكرك على لساني ارتعشت شفتاي ، وشمعت كأنني ارتشف

الحب والعطف فوق الذي أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامي الطريقان ؛ طريقي إلى الكوخ فلم أنتبه إليه ، وطريقي إليك فجئتك دون أن أشعر بما أفعل أو أعرف لذلك سبباً .

« ما أحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هي السبب في ذلك ، فإن أنسى لا أنسى صورة ذلك الألم الشديد الذي ارتسم على وجهك يوم جئت لك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها ، ولا تلك الدموع الغزار التي ذرفت رحمة بها وإشفاقاً عليها ، ثم ما خاطرت به بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها في سبيلها .

« إنك طيبة القلب يا فرجينيا ، إنك تحبين الخير للخير ، لا تطلبين عليه جزاء ولا أجرًا ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم جميع الناس .

« تعالي إلى جانبي وخذي هذا الغصن الأخضر الذي قطعت لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى ، وضعيه حين تنامين تحت سريرك ؛ فإنه يملأ لك فضاء الكوخ عطرًا وشذى . وخذي هذا القرص من العسل ، فقد عثرت به في جوف صخرة عالية في قمة الجبل ، وسيكون فطورنا في الصباح شيئاً جميلاً .

« تعالي إليّ يا فرجينيا ، وضعي رأسك على فخذتي ؛ لأشعر بالراحة من جميع متاعبي وآلامي ، وتحدثني إليّ قليلاً ؛ فحديثك غذاء نفسي وراحة ضميري .»

فتخرج مندليها من جيبتها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها على فخذها وتظل تقول له :

« أ ترى يا بول منظر هذه الأشعة الصفراء الساقطة على رؤوس الصخور وذوئب الأشجار ؟ ومنظر ذلك الشفق الأحمر الممتد على حافة الأفق ، وتلك اللآلئ اللامعة الجميلة ، المنتشرة على سطح الماء !؟

« إنها جميلة جداً ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث السرور إلى نفسي كما يبعثه جلوسي بجانبك ،

المرأة الفارغة تشعر بتغيير في جميع حالاتها الجسمية إذا بدأت بذرة الجنين تنمو في أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغيير في جميع حالاتها النفسية إذا أحست بدبيب الحب في قلبها . وربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام .

لقد كانت فرجينى تجهل في مبدأ أمرها حقيقة الحال التي طرأت عليها ، ولا تفهم منها شيئاً سوى أنها قلقة مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الأول ، ولا تجدد في الجلوس إلى أسرتها ولا في الذهاب إلى « مخدعها » الراحة التي كانت تجدها من قبل ؛ فكانت تهيم على وجهها في القفار والغابات وضفاف الأنهار وقمم الجبال ، ما تكاد تستقر في مكان واحد .

فإذا وقع نظرها على پول في بعض غدواتها أو روحاتها ، طارت إليه فرحاً وسروراً ، ويسطت إليه يدها لتعانقه ، فإذا دانت انقلبت فجأة من سرور إلى حزن ، ووقفت في مكانها جامدة جمود الدمية في محرابها ، يتلهب وجهها حمرة ، ويرفض^(١) جنبها عرقاً !

فيعجب پول لشأنها ، ويظل يقول لها : « إن الخضرة اليوم زاهية جداً ، وإن الشمس ساطعة متألقة ، تضيء كل شيء حتى الأنفاق والأغوار . وكل ما في الوجود ضاحك مستبشر ما عداك يا فرجينى . فهل لك أن تتحدثيني ما الذي أَلَمَّ بك ؟ وما هذه الغبرة القاتمة التي تلبس أديم وجهك ؟ »

ثم ينقض عليها ليضمها إلى صدره كعادته ، فتجلس^(٢) من بين يديه إملاساً ، وتركض هاربة إلى أمها لتضع رأسها في حجرها ، فيظل پول واقفاً مكانه يعجب لأمرها عجباً شديداً ، لا لأن الذي يضمها من الحب أقل من الذي تضمه له ، ولا لأن نفسه خالية من الهم الذي يخالط نفسها ؛ ولكن المرأة ضعيفة خائفة ، لا تملك من الصبر والجلد بين أيدي النكبات النفسية التي تنزل بها ما يملك الرجل . فإذا أحبت لأول عهدها بالحب ،

على الظمأ جرعة باردة ، ما خلق الله أهنأ ولا أطيب منها !

« لِمَ تتسلق الصخور من أجلى يا پول ؟ ولِمَ تجشّم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذي تكابده طول يومك ؟ إنني لا أفكر في شيء وأنت غائب عني سوى أن تعود إليّ سالماً موفوراً ، فإذا رأيتك كنت أنت الهدية الثمينة التي تقدمها إليّ ، وتستحق من أجلك شكرى وحمدى . »

* * *

(١٥)

الخفقة الأولى

ما لفرجينى حزينة مكتئبة ، لا تضيء الابتسامات ثغرها كما كانت تضيئه من قبل ؟

ما لها واجمة صفراء ، تمشي مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأنها من هموم الحياة الثقالة يملأ ما بين جانحيها ، ولا هم هناك ولا حزن ؟ ما لها تلجأ إلى العلوّات والمعتزلات ، وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد الذي هو أعز عليها من نفسها التي بين جنبيها ؟

ما لهذه الخضرة الزاهية البديعة ، وتلك السماء الصافية المتألقة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظر الشمس في طلوعها وغروبها ، والطير في غدوها ورواحها ، لا يرونها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسري عنها همومها ، كما كان شأنها قبل اليوم ؟

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة إلى حياة الهموم والأكدار .

نعم قد تحولت الصداقة في قلب فرجينى إلى حب ، وللحب شأن غير الصداقة وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها . وكما أن

(١) رَفَضَ: سال وترشّش . (٢) اِمْلَسَ: اَلْتَمَسَ .

وعجز الكرى عن أن يلم بأجفانها فنارت من مكانها متململة وأخذت سمتها إلى مخدعها ؛ عساها أن تجد فيه ما يروّج عن نفسها ، وكان القمر لا يزال يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها أنها لم تجد من جدولها المترع المتدفق إلا خيطاً دقيقاً يلمع في ضوء تلك الأشعة الباهتة ، كأنه ثعبان ممدود يتقلب على حرة^(٣) سوداء ، ثم مشت إلى حوضها الصغير الذي اعتادت أن تستحم فيه ، فلم تجد فيه إلا ضحوضاً من الماء ما يكاد يغمر جسمها ، فخلعت ملابسه ونزلته ، فاستطاعت أن تجد قليلاً من الراحة .

وكان أول ما مر بخاطرها في تلك الساعة ، بعد أن عادت إليها نفسها ، ذكرى تلك الأيام الماضية التي كانت تستحم فيها مع بول وهما طفلان صغيران في هذا الحوض الصغير ، وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عارين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ، ويتسلقان النخيل والأشجار ؛ ليقطعا أغصانها أو يجنيا ثمارها .

ثم ألقت رأسها على صدرها فأرت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريتين ظل النخلتين المسامتين باسمها واسم بول ، وقد طالت عثاكيلهما^(٤) ، وانتشرت سعفاتهما ، وكبر جوزهما ، ولصقت كل منهما بالأخرى لصوقاً شديداً ، فأثار ذلك المنظر في نفسها شعوراً غريباً لم تستطع أن تفهمه ، ولا أن تفهم ما الذي يقلقها منه ، فلم تطق البقاء في مكانها لحظة واحدة ، فنهضت إلى ثوبها فأسبلته على جسمها ، واندفعت راکضة إلى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطاً شديداً ، كأنما تريد أن تبثها ألها ، وتفضي إليها بسرّها فلا تستطيع ، ويحاول أن تنطق باسم بول فيحتبس لسانها في فمها ، ثم لا يلبث ذلك السعير المتأجج

(٣) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود ، كأنها أحرقت بالنار .

(٤) العثاكيل جمع عثكول: وهو في النخل بمنزلة العقود في الكرم .

وكانت شريفة فاضلة ، خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون والنخل ، وما هي بجنون ولا نخل ، ولكنها حيرة النفس وضلالها !

ولم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر ، وهو الشهر الذي تشتد فيه حرارة الشمس في تلك المنطقة اشتداداً عظيماً ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية ، كأنها السهام المنبعثة من أقواسها ، وتنقطع عنها ربح الجنوب التي تعادها طول العام ، وتهب عليها بدلا منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها زلزالا ، وتطير بما شئت من معالمها ومجاهلها ، وتُشقق ما أرادت من أطرافها وأنحائها ؛ فيثور الغبار ملتقاً في جو السماء ، ثم يجمد في مكانه ما يتزحزح ولا يتحلل ، كأنه العمد^(١) المنتصب .

و تصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها آتت^(٢) مشتعلة ، تنفث أوارها من حولها فتلتهب الأجواء بالتوائها ، حتى ما يستطيع متنفس أن يتنفس إلا زفيراً ، ولا مستنشق إلا شواطأ ولهيباً ، وحتى ما يجد المبرد ضحضاح ماء في غدير من الغدر أو خليج من الخلجان يتردد فيه ، ويزحزح عن عائقه ذلك القميص الناري اللاصق به .

و تتساقط الماشية في ظلال الأشجار وفي سفوح الجبال ، واهنة متضعضة ، مادة ألستها إلى السماء كأنها أيد ميسوطة بالدعاء إلى الله تعالى أن يوجد عليها بقطرة تبل غلتها ، وتطفئ لاعجها ، وكأن ثغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة ! فإذا أقبل الليل عجزت يده الباردة الندية أن تخفف شيئاً من لهيب ذلك الأتون المستعر ، وظهر القمر في أفق السماء أحمر كامداً كأنه الوجه المضطرب بالدم ، ثم يمشي في طريقه متثاقلاً متطالماً ، كأنما هو يسبح في لجة عميقة من السحب المحيطة به .

في ليلة من تلك الليالي الداجية السوداء عجزت فرجينى عن أن تأخذ لنفسها راحتها في مضجعها ،

(١) العمد: جمع عمود . (٢) الآتت: موقد النار، والمفرد: آتون .

والأغوار ، والبطون والوهاد ، فذعر پول و فرجيني لمنظر الأشجار الساقطة ، والجدوع المتهاقنة ، والأغصان المتناثرة ، والأزهار المبعثرة ، كأنهم يشهدون أطلالاً بالية قد عصفت بها وساكينها أيدي الحدثان ، وعوادي الزمان .

وخطر لفرجيني أن تذهب لزيارة حديقتهما لترى ما فعلت تلك الحوادث بها ، فعرض عليها پول أن يصحبها ، فسارا معاً حتى أشرفا عليها ، فإذا هي قفر يباب ، لا شجر ، ولا طيور ، ولا أعشاب ، ولا جداول ، ولا غدران ، إلا ما كان من تلك البلبال الضاوية الواقعة على ذوائب بعض الأشجار ترعد برداً ، وتغرد تغريداً شجياً ، هو بالأنين والبكاء أشبه منه بالترجيع والغناء .

فأطرقت فرجيني إطراقة طويلة ، ثم رفعت رأسها والتفتت إلى پول ، وقالت له :

« لقد ضاعت كل آمالي في الأرض يا أخي ، فلم يبق لي إلا أمني في السماء ! لقد غرست تلك الجنة الزاهرة ، وأجريت في خلالها الجداول والغدران ، وأنشأت في أنحائها ما شئت من الحظائر لماشيتي ، والأعشاش لطيطوري ، وكانت أنسي وراحتي ، وملجأ همومي وأحزاني .

« وها هي أيدي الحدثان قد عصفت بها ، وعفت رسومها ومعالمها ، ومحت سطورها من كتاب الدهر ، كأن لم تغنْ بالأمس ، فلم يبق لي ما أنس به في هذا العالم ، ولا ما أسكن إليه ، فلا أطلب لنفسي سعادة غير هذه السعادة ، في عالم غير هذا العالم لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ، ولا تنال منه أيدي الصروف والغير .»

فاضطرب پول عند سماع هذه الكلمات ، وسرت في نفسه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره ، فصمت هنيهة ، ثم التفت إليها وقال لها :

« هوني عليك الأمر يا فرجيني ، فكلما يعرض الموت على الحياة تعرض الحياة على الموت ، وأعدك وعداً صادقاً أن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترين عما قليل خمائلك ، وأشجارك ، ومياهك ،

في صدرها أن يستحيل إلى زفير فشقيق فبكاء ، فتذرف من دموعها ما شاء الله أن تذرف حتى يهدأ ما بها ، وأمها صامته ساكنة ، تفهم كل شيء ، ولا تقول شيئاً سوى أن ترفع نظرها إلى السماء ، سائلة الله تعالى بنظرها السابحة في ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة ، وأن يقيها العثرات والزلات .

و لم يزل الحر آخذك في اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة ، ما زالت تتكاثف وتتجمع حتى انعقدت في سماء الجزيرة ظلة سوداء ، فاحتجب قرص الشمس ، وتلفعت الجبال والهضاب والرؤى والآكام بأردية بيضاء من الضباب ، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين .

ثم ما لبث الرعد أن قصف قصفاً شديداً دوت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق يرسل شرارته الحمراء في خلال السحب الكثيفة المتراكمة ، فأثار بعضاً منها ، وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار غرار سالت بها الأودية والقيعان ، وسبحت فيها الرى والهضاب .

وما هي إلا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحراً عجائبا ، يُعب^(١) عبابه وتصطبغ أمواجه ، اختفى كل شيء من هوائيه وأعلامه ، وأطمه وذراه ، ولم يبق طافيك منه على سطح الماء إلا تلك الربوة العالية التي يرفرف فوقها العلم الأبيض ، علم الاستكشاف ، فكان منظرها في وسط ذلك البحر العجّاج منظر السفينة المضطربة ، في أيدي الأمواج السائرة ، فصعدت إليها تلك الأسرة المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفي زروعها وضروعها .

و ظلت الحال على ذلك عدّة ساعات ثم هدأت العاصفة وركت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض الأشعة البيضاء في أنحاء الفضاء ، وأخذ پول ودومينج يفتحان للمياه المتراكمة شعاباً ممتدة في أطراف الحوض تنحدر منها إلى البحر ، حتى لم يبق منها بعد ساعة إلا ما ركد في الحفائر

(١) عَبُّ الْبَحْرِ: ارْتَفَعَ مُوجُهُ وَاصْطَفَبَ .

الخلفة الأولى ١٤٧

ولقد طال هذا الأمر بينهما ، وأصبحت حياتهما غريبة مضطربة ، لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يوماً من الأيام بهيلين ، وقالت لها :

« لم لا نزوج بول من فرجيني ؟ قد بدأ يشقيان في عيشهما ، وأخاف أن يمتد بهما الأمر إلى ما هو أعظم شراً من ذلك . وعندي أنه متى تكلمت الطبيعة وجب الإصغاء إليها والإذعان لها . وما شقي الناس هذا الشقاء الذي نراهم يعالجونه كل يوم إلا لأنهم تمردوا على الطبيعة ، وخلعوا طاعتها ، وسوّلت لهم نفوسهم السير في طريق غير طريقها . »

فقالت هيلين : « إن الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غداً إن قسم لهما أن يلدوا أولاداً كثاراً في قفرة مثل هذه القفرة ، لا يعين المرء فيها على العيش غير المال ؟ »

« إننا كابداً أعظم ما يكابد امرؤ في العالم من عناء وشقاء في سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما - وهما ضعيفان ساذجان ، وقد رحلنا عنهما إلى عالمنا الآخر الذي ينتظرنا ، ورحل معنا دومينج وماري - بقوة تعينهما على أمرهما ، وأمر حياتهما العائلية المستقبلية ؟ »

« وإن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحت أشعر منذ أعوام بالآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمي ، وأرى أنني أسير سيراً حثيثاً في تلك الطريق التي يسير فيها الذاهبون إلى حفائهم ، وأن-ليس بيني وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخاً هرمًا ، لا يكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت ماري مقربة من ذلك ؛ فلا يبقى لهما مساعد ولا معين . »

« والرأي الذي أراه أن نباعد بينهما ، فنرسل بول إلى بعض أصقاع الهند ؛ ليتجر فيها بما يتجر به الأوروبيون المنتشرون في تلك البلاد ؛ عله يتلهم عن فرجيني بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك ما يعينه على أمرها وأمره غداً . »

ثم اتفقتا على أن تستشيراني في هذا الأمر ، فأشرت عليهما بما رأتا ، وقلت لهما :

وظلالك ، وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الأول ؛ فيعود لك أنسك واغبتاطك ، وسرورك وابتهاجك . »

فرفعت طرفها إلى السماء وظلت على ذلك ساعة ، كأنما تحاول أن تطير بروحها إلى ذلك الملاء الأعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له :

« أتدري ما هو خير من هذا كله يا بول ؟ »

قال : « لا . »

قالت : « إن لسميكت بول » الرسول عندي منزلة لا تعدلها منزلة أخرى ، وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها في أطواء ثيابك ، فرجائي إليك أن تهديني إياها . »

قال : « لا أحب إليّ من ذلك . »

وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظلّيم ليأتي بها ، وهي صورة أثرية قديمة ، كانت تحملها مرغريت في قلابتها منذ زمن بعيد ، فلما ولدت ولدها بول ، ورأت في ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته باسمه ، وناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظه من عدايات الدهر ، وغوائل الأيام . ولم يزل حاملاً إياها حتى كبر وأينع ، فاحتفظ بها في صندوقه ، بين ملابسه ، كأعز شيء لديه حتى سمع فرجيني تقترح عليه أن يهديها إياها ، فلم يكن شيء من الأشياء أحب إليه من أن يفعل راضياً مغتبطاً . وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بها طائراً فرحاً فقدمها إليها ، فسرت بها سروراً عظيماً ، وجرى ماء البشر في وجهها طلقاً غداً ، وقالت له :

« ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم عندي ما حييت ، ولن تفارق عنقي قط حتى الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، ولن أنسى أبداً الدهر أنك قد أهديت إليّ الشيء الوحيد الذي تملكه . »

فحنا عليها ، وهم أن يحضنها إلى صدره ، فأفلتت من يده برفق ، وركضت هاربة إلى حجر أمها كعادتها ؛ فوقف بول في مكانه حائراً مكتئباً مذهولاً به كل مذهب ، تعبت بعقله الوسواس والأوهام .

فوقفت بين يدي هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرقاً وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئاً ، ولا أنكر عليه أمراً ، ولا أفضي إليه بسر ذلك المقترح الذي اقترحه عليه ؛ ضناً به أن يهلك يأساً وجزعاً .

* * *

(١٦)

الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتاباً لهيلين من عمته ، تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها في الماضي من قسوتها عليها ونبوها بها وأطراحها إياها ، وإنها قد بلغت السن التي تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوي رحمها يخفف بجانيها ؛ لأنها تعيش في بلد لا أهل لها فيه ولا رحم ، فهي تقترح عليها أن تحضر إليها بنفسها ، فإن حال دون ذلك حائل أرسلت إليها ابنتها بدلاً منها لتكون بجانيها في ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت على أن توصي لفرجينى بجميع ثروتها من بعدها .

فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة والعجب ، وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر ؛ فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها عنهم ، وأن ذلك الوادي سيقتفر منها ، ومن فواضلها وأيادها بعد ما عمرته أعواماً طويلاً ، فوجمت مرغريت وأطرقت فرجينى ، وجمد پول مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومينج وماري ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها مذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ، ثم التفتت هيلين إلى مرغريت باسمة وقالت لها :

« هدي روعك يا صديقتي ، فإني لن أفارقك قط ، وما أحسبني مستطاعة ذلك لو أردته ؛ فقد سعدت بك برهة من الزمان ، لا أستطيع أن أنساها أو

» إن في هذه الجزيرة وفيما حولها من الجزر كثيراً من السلع التي تتفق نفاقاً عظيماً في الأسواق الهندية ، كالقطن والآنوس والأصبغ وما إليها ، فإذا سافر پول بها فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغربية فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده ، رجوت له في مستقبل حياته خيراً كثيراً .

فعهدتا إليّ أن أفاتحه في هذا الشأن ، فخلوت به ذات يوم ، وأنشأت أحدثه حديثاً طويلاً عن التجارة وفضائلها ومزاياها ، وعن الضرب في آفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت إليه بذلك المقترح فأصغى إليه ، وهو صامت واجم ، لا يقول شيئاً حتى انتهت من حديثي ، فرفع رأسه إليّ وقال :

« وهل يوجد عمل أعظم ثمرة ، وأعود فائدة من عمل الفلاح الذي يقوم بزراعة حقل من الحقول ، لا يعطيه إلا القليل من جهده ، وأقل من القليل من ماله ، فيعود عليه منه ضعف ما بذل له خمسين أو ستين مرة ؟ ومتى كانت البحار يا سيدي وطاء ليناً أخطر فيه بنفسه ؛ لأربح شيئاً أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار في أسواق هذه الجزيرة ، وما حولها من الجزر ؟ أية حاجة بنا إلى المال الكثير ، ونحن والحمد لله في سعة من العيش ، لا نشكو جوعاً ، ولا ظمأ ، ولا ضيقاً ، ولا ضجرًا ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة في الحياة فوق المنزلة التي نحن فيها ؟

« ولا أكتملك يا سيدي أنني أخاف المال وأخشاه خشية شديدة ، وأقشع من ذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لا نزال سعداء في هذه الحياة ما دما بعيدين عنه ، وعن التفكير فيه ، فإن قدر لنا يوماً أن نشقى فيها ، فإنما شقاءنا يكون على يده وبشؤم طالعه ؛ فلنتمتع بالسعادة التي قسم الله لنا ، ولا نجني على أنفسنا بالتكليف والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التي لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها ، ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا .»

أنسى يدك البيضاء فيها .»

وؤسها ليمندها بالمعونة التي تحتاج إليها . وكان پول واقفاً بجانب الباب ، يسمع حديثه ويلقي عليه نظرة شزاء ، وكأنما قد ألهم ما يدور في نفسه ، وما قدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة ، وقال له :

« إنك لست بصادق فيما تقول يا سيدي ؛ لأن أمني ذهبت إليك في بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسي بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيراً ؛ إذ كفها مؤونة حمل منتك ، أو منة أحد من الناس غيرك .»

فالتفت الحاكم إلى هيلين ، وقال لها : « ألك ولد أيضاً يا سيدتي ؟»

قالت : « لا ، ولكنه ولد صديقتي مرغريت ، وهو يسميني أمه ؛ لأنه ربي مع فرجين في مهد واحد ، ورضع معها ثدياً واحداً ، وأحبها حباً ، لا يحبه الأخ أخاه .»

فنظر إليه الحاكم ، وقال له : « أدن مني يا ولدي .»

فدنا منه ، فمسح بيده رأسه ، وقال له : « إنك لا تزال صغيراً يا بني ، فإذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكاماً ، وعلمت أن أعظم ما يشقون به في حياتهم أنهم ليسوا أحراراً في إجراء العدالة بين الناس ، وإراحة الحقوق على أهلها ، وتجرى الصدق فيما يقولون ، والفضيلة فيما يفعلون .»

فتناول پول يده وهزها هزاً شديداً ، وقال له :

« أشكر لك صدقك وصراحتك يا سيدي ، وإن كنت قد أسأت إلينا فيما مضى ، وأظن أنني أستطيع أن أتخذك صديقاً لي منذ اليوم .»

فابتسم الحاكم ، وقال : « ولي الشرف العظيم بذلك يا ولدي .»

ثم أشار إلى هيلين أنه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت إليهم جميعاً فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها : « لا بد أن تكوني قد قرأت الكتاب الذي أرسلته إليك عمتك اليوم ، وقد جاءني منها كتاب

ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم : « كونوا مطمئنين يا أولادي ، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن في التربة التي تعيشون فيها . ولقد جرح الدهر قلبي فيما مضى جرحاً دامياً ، فكنتم أنتم أطباءه وأساته ، وما زلت به تنفون عنه غثائته ، وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم وإخلاصكم ، وعطفكم ورحمتكم ، حتى التأم أو كاد ؛ فلن أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على إحسانكم شر الجزاء . ولكن كانت قد بقيت في أعماق قلبي بقية من ذلك الشجن القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك ما لا يد لك فيه ، ولا حيلة لكم في أمره ، ولا توجد قوة في العالم سواء أ عشت في هذا الكوخ الحقيقير أو في ذلك القصر العظيم ، تستطيع أن تشفيني من دائي ، إلا أن يمد الله إلي يد معونته ورحمته .»

فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحاً وسروراً ، وداروا بها يقبلونها ويعتقونها ، ويهنئونها بوفائها وإخلاصها . الله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ! إن الثروة الطائلة التي يقتتل عليها الناس اقتتالا وينحر بعضهم بعضاً في سبيلها ، تعرض نفسها عليهم عرضاً فيأبونها ، ويطيرون فرحاً بالخلاص منها !

وإنهم لذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتاً غريبة ، فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيداً عظيماً يركب مركباً فارهاً ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ . وما أنتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فإذا هو حاكم الجزيرة المسيو «لابوردينه» ، فنهضوا له إجلالاً وإعظاماً ، وحيوه بتحية الحاكمين ، وقدمت له مرغريت كرسيّاً من القش فجلس عليه ، وقدمت هيلين شراب الأرز في إناء بسيط من القرع ، فتناولوه مغالباً نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حينما شربه ، ثم دار بعينه في أنحاء الكوخ ، ففجأ لحقارته وراثته ، وبساطة ما يشتمل عليه من الآنية والأثاث . وبدأ حديثه بمعابة هيلين في انقطاعها عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وأنها لم تلجأ إليه في ساعات شدتها

حتى تذعن لما أريد . وأرجو أن يعينني الله على ذلك ، وأظن أنني أستطيع أن أفضي إليك بالأمر غداً أو بعد غد .»

قال : « أرجو أن تعجلي بقدر ما تستطيعين ؛ فالسفينة موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ، ولا أعلم متى تعود بعد ذلك .»

ثم نهض قائماً ، وأخرج من جيبه كيساً كبيراً مملوئاً بالقطع الذهبية ، ووضعه على المائدة وقال : « هذه هدية عمك إليك لتستعيني بها على شأنك وشأن فرجيني .» وودعها ومضى .

* * *

(١٧)

الوداع

لم يثقل هذا الأمر كثيراً على نفس هيلين ؛ بل صادف هوى من قلبها ، ولم تكن كاذبة في قولها للحاكم إنها لا تتمنى على الله في حياتها شيئاً سوى أن ترى ابنتها سعيدة في حياتها ، هائنة بعيشها ؛ إلا أنها لا تحب أن تفتت على أمرها ؛ فإن الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ حتى دعت إليها ابنتها وخلت بها ، وأنشأت تحديقاً طويلاً قالت لها فيه :

« إنني أصبحت يا بنيتي امرأة عليلة منهوكة ؛ لا قوة لي ولا عزيمة ، وما مرغبت بأحسن حالاً مني ، وقد صار دومينج وماري شيخين ضعيفين ، والشيخوخة أسرع إلى سكان هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق الأخرى ، ويول لا يزال فتى غريباً عاجزاً عن أن يستقل بنفسه فيما يعالج من شقونه ؛ فماذا يكون حالكما غداً لو أنكما أصبحتما تحملان وحكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ، وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غداً بائسين أشقياء ، لا يملكون لأنفسهم ولا تملكون

في البريد نفسه تطلب إليّ فيه أن أزورك ، وأبذل كل ما أملك من الجهد في حملك على السفر إليها ، أو أرسل ابنتك فرجيني بدلا منك . وأرى أن ترسلني إليها ابنتك ؛ فهي فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ، وليس من الرأي أن تدفني مثل هذه الحياة الغضة الندية في مثل هذه التربة القاحلة المحرقة ، والحياة السعيدة هنالك تنتظرها وتمد ذراعها لاستقبالها .

« وإني وإن كنت أعلم أنني أطلب إليك ما يشق عليك ، وفت في عضدك ، ولكنني أعلم أيضاً أنك أرحم بابنتك وأحنى قلباً عليها من أن تخولي بينها وبين تلك السعادة التي تنتظرها هناك ، من أجل متعة نفسك يرويتها جالسة بين يديك . وأعتقد أنك لا ترين بأساً من التضحية بشيء من عواطفك النفسية في سبيل راحتها وسعادتها ، وهناءة عيشها طول أيام حياتها .

« لقد كتب إليّ وزير المستعمرات أن أعنى بهذه المسألة عناية كبرى ، وألا أدعها تفلت من يدي ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، ومعنى ذلك عنده أن أخذك بالشدة في هذا الأمر ، وأكرهك منه على ما لا تحبين ، ولكنني لم أحفل بكلامه ، ولم أكثر له ، بل جئت إليك بنفسني لأعرض عليك الأمر عرضاً ، لا لألزمك به إلزاماً .

« وإني أكل إليك ، وإلى رحمتك وشفقتك ، ولعقلك وورزانتك مستقبل هذه الفتاة المسكينة ؛ فاختاري لها ما يجب أن تختاره الأم الرعوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع في مستقبل الأيام ، وستسمعين غداً من أحاديث هناعيتها ورغدها ورفاهيتها ونعمتها ما ينير لك ظلمة الوحشة التي تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت إليك بعد قليل من الأيام ؛ فإن عمك ، على ما أعلم ، في الدور الأخير من أدوار حياتها ، وهي هامة اليوم أو غداً .»

فكانت له هيلين : « إنني ما تمنيت على الله في حياتي شيئاً سوى أن أرى ابنتي سعيدة في حياتها ، هائنة بعيشها ، إلا أنني لا أحب أن أفتت عليها في أمر من أمورنا ، فلا بد لي من أخذها بالرفق واللين

ليله ونهاره ، وكواكبه ونجومه ، وظلاله ؛ فإنني لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا أحسبني أحدهم إن عرفتهم وفهمتهم .

« دعيني أعيش مما قسم الله لي من الرزق ، ولقد رزقني الجرم الكثير ، الذي لا أطلب فوقة مزيداً ، ولا أبتغي به بدلاً ! »

« لقد عشت في هذا الوادي خمسة عشر عاماً ، ما شكوت ولا تأملت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة ، أو ساخطة أو ناقمة ، فلم تطالبني إليّ أن أترك ما لا يرينني إلى ما يرينني ، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف بذلك الغائب المجهول ؟ وإن نفسي لتحدثني بشر عظيم في هذه السفرة التي تدعونني إليها ، وما أزعج لنفسي علم ما في الغيب ، ولكنني أشعر بخوف شديد لا أعرف له سبباً ، وحسبي أن أعلم أن لا سبيل لي إلى الوصول إلى ذلك العالم الثاني إلا إذا ركبت تلك المطية الوعرة التي يسمونها البحر ، حتى تسيل نفسي رهبة وجزعاً . »

فأطرقت هيلين صامئة ، ولم تستطع أن تقول شيئاً ؛ لأنها وإن كانت من أشهى الأشياء إليها أن ترى ابنتها بعيدة عن بول في تلك الأيام ، وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التي تنتظرها هناك ، إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها ؛ فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول .

ثم قالت بعد قليل : « إنني لا أحب أن أشق عليك يا بني في شأن من شئونك الخاصة بك ؛ فاختاري لنفسك الحياة التي تحبينها وتؤثرينها ، غير أنني أضرب إليك في أمر أرجو ألا يثقل عليك . »

قالت : « وما هو ؟ »

قالت : « أن تكتمي شرك الذي تعالجه بين جنبيك ، فلا تبوح به لأحد الناس ، كائنًا من كان حتى لپول نفسه ، وأن تجعلني الفضيلة ، والطمهارة ، والشرف ، والعفة رائدك في كل ما تقولين وما تفعلن ، وأن تأخذني نفسك بالأناة والرفق في جميع خطواتك وتصرفاتك ؛ انقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلني نصب عينيك دائماً أن الرجل لا يحترم إلا المرأة التي

لهم نفعاً ولا ضرراً ؟

« وقد مثلت لنفسي بين أن تعيشي بجانيبي ، فأراك فقيرة معوزة ، تشقى ليلك ونهارك في جمع قوتك كما تشقى الأجرة العاملة ؛ وبين أن تفارقيني بضعة أعوام ، أسمع في أثنائها على البعد من أبناء سعادتك وهناءتك ونعمتك ورغدك ما يثلج صدري ، ويذهب بوحشة نفسي ؛ فوجدت أنني أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الأولى ، فسافري يا بني ، وكوني غداً عكاكز شيخوختي ، وعماد حياتي ، ومعينتي على دهري . »

فرفعت فرجيني رأسها إليها ، فإذا دمة رقرقة تتلألأ في عينيها ، ونطقت بتلك الكلمة التي عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت : « وكيف لي بترك بول يا أماء ؟! »

قالت : « إنما أطلب إليك السفر من أجل بول ، لا من أجل غيره ؛ فهو غلام مسكين يذل من راحته وقوته في سبيل العمل ، ما أحسب أنه قاتله وذاهب بحياته إن طال عليه أمره ، فارحمه ، واشفقي عليه ، وأنقذه من بؤسه وبلائه . ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه في سبيل ذلك حتى الموت ضناً بك وبسعادتك ؛ فكوني مثلي وفارقيه رحمة به وإبقاء عليه ، وليكن حبك إياه عظيماً مجيداً كمحيي إياك ، ولن يعظم الحب ، ولن يمجّد إلا إذا بني على أساس من التضحية والبلل . »

قالت : « أ لم تقولي لي يا أماء قبل اليوم إن للكون إلهاً يتولى شأنه ويرعاه ، وقد راعانا وتولى شأننا بالأمس ، فلم يتخلى عنا غداً ؟ »

« أ لم تقولي لي إننا ما خلقنا إلا للعمل ، وإن العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التي لا تفنى ، فلم تطالبني إليّ اليوم أن أعتمد في حياتي على غيره ، وألتمس الرزق من سبيل غير سبيله ؟! »

« دعيني أعيش بجانبك يا أماء ، و بجانب بول و مرغيت و دومينج و ماري ، وعلى مقربة من شويهاتي وأعنزتي ، وطيوري وعصافيري ، وبين أحضان هذا الوادي الجميل الذي أنست به وأحبته وألفت

القديمة وقمصهم البنغالية الخشنه ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام . ولبست فرجيني ثوباً حريراً أزرق مطرزاً بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ، ولصق ثوبها بجسمها فمثله تمثيلاً بديعاً ، و وصفه وصفاً دقيقاً ، ويول يرى كل هذا ، ولا يفهم منه شيئاً ؛ لأن أحداً منهم لم يجرؤ أن يكشفه الأمر ، إلا أن يظن ذلك ظناً ؛ فعظم حزنه واكتابه ، وساورته الوسواس والهموم ، فرحمته أمه مما به . وكانت تمسك في نفسها شيئاً من العتب على صديقتها هيلين في رضاها بسفر ابنتها وتضحيتها بابنها في سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له :

« لِمَ تعلق نفسك يا بني بالآمال الكاذبة والأمني الضائعة ، ولم تتطلع إلى ما تقصر عنه يدك ، ويضيق به ذرعك ؟ ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذي كتمته عنك زمناً طويلاً ؛ لتعلم من أنت ، ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك .

« فاعلم أن أمك امرأة فلاحه وضيعه ، لا حسب لها ولا نسب ، وأن قدراً من الأقدار الجارية بين الناس قد نزل بها في صباها ، فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أي أنك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بفرجيني ؛ فهي فتاة شريفة نبيلة ، من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمه مثرية كانت قد أغفلت أمرها حقبة من الزمان لأمر ما ، ثم ذكرتها اليوم فأرسلت في طلبها لتعيش معها في باريس ، متمتعة بثروتها الطائلة ، حتى إذا ذهبت لسبيلها ، ورثت عنها هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع في أن تتصل بها يوماً من الأيام ، إلا أن تكون فلتة من فلتات الدهر ، أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، وأرح نفسك من هموم الأماني ومتاعها ، والله أولى بك وبني من كل مخلوق .

« واعلم يا بني أنني لم أقترف هذا الجرم الذي ذكرته لك ، وأنا أعلم أنني أئمة أو مذنبه ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لا حيلة لي ، ولا لأحد من

تضمن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التي تبذل نفسها له ؛ أي أنه يحب المرأة الفاضلة أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالاً غير جمال الأدب والعفة ، وإن زعم في نفسه غير ذلك .»
قالت : « ذلك ما أعرفه يا أمه ، ولا أعرف شيئاً سواه .»

وما أتى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة ، وهو رجل من أولئك الدعاة الماكرين ، الذين تستعين بهم الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم ، ولا إنفاق مال ، والذين يكونون دائماً في حاشية حكام المستعمرات ؛ ليعينوه على ما هم آخذون بسبيله من الفتح والغزو .

وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه الأسرة من حين إلى حين ؛ ليرشدها ويباركها ، فلما رأوه قادمًا إليهم ظنوه أنه إنما جاء لزيارتهم كعادته التي اعتادها ، فأحسنوا استقباله وتحيته . ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الأمر الذي كان يشغلها ، فكاشفته به ، فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء في الجزيرة ويأمر فرجيني بالسفر إلى فرنسا ، وأنهما إن لم تفعلًا فقد خالفتا إرادة الله ، وباعتا بسخطه وغضبه ، فذعرت فرجيني ذعراً شديداً ، ولم تجد بداً من الخضوع والإذعان ، فانصرف الكاهن عائداً إلى قصر الحاكم ؛ ليرفع إليه ما تم من الأمر على يده .

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك الأسرة الفقيرة الخاملة ، التي تسكن ذلك الوادي المقفر الموحش ، قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد إليه الوافدون من كل مكان ، ما بين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، وأعانت المسترفد^(١) ، وابتاعت من الأنسجة والشفوف ، وصنوف الدياج والخز ، وأنواع الأثاث والرياش ما يزيد عن حاجتها ، وما يضييق به كوخها ، وخلع جميع أفرادها أسماهم

(١) المسترفد: طالب الرُّقْد؛ أي طالب العطاء والصِّلَة .

الوداع ١٥٣

جو السماء محفوقاً بحاشية من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صحور ، وهضاب ، ورمال ، وتلال ، فأضاءتها ، وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة .

وإنه لذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه ، وبأخرى ترفع رأسه ، فانتبه فإذا فرجينى واقفة أمامه ، ودموعها تترقق في عينيها ، فذعر إذ رآها ، وظل ينظر إليها نظراً حائراً مضطرباً ، فقالت له :

« ما بقاءك هنا وحدك في هذا المكان يا پول ؟ »
فقال لها :

« لقد حدثوني عنك أنك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وأنت ذاهبة لتفتشي لك عن أخ آخر غيري ، يصلح لك وتصلحين له ؛ لأنك عرفت أنك فتاة شريفة ثرية ، لا يجمل بك أن تتصلي بفتى وضع مسكين مثلي ، فأحزنني ذلك حزناً عظيماً ، وكنت أظن أنني أستطيع أن أحمل نفسي على الصبر عنك واليأس منك فعجزت ؛ فلم أر بداً من أن أروح عن نفسي بوضع قطرات من الدمع ، أذرفها في هذا المكان الخالي . »

ثم أشار إليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها ، وظل يقول لها :

« إلى أين تريد أن تذهبي يا فرجينى ؟ وأي أرض تلك الأرض التي اخترتها ، وأترتها على أرضك التي نشأت فيها ، وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفياءها ، وخضراءها وغبراءها ؟ وأي قلب ذلك القلب الذي رأيت أنه يحمل لك في سويدائه من الحب والعطف أكثر مما يحمل لك قلب أمك ؛ فاستبدلته به ، وسكنت إليه من دونه !؟ »

« لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها ، وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم ؟ »

« وكيف تستطيع أن تهناً بنومها حيثما تمدها

الناس في أمره ، فاغفر لي خطيئتي ، إن كنت ترى أنني مخطئة ، أو أنني الجالبة لك هذا الشقاء الذي تكابده في حياتك . »

ثم أسلمت رأسها إلى ركبتيها وبكت بكاء طويلاً ؛ فحنى عليها پول ، وطوق عنقها بيديه ، وقال لها :

« لا تبكي يا أماه ؛ فما أنت بائسة ، ولا شقية ما دمت معك ، أما هفوتك التي تتحدثين عنها ، فما أحسب إلا أن الله سبحانه قد غفرها لك . نعم سوف يغفرها لك ؛ لأنك قد كفرت عنها بدموعك ، وآلامك ، وشقائك الذي كابدته زمناً طويلاً ، وكوني على ثقة من أنك أجبل في عيني ، وأكبر في نفسي من أن أعد عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأنني لا يعينني أ كان أبي معلوماً أم مجهولاً ، شريفاً أم وضيعاً ؛ لأنني ما فكرت يوماً من الأيام أن أفخر به ، أو أعتمد في حياتي عليه . »

« أما تلك التي حدثتني عنها فسأحمل نفسي على نسيانها وسلوتها ، وأرجو أن يعينني الله على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عني وتجهمها لي ! ولا بد أن تكون قد وقفت من بضعة شهور على هذا السر الذي أطلعني عليه اليوم ؛ فازدرتني ، واحتقرتني ، ونفضت يدها مني إلى الأبد ، والأمر لله وحده ! »

ثم نهض قائماً ، وقد ظن أنه قد شفي مما به ، فتنفس نفس الراحة ومضى لسبيله .

إلا أنه لم يبعد إلا قليلاً حتى شعر بوخزة في قلبه ، فلم يزل بها ، ثم تابعت الوخزات ، فخيّل إليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاع رفرة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من مكانه ويطيّر في أجواز الفضاء ؛ فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : « آه يا فرجينى ! آه يا فرجينى ! » حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطئ البحر ، فتهاوت عليها ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه ، وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها إلا الله . وظل على حاله ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه ، وبدأ كوكب الليل يخطر في

فأنت أجلُّ من ذلك شأنًا ، وأعظم خطرًا . ولقد أفضت إليَّ أُمِّي اليوم بسر حياتك وسر حياتي ؛ فعلمت أنك فتاة شريفة جدًا ، وأُنني فتى وضيع جدًا ، لا أصلح أن أكون أخًا لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك . وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركيبها ؛ لأكون ملاحًا من ملاحها أو خادماً من خدماها ؛ فأراك على البعد ؛ فأجد في رؤيتك راحتني وسلوتي ، وأعدك وعدًا صادقًا ، لا أغدر فيه ولا أحنت ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي غير حياتي ، فأبذلها لك طيب النفس عنها .

« ما الذي طرأ عليك يا فرجيني ؟ وما الذي نال من نفسك هذا المنال كله ، حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى ، أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟ »

« كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية عواصفه وأنوائه جزع الأطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب للذين يخطرون بأنفسهم في ركوبه ، فإذا أنت مزمنة أن تعبره ، وأن تلبثي بين أمواجه الثائرة تسعين يومًا كاملة ! »

« كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يومًا واحدًا ، فما أنت تريدين أن تفارقيها فراقًا طويلًا ، لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، وما لك حيث تذهبين من الأرض أم سواها ! »

« كنت تقولين إنني لا أجد لذة الحياة بعيدة عنك ، فما أنت تجدينها بعيدة عني جدًا ، بين أقوام لا تعرفينهم ، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب . »

« لقد شعرت بهذا الطارئ الجديد الذي طرأ على نفسك ، مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك ، وعهدي بك أنك تضيقين ذرعًا بالريح العاصفة إذا مدت يدها إليك ، وحاولت أن تعبت بذيل ردائك ، أو تدور بقمصك حول جسمك ، ولا أدري ماذا يكون شأنك غدا إذا فارقت

في ظلام الليل وسكونه إلى مضجعك فلا تراك بجانبها ؟ وكيف تستقبل وجه النهار إذا فتحت عينها في الصباح ، فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل ، أو تجدد لذة الطعام والشراب إذا جلست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين إليها ، أو تصغي إلى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها ، ولا تنبث رنته بين رناتها ؟ »

« وكيف لي بتعزيتهما ؛ تعزية أُمِّي عن همومهما وأحزانهما إذا دخلت إليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين ، تسألان عنك الليل والنهار ، والأصائل والأسفار ، والظباء السانحة ، والطيور الباردة ، فلا تسمعان مليكًا ولا مجيبًا ، ولا تقبلان عزاء ولا سلوى ؟ »

وصمت هنيهة ، ثم قال وعيناه مخطلتان بالدموع :

« وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية ، إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها ؛ لأجلس إليك ساعة ، أتمتع فيها بلذة حديثك وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟ »

« ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعبًا لاغبًا^(١) ، فيتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ؟ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ البحر ، وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المنبسطة ، وصبغها بلونه الفضي الجميل ، فيجلس بجانبني على رملة من رماله الميناء ، فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التي تستغرق شعوري وجداني ، وتملك عليَّ مداركي وعواطفني ، ويخيل إليَّ حين أسمعها أنها هابطة من الملأ^(٢) الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان ، في فراديس الجنان ؟ »

« إنني لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا فرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ،
(١) اللاغب: المجهّد . (٢) الملأ الأعلى: عالم الأرواح المجردة .

نتمتع غداً في هذا المعتزل الساكن الجميل ، متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى الموت .

« ورجائي إليك ألا تعود مرة أخرى إلى ذلك الحديث المزعج الذي حدثتني الساعة ، فإنما نحن أخوان توأمان ، نشأنا معاً ، ودرجنا معاً ، وشرينا الحياة من كأس واحدة ، وسلكتنا سبيلها من طريق واحدة . هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لا نعرف غيره ، ولا نفهم شيئاً سواه ، وإني قائلة لك كلمة ما كان يمنعني من أن أقولها لك قبل اليوم إلا الخجل والحياء : لو أن الدنيا عرضت عليّ بحذاقها على أن أبتاعها بشوكة تشاكها ، أو لحظة تتألم فيها ، لأبيتها غير أسفة ولا نادمة !

« على أنني لا ذنب لي فيما كان ، فقد أمرتني أمي بالسفر ، ولا أستطيع أن أخالف لها أمراً ، وأبلغني الكاهن أن تلك إرادته ومشيتته ، ولا قبل لي بالخروج عن إرادته . وبعد : فهأنذا بين يديك ، فمرني بما تشاء من أمر ، أطعك ، وأذعن إليك ، غير مبالية بشيء بعدك ، فكل ما في الحياة هين إلا أن أراك جازعاً أو متألماً !»

فصاح بول صبيحة الفرح والسرور وقال :

« سافري يا فرجيني وسأسافر معك ، لأتيك بنفسى عاديات الدهر ، وطوارق الحداث ، فإن حيننا حيننا معاً ، وإن هلكنا هلكنا معاً .»

ثم دنا منها ، وضمها إلى صدره ، فشعر بالراحة التي يشعر بها الملقي عصاه بعد سفر طويل .

وكننا نفتش عنهما في تلك الساعة ، أنا وهيلين ومرغريت ، ولا نعرف لهما مكاناً ، حتى سمعنا صبيحة بول حين صاح فقصدنا إليه ، فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه ومشى إلينا ، ثم التفت إلى هيلين ، وألقى عليها نظرة ما ألقى عليها مثلها قبل اليوم ، وقال لها بنغمة الهزئ الساخر :

« نعمت الأم أنت يا سيدتي ، ونعم ما تسدينه إلى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابعة ، ويد بيضاء ، إذ تريد أن تفرقي بينهما وتمزقي شمل حياتهما ، وتعذبي قلبيهما الناشئين الضعيفين بصنوف

هذه القفرة الموحشة إلى ذلك العالم المزدهم الهائل ، الذي يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغداً ؟

« نعم إنك قد مللتني يا فرجيني ، ومللت الحياة بجاني ، وأصبحت تشعرين بالحاجة إلى المال الذي لا أستطيع تقديمه لك ، وإلى العيش الرغد الذي تقصر يدي عنه ؛ فلا ألكومك ولا أعتب عليك ، ولكنني أسألك هل أنت على ثقة من أن المال هو السبيل الوحيد إلى السعادة التي تنشدينها ، وأنت تكوينين في ذلك الفناء الواسع أسعد منك في هذه الزاوية الضيقة ؟ إنني أخاف أن تكوني مخطئة فيما تظنين .

« إنني لا آسي على نفسي يا فرجيني ، فقد عرفت من أنا ، وعرفت من أنت ، وأصبحت لا أمل لي في أن أعيش في دائرة أوسع من الدائرة التي خلقت لها ، ولكنني أضن بك على الدهر وأرزائه أن يمتد إليك ظفر من أظفاره الجارحة ؛ فأهلك على أتركهما وكمدًا .

« فإذا أن تعدلي عن السفر ، أو تأذني لي بالسفر معك ، فإنني لا أستطيع أن أحول بين قلبي وبين القلق عليك ، ما دمت غائبة عني ، فإن أبيتهمما فودعيني منذ الساعة الوداع الأخير ، فلا أمل لي في الحياة من بعدك !»

فلم تستقبله إلا بدموعها تنحدر على خديها ، تنحدر حبات العقد وهى سلكه فانتثر ، وأنشأت تقول له :

« إنني إنما أسافر من أجلك يا بول ، لا من أجل نفسي ؛ لأنني أصبحت أشفق عليك الإشفاق كله من هذا الشقاء الذي تكابده في سبيلي وسبيل هذه الأسرة المسكينة ، وطالما بكيتك بيني وبين نفسي ، كلما رأيتك صاعداً شرقاً ، أو عابراً نهراً ، أو سالكاً وعراً ، أو حاملاً ثقلاً ؛ حذرك عليك أن تزل بك قدمك في هوة من الهوى ، فتهلك ، فأهلك على أترك ؛ فأنا إن فارقتك فإنما أفارقتك بجسمي لا بنفسى ؛ لأعود إليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من آلام هذه الحياة ومتاعبها ؛ ولنستطيع أن

وصوتها آخر ما أسمع من الأصوات .»

فاستعبرت هيلين وقالت : « وماذا يكون حالنا من بعدك يا بول ؟ »

قال : « وهل تظنون أنني أبقي من بعدها إنساناً تستطيعون أن تنتفعوا بي في شأن من شؤونكم ، أو أن يبقى لي من الفهم والإدراك ما يعينني على مأرب من مأرب هذه الحياة ؟ إنها فكري وعقلي ، وتصوري وإدراكي ، وقوتي وعزيمتي ، وحياتي من مبدئها إلى منتهاها ، فإن أردتم أن تفقدوني إلى الأبد ، فأبعدوها عني ، وودعوني الوداع الأخير قبل أن تودعوها ! »

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة ، يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب صورة لبسها في حياته وظل يهذي ويقول :

« أيتها المرأة القاسية ! لا متّعك الله برؤية ابنتك بعد اليوم ، ولا أعادها البحر إليك إلا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عينك عليها إلا محمولة على الأيدي إلى مقرها الأخير ، ولتكن ذكرائها مبعث ألم دائم لك لا يفارقك حتى الموت ! »
« ثم دار على نفسه دورة سريعة ، وسقط مغشياً عليه ، فبكت هيلين ومرغريت ، وبكيت أنا أيضاً ، على جفاف دمعتي ونضوب مادة حياتي ؛ لأنني أصبحت والدك لهذا الولد المسكين ، وأمي والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهملة بين يديه ! » وظللت أقول في نفسي :

« ويل لك أيتها القارة المشئومة ! لا خلاص منك ولا نجاة من يدك أبد الدهر ؛ فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ، ولجأت إلى أقصى مكان يمكن أن تناله يد في العالم ، فما زلت بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى ، حتى أزعجتها من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن تفسدي عليها حياتها وتبديدي ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيدها إلى جبالك المنصوبة التي ظننت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فوا شقاءك ووا شقاء العالم

العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ؛ وأن افتراقهما هو القضاء عليهما معاً ! »
« لقد كنت يا سيدتي أزهّد الناس في المال ، وأشدهم نقمة عليه ، وزرابة به ، وزهداً فيه ؛ فما الذي بدا لك في شأنه حتى أصبحت تخاطرين بولدك العزيز عليك في سبيله ؟ بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ؛ لأنك تريدان أن ترسلي ابنتك إلى تلك الأرض التي أهانتك واحتقرتك ؛ وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ؛ عقاباً لك على هفوة صغيرة ، ما كان مثلها جديراً بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد ! »

« نعم ، إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك في ذلك منازع ، ولكنني أنا أيضاً أخوها وصديقها وعشيرها ؛ فصلتي بها عظيمة جداً ، لا تفترق عن صلتك إلا قليلاً . ولكن فرق بيني وبينها النسب ، فلقد جمعنا الحب والإخاء ، والود والوفاء والولادة في مهد واحد ، والرضاع من ثدي واحد ، وبكائي عليها إن مسها ألم ، وبكاؤها عليّ إن نالني وَصَبٌ^(١) ، ومخاطرة كل منا بنفسه في سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يد أجله أو يهلك دون ذلك ! »

« واشترأنا معاً في الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والجوع والشبع ، والرّي والظّم ، وخوض الأنهار ، واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ، ومقاساة الأهوال ، فكيف لي بالصبر على فراقها ، أو لها بالصبر على فراقني ! »

« أبعدوها عني ما شئت ، ولكنني سأتبعها ، وأترسم آثارها حيثما حلت من الأرض ، فإن أبيتم إلا أن تقفوا في وجهي ، وتحولوا بيني وبين ركوب السفينة التي تحملها ، خضت البحر وراءها خوضاً ، لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقي ، فإن قدرت لي النجاة فذاك ، أو لا ، فحسبي منها أنها تلقي عليّ في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي نظرة من نظراتها ، وأن تذرف في سبيلي دمعة من مدامعها ، فيكون شخصها آخر ما أرى من الأشياء ،
(١) الوَصَبُ: الوجع والمرض .

فأسلم لي يده ؛ فقدته كما تفاد السائمة البلهاء
حتى وصلنا إلى المنزل ، فقضى ليلته قلقاً مروعاً ، لا
يذوق النوم إلا لماً حتى أصبح الصباح .

* * *

(١٨)

السفر

وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت
له : « ما بك يا سيدي ؟ »

قال : « بي أن هذه الذكرى تهيجني ، وتبعث
شجوني وأحزاني ، ولا أرى لك يا ولدي فائدة من
ذكرها ؛ فالحياة كما تعلم ذات لونين : أبيض
وأسود ، وأنتم معشر المتمددين لا تحبون منها إلا لونها
الأبيض ، فلا أريد أن أنحرف بك إلى ما لا تحب من
لونها . »

قلت : « قل يا سيدي ؛ فنحن أبناء الدموع
والآلام ، وسلائل البؤس والشقاء ؛ وما لنا أن نبرأ من
أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب في حياتنا مذهباً غير
مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يظهر معدن النفس من
أخلاطه وشوائبه ، وينقيه من أدرانها وأكداره ، غير تلك
الألسن النارية التي تبعث من صدور المتألمين وقلوب
المحزونين ؟ على أننا لا بد لنا أن نفهم الحياة كما
خلقت ، نخيرها وشرها ، سعدوها ونحوسها ، ولا بد
لنا حين ننظر إلى نصف الكرة الذي يقابل وجه
الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا
ونحن في ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح في
ظلمة الليل البهيم ! »

فرفع رأسه ، واستمر في حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض بول من مضجعه القلق
المضطرب ، ومشى في طريقه إلى كوخه ، ومشيت
وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكاني ،
فلم يزل سائراً حتى لمح الخادم ماري واقفة على رأس

بك ! »

وهنا تقدمت فرجيني تمشي بخطوات خفيفة
مختلسة حتى جلست إلى جانبه ، وقد تلاً وجهها
بنور سماوي غريب ، لا يشبه نور القمر ولا نور
الشمس ، ولا نور أي كوكب من كواكب الأرض
والسما ، بل هو مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبت
على أذنه تقول له :

« سواء بقيت هنا يا بول أو رحلت ، فإنني أقسم
لك بدموعي ودموعك ، وآلامي وآلامك ، وبما قدر
لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء ولوعة ، أنني أكون
لك ما حييت ، ولا أكون لأحد غيرك . أقسم لك
على ذلك بين يدي أمي وأمي ، وبين يدي هذا
الشيخ الجليل ، فهم شهودي على ما أقول ، والله
من ورائهم محيط . »

فكأنما صبت على جسمه سجلاً^(١) من الزلال
البارد ، فانتفض ورأراً^(٢) بمقلتيه واستوى جالساً ،
وظل يدور بنظرة حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في
هدوء وسكون ، فاحتضنته أمه إلى صدرها وبكت
حتى امتزجت دموعه بدموعها ، فهمست هيلين في
أذني :

« إن الموقف مؤلم جداً ، ولا صبر لي على
مشاهدته . »

فتقدمت نحو بول وجذبت يده ، وقلت له : « هيا
بنا يا ولدي إلى المنزل ، فقد انتصف الليل . »
فمشى معي صامتاً ، لا يقول شيئاً ، ولا يلوي
على شيء مما وراءه ، حتى بلغنا الطريقين : طريقي
إلى كوخني ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له :

« هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من
آلامهم ومتاعبهم ، وتذهب معي إلى كوخني لتبيت
عندي ، ثم تعود في الصباح ؟ وكن على ثقة أن
فرجيني لا تسافر بعد اليوم ، فقد عزمت غداً أن
أكلم الحاكم في أمرها ، والحاكم لا يرد لي رجاء ،
وما أحسب إلا أن الأمر سينتهي على ما تحب
وترضى . »

(١) الدلو العظيمة . (٢) حرك الحدة وحلّ النظر .

الأخير الذي لا لقاء بعده ، وأن تتخذي لك في المكان الذي تذهبين إليه آخر غيري ، تمنحينه من عطفك و ذلك مثل ما كنت تمنحينني ، فأنت في حل من ذلك . هنيئاً لك ما تختارين ، وما تؤثرين ، فلا تكن ذكراي سبباً في تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة . ثم أنصرف بعد ذلك لشأني ، وقد هدأت نفسي وبرد غليلي ، ولكنهم لم يشفقوا عليّ ، ولم يرحموني ؛ لأنني ولد مسكين ، لا شأن لي في الحياة ، بل لا مكان لي بين الأمكنة التي يجلس فيها ذوو الأصول والأنساب !

فدنت منه هيلين ، وما بين القلوب قلب أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده ، وقالت له :

« كن رجلاً يا بني ، كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف الساعة التي تسافر فيها فرجينني ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا إلى الكوخ ، وفي هدوء الليل وسكونه ، حاكم الجزيرة ، ووراء أعوانه وجنوده ، وقال لنا : « إن الريح قد اعتدلت ، والسفينة على وشك السفر ؛ فلتستعد الفتاة . » فأبّت فرجينني أن تسافر قبل أن تراك ، وظلت تهتف باسمك ، وتناديك ، وتبكي بكاء مرّاً ؛ فلم يجد الحاكم بدءاً من أن يأمر رجاله بحملها ، فاحتملوا إلى هودج كانوا قد أعدوه لها ، وساروا بها إلى شاطئ البحر ، وهي لا تتفك عن ذكرك والبيكاء عليك ، حتى أقلعت السفينة ! »

فرفع پول إليها نظره ، وظل يردده بينها وبين أمه ؛ ثم قال لهما :

« فتشاً لكما الآن عن ولد غيري يدعوكم بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ؛ فقد فقدتماني إلى الأبد ! »

ثم انفتل من مكانه مسرعاً ، وخرج هائماً على وجهه ، يمر بكل مكان كانت تجلس فيه فرجينني فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها ، وأخذ يخاطب الماشية التي يجدها في طريقه ، كأنها تعقل منه ما يقول فيقول لها :

هضبة عالية ، تنظر جهة البحر ، فذعر إذ رآها ، وناداه : « أين فرجينني يا ماري !؟ »

فأطرقت برأسها وبكت ، فجن جنونه ، وعلم بما كان ، وهرع إلى شاطئ البحر يعدو عدو الظليم ؛ فلم ير أمامه على سطح الماء شيئاً ، وحده الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر ، وأنها قد تجاوزت مدى البصر ، فلا سبيل إلى رؤيتها ، ففكر راجعاً حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه جبل الاستكشاف ، فارتقاء بأسرع من لمح البصر على وعورته وتشعب مسالكه ، حتى بلغ قمته العليا وضرب الفضاء بنظرة ، فلم ير في غرض البحر إلا نقطة سوداء صغيرة ، تتلاشى شيئاً فشيئاً ، فعلم أنها السفينة التي تحمل فرجينني ، فاستمر نظره عالقاً بها ، لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفاً حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لا تزال باقية في مكانها .

وظل على ذلك ساعة ، حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شيء ، فلوى رأسه وانفجر باكياً ، وأنشأ يعج عجيجاً محزوناً ، يرن في أجواف الغابات والأدغال ، وتردد صدهاء أكناف الجبال ، فصعدت درجات من الجبل حتى كنت منه بحيث يسمع صوتي ، وظللت أناديه وأضرع إليه أن ينزل ، فلم يفعل إلا بعد لأي ، فتناولت يده وذهبت به إلى كوخه ، فبكت أمه إذ رآته ، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها في حياته ، وكأن بؤس الحياة جميعه قد تجمع ، واتخذ له مكاناً بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتاً ، لا يقول شيئاً سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل !

ثم أخذ يتكلم ، كأنما يحدث نفسه ، ويقول : « ولم لم يبنوني بالساعة التي تسافر فيها ؛ لأقضي حق وداعها قبل أن تفارقتني !؟ إنهم لو فعلوا لما زدت شيئاً على أن أدنو منها وأقبلها قبله الوداع ، ثم أقول لها : إن كنت تذكرين يا فرجينني أنني أسأت إليك يوماً من الأيام ، أو بدرت مني بادرة ألتك وجرحت نفسك ؛ فاغفري لي ذنبي قبل أن تفارقيني . وإن كنت عزمت على أن تجعلني فراقك هذا الفراق

فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً فشيئاً إلى نفسه سبيلاً ، فأخذ يجمع آثار فرجيني من جميع أماكنها ومظانها ، فجمع طاقة من الزهر كان قد أمدها إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها في أيام الأعياد ، وكأس الشاي التي كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التي كانت تحفظها في صندوقها ، ومشط الأبنوس الذي كانت تمشط به غداًها ، وأمثال ذلك من الأدوات والآنية ، ووضعها في مكان واحد سماه «متحف فرجيني» فكان يختلف إليها من حين إلى حين ؛ ليأخذها ويقبلها ويضمها إلى صدره ، كأنها هو يضم صاحبته .

وما هي إلا أيام قلائل حتى عادت إليه تلك الروح العظيمة الشريفة التي كانت تملأ ما بين جنبيه ؛ روح الرجولة والهمة ، والعزة والأنفة ، فمز عليه أن يرى أميه ، وهما ضميختان منهوكتان ، تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به ، فعاد له جده ونشاطه ، وأصبح العمل ملهاته الوحيدة التي يلجأ إليها من همومه وأحزانه ، ويعتصم بها من وساوسه وبلابله .

وكان يأنس بي في ذلك الحين أنساً عظيماً ، ويقضي معي جميع أوقات فراغه ؛ لأنني كنت أعزبه وأهون عليه همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أمه ، بل بالحديث والسمير ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره . فاقترح عليّ يوماً من الأيام أن أعلم الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمّر في نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة فرجيني ، فأعجبني مقترحه هذا ، وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك يا ولدي أنني ما رأيت في حياتي ذهناً أحداً ولا أمضى ، ولا فطرة أقوم ولا أسلم من ذهن هذا الغلام وفطرته .

فقد استطاع بعد بضعة شهور ، لا تزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلاً طويلاً من كتاب أدبي

« مسكنة أنت أيتها السائمة الضعيفة ، من ذا الذي يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبك ؟ »

ويقول للطيور التي تغرد في أعشاشها : « لا تنتظري بعد اليوم من يحمل إليك الطعام في حجره ، والماء في يده ؛ فقد سافرت فرجيني ! »

ورأى الكلب « فيديل » سائراً في طريقه يسوف التراب ويشتمه ، كأنما يفتش عن شيء ضاع منه ، فقال له : « فتش ما شئت ؛ فإنك لن تراها بعد اليوم ! »

ورأى عنزة تتبعه حيث سار ، فالتفت إليها ، وقال لها : « أنا سائر وحدي ؛ وليست فرجيني معي ، فانصرفي لشأنك ! »

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التي جلس عليها معها ليلة الأسس ، فارتقاها ، ورمى بنظره في الفضاء حتى استقر في المكان الذي شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر في الصباح ، فلم يزل نظره عالقاً به ، كأنما يظن أن السفينة لا تزال باقية فيه ، وظل على ذلك ساعات طويلاً .

وكنا نتبعه على البعد ، من حيث لا يشعر بمكاننا ، ونترقب مذاهبه ومراميه ، ونرثي له بما به ، وقد أصبحنا ، ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته ، وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، حتى استطعنا بعد لأي أن نعود به إلى الكوخ . واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين ، لم يلق فيهما طعاماً ولا شرباً أن يصيب شيئاً من الطعام ، فكان إذا جلس على المائدة ، خيل إليه أن فرجيني لا تزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلطفها ، كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام التي يعلم أنها تحبها ، ثم لا يلبث أن يتنبه لنفسه ، فيطرق برأسه خجلاً وحياء ، وتظل عيناه تنهلان بالدموع ، ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه !

وكان لا يمجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : « يا زوج ابنتي ! » أو « يا صهري العزيز ! »

بسيط ، وأن يكتب مسودة رسالة لفرجيني .

وما هو إلا عام وبعض عام حتى طلب إليّ أن أعلمه فن الفلاحة ، ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة الواسعة لإرضاء لفرجيني ، وعلم تقويم البلدان ليعرف النقطة التي تحلها فرجيني من سطح الأرض ، وعلم التاريخ ليعرف شيئاً من شئون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرجيني ، فعلمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلي . ولم يلبث إلا قليلاً حتى استطاع أن يستقل بنفسه في دراسة تلك العلوم وغيرها ، مما بدا له أن يعرفه ويزاوله ، فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم والإدراك ، لم يسمح الدهر بمثلها لفتى في مثل سنه ، وفي مثل الزمن الذي قضاه في الدراسة .

وأصبح ينظر إلى الحياة وشئونها نظرة الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشف الكثير من بواطنها وخفاياها ، وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر ، والصالح والفساد ، والإساءة والإحسان ، فلم يشتهه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيل من السبل . وكان السبب في ذلك أنه تعلم العلم ، لا ليتخذ آلة يتوصل بها إلى غرض من أغراض الحياة ، أو مطعم من مطاعمها ، ولا ليتجمل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون ، الذين يعتبرون العلم حلية من الحلي ، يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشبية ، وجواهرهم الثمينة ، وقصورهم الشامخة ، ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ، ويراهها كما خلقها الله ، لا كما عبثت بها يد الإنسان ، فكان له ما أراد .

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجى المتوحش إنساناً كاملاً ، مستنير الذهن ، مستوي العقل ، فياض الشعور والإحساس ، واستطاعت شمس المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ، فتتير جوانبه ، وتبدد ظلماءه ، واستطاعت شعلته الملهبة أن تطهر بنارها تلك النفس الصدئة المتبلدة ، وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها ، فإذا هي سبيكة صافية من

الذهب تتوهج توهجاً وتلتئم التماعاً .

إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من وصف المجازر البشرية والمصارع الإنسانية ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة ، الحافلة برذائل الملوك والأمراء ، وفظائع الأشراف والنبلاء ، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار . كما مل تقويم البلدان ؛ لكثرة ما يحتويه من أسماء الأمكنة والبقاع ، والجبال والتلال ، والأنهار والنهيرات التي لا نهاية لها ، ولا فائدة منها . وشغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثراً ، قصصاً وروايات ، وأمالى ومحاضرات ؛ لأنه خلاصة العقل البشري ، وزيدته الأخيرة التي تمخض عنها ، ولأنه المرأة الصافية التي تتراءى فيها صورة الحياة على حقيقتها ، ومشاعر النفوس بكل ما تشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ، وطمع ويأس ، وارتياح وانقباض . وكان خير ما يعجبه من الشعر شعر « هومير » ، ومن النثر قصة « تليماك » ؛ لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها ، وترسم مزالق الشهوات التي تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فإذا جلس لقراءتها ووصل إلى قصة أنتيوت وأوخاريس ، خيل إليه أن فرجيني مثال الأولى في إياها وعزتها ، ومثال الأخرى في رقتها وعدوبتها ، فتتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقي كتابه جانباً ويسبح في فضاء الخيال سباحاً طويلاً .

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات الغرامية التي وضعها واضعوها ، لا ليهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس وفضول أطماعهم ، ويلهبوا بنارها ما برد من عواطفهم ، وهذا من لواجمهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة إلى تلك الحمأة^(١) القذرة من الرذائل والمثالب^(٢) . وكان يقول في نفسه كلما قرأ شيئاً منها :

(١) الحمأة: الطين الأسود المتين . (٢) جمع مثلبة ، وهي العيب .

أوروبا ١٦١

حركة ، ولقد سألتني عمتي حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف ، لا يتجول في أديمه قطرة واحدة من الرحمة ، ماذا تعلمت في صغري ؛ فلما عرفت أنني لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة ، قالت : « إنك لا تزيدني في شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدي ، ولم تنشئي منشأ خيراً من منشئهم »

« ثم أمرت بإرسالني إلى دير في ضواحي باريس ، أتعلم فيه أنواع العلوم ، فاعلموني القراءة والكتابة ، فسرني منهما أنني أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك . ثم أخذوا يعلمونني التاريخ ، وتقويم البلدان ، والحساب ، والهندسة ، والرسم ، والعلوم الدينية ، وبعض الألعاب الرياضية ، فلم أحفل بشيء من هذا كله ؛ لأنني شعرت ببغضه والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لي فيه ، فوصفني أساتذتي ورفيقاتي بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أبل بذلك ؛ لأنني ما دخلت الدير لأرضيهم ، ولا لأنال الحظوة في عيونهم .

« على أن عمتي تعني بي عناية كبرى ، وتبذل في سبيل راحتي ، ورفاهيتي ، وتيسير جميع مراقبي وحاجاتي مالا كثيراً . وقد خصصت لخدمتي فتاتين متأنقتين من وصائفها ، لا عمل لهما نهاريهما وليلتهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما ، وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما في أحاديث تافهة مرذولة ، لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثالان على مسرح ، أو تلعبان في ملعب .

« ويخيل إليّ أن عمتي قد أوعزت إليهما ألا تدعواني بلقبني الذي أحبه وأؤثره ، فهما تسميانني دائماً « الكونتة فرجينى » بدلا من « فرجينى دي لانور » أي أنها تأتي عليّ أن أحمل اسم والدي ، الذي أحبه وأعطف عليه ، وأفخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أن أنسى ما كابدته في حياته من شقاء وألم ، في سبيلك وسبيل سعادتك ، حتى سقط في مصرعه المحزن المؤلم في صحارى مدغشقر ، غريباً وحيداً ، لا يعطف عليه عاطف ، ولا ييكى عليه باك .

« ويخيل إليّ فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا

« ليت شعري هل تستطيع فرجينى أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث ، الذي تتحدث عنه هذه الروايات ؟! إنني أخاف عليها خوفاً شديداً .»

* * *

(١٩)

أوروبا

مرت ثلاثة أعوام ، ولم يرد على هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها ، فقلقت لذلك أشد القلق ؛ لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئاً منذ سافرت حتى اليوم ، سوى ما كانت تسمعه من حين إلى حين من أفواه بعض الطارئين على الجزيرة أنها وصلت سالمة إلى بيت عمتها ، وأنها تعيش في ذلك البيت عيشاً سعيداً ، يحسدها عليه الحاسدون ، ثم ورد عليها منها بعد حين ذلك الخطاب ، ولا أزال أحفظ صورته حتى اليوم :

« والدتي :

« كتبت إليك قبل اليوم كتباً كثيرة ، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك ، فأرسلت إليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق الذي كنت أرسل إليك منه .

« لا أحذلك كثيراً عن سفري وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسي عظيم ، ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيراً وتألّمت كثيراً ، حتى رحمني من كان معي ، وكان يخيل إليّ والسفينة تمخر بي في عباب البحر أنني إنما أفارقك فراقاً لا رجعة لي منه أبداً الدهر ، ولقد شعرت بوحشة عظيمة في الساعة التي دخلت فيها قصر عمتي ؛ فقد خيل إليّ أنه على جماله ورونقه ، وحسن نظامه وديع هندامه ، وكثرة الزاهيين والآتين في أبيهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نائمة فيها ، ولا

الرحيمة التي ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعوري بشعورها . فأنا أعيش من بعدها في ظلمة حالكة ، لا يلمع فيها نجم ، ولا يضيء كوكب ، ولولا أنني أعلم أن بقائي هنا إنما هو تنفيذ لإرادتك ، ونزول على حكمك ما أطق البقاء ساعة واحدة .

« ولقد كنت أجهل في مبدأ أمري أخلاق سكان هذه البلاد وطباع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار ما منحهم من جمال الصور ونضرة الأجسام ، حتى تكشف لي أمرهم ؛ فرأيت أنني أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم ؛ فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، في جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يرون في ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الأساس الأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظاماً خاصاً بهم ، يختلف عن نظام البشر جميعاً في كل مكان وزمان !

« ولقد لبثت زمناً طويلاً أكتب إليك الكتاب بعد الكتاب ، ثم أنتظر رده فلا يرد إليّ شيء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب ، وأذهب في تأويله مذاهب مختلفة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التي كنت أعتمد عليها في حمل كتبي إلى البريد ، كانت تحملها إلى عمتي فتقرؤها وتمزقها ، فأحزنني ذلك حزناً عظيماً ، ثم أفضيت بالأمر إلى صديقة لي من طالبات المدرسة ، كنت أثق بها كثيراً ، فأخذت على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب إليك ، وها هو ذا عنوانها مرسل مع هذا ، فابعثي إليّ برسائلك من طريقها .

« وبعد ؛ فليس في هذه الحياة التي أحيها هنا ما يروقني ويعجبني ؛ فأني لا أزال حتى الساعة أعيش في قفرة موحشة لا يؤنسني فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتي لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتي ، يزعم أنه يحبني ويعطف عليّ ، وأحسب أنه كاذب

لي بالتحدث عنك ، أو عن حياتي الماضية معك . فإذا ذكرتك أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التي قضيت فيها زهرة حياتي ، نظرنا إليّ نظرات الهزاء والسخرية ، وقالت لي : « إنك بারيسية يا سيدتي ؛ فلا يجمال بك أن تتحدثي أمثال هذه الأحاديث عن تلك الأصقاع المتوحشة .»

« وأغرب من هذا أنها على جودها وسخائها ، وبسطة يدها ، وإحاطتها بإي بي جميع صنوف الرعاية والإكرام ، لا تسمح ببقاء درهم واحد في يدي ، كأنها تخشى أن أبعث إليك بشيء من المال ، ولا أدري ماذا يعنيها من ذلك . على أنني أعترف لها بأنها قد صدقت في فراستها ، فأني ما كنت أتأخر عن أن أبعث إليك بجميع ما يصل إلى يدي ، لو وصل إلى يدي شيء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا فقيرة معوزة لا أملك شيئاً ؟ بل أنا الآن أفقر مني في كل عهد مضى ؛ لأنني عاجزة عن أن أمد يدي بالمعونة إلى من تهمني معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل إليك شيئاً من المال تستعينين به على عيشك في تلك البلاد المقفرة ، فكان جوابها : « إن الحياة في تلك البلاد لا تحتاج إلى كثير من المال ، وإن المال يفسدها ويريكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، إلى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل .»

« فلم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكنني فهمت أنها لا تكثر بك ، ولا تحفل بشأنك ، وما كنت أريد أن أقص عليك شيئاً من هذا ، لولا أنك أوصيتني أن أصدقك الحديث عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر . فليتك تحضرين إليّ يا والدتي ؛ لتعيشي بجاني ، وتحملني عني بعض ما أكابده من الوحشة والكآبة في هذه البلاد ؛ فإن حياتي - على رغدها ورخائها ، وتوفر أسباب النعمة فيها - شقية جداً ، لا أجد فيها أنساً ، ولا اغتباطاً ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الأتواب الجميلة ، ولا الجواهر الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشيء من وحشتي وضجري ؛ لأنني لا أجد حولي تلك القلوب الطيبة

وأن يحبها كما أحببتها ؛ لأنها على جمالها ورقتها حية خجولة ، لا تألف إلا المخاض والمكان ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها .

« وأوصيه أيضاً أن يفرس الزهرة السوداء التي يسمونها « زهرة الحداد » في ظل الصخرة التي جلسنا عليها معاً « ليلة الوداع » ، وقد سموها بهذا الاسم ؛ لأنها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة ، تدور بها دائرة سوداء ، كما يدور الخمار الأسود بوجه الفتاة الحزينة في موقف الشكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع » ، ويحييها عني ، كما يحيي جميع الأمكنة والبقاع التي يعلم أني أحبها ، ويلغيه أيضاً أني لا أزال أذكره وأنني لن أنسى قط أياديهِ البيضاء التي أسداها إليّ فيما مضى من أيام حياتي ، وأنني دائماً عند ظنه بي .»

فاستطير پول فرحاً وسروراً ، وتناول الكيس الصغير الذي أرسلته إليه ، فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الأولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب ، على شكل زهرتين متعاقبتين ، فسر بذلك سروراً عظيماً ، وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه .

وقد كتبت هيلين إلى ابنتها كتاباً ، قالت لها فيه إنها وجميع أفراد الأسرة أصبحوا بعد فرقتها في وحشة مخيفة ، لا يهونها عليهم شيء من الأشياء ، وإن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها منقطعين عن رؤيتها ، وإنها لا ترى بأساً من رجوعها إلى الجزيرة متى أرادت ذلك .

وكتب إليها پول يشكر لها هديتها ، ويقول لها إنه قد أصبح الآن عالماً من علماء الفلاحة ، وأنه سيقوم بغرس تلك البذور في أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التي يرسمها ذلك الفن ، وإنها سترها حين عودتها زاهرة نامية ، تحيها بابتساماتها اللطيفة وتنشر عليها ظلالها وأفياءها . ثم أخذ يثها آلام نفسه ولواعجها ، التي قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاة لم تترك دمة في محاجرهما عندما

فيما يقول ؛ لأنني لا أشعر بحبه ، ولا العطف عليه ، فأنا أقضي جميع أوقاتي مكبة على منسجي ، أروح عن نفسي بالنسج والتطريز . وستجدني في الحقيقة المرسله إليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والأخمرة ، هي قسمة بينك وبين أمي مرغيت ، وقلنسوة لدومينج ، وثوباً لماري ، وكنت أود أن أرسل إليها كثيراً من أثوابي الخليعة ، لولا أن الوصائف هنا لا يسمحن لي بذلك ؛ لأنهن يتقاسمن ملابسني ، ويقررن مصيرها قبل أن أخلعهما .

« تحيتي إلى أمي مرغيت ، ووالدي دومينج ، ومريتي ماري ، وأستاذي الشيخ الجليل ، وكليي الأمين « فيديل » وإلى جميع شويهااتي ، وأعززي ، وطبوري ، وعصافيري . واعلمي يا والدتي أنني في أشد الحاجة إلى بقائتي بجانبك ، وإلى الرجوع إلى تلك الحياة الطيبة السعيدة التي فقدتها ، ولا أزال أبكي عليها ، وأنني أعيش كما تعيش النبتة الغريبة في أرض غير أرضها ، ومناخ غير مناخها ، فهي صائرة إلى الدبول والاضمحلال ، وأرجو أن أراكم جميعاً عندي قريباً ، أو أراني عندكم ، والسلام .»

« فرجيني دي لانور »

وكانوا جميعاً يصغون إلى الكتاب عند تلاوته ، ويذرفون الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب پول أنها لم تذكر اسمه في كتابها ، ولم ترسل إليه تحيتها كما أرسلتها لكل من في الجزيرة ، حتى لطيوورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائماً الحديث عن أهم الأشياء لديها وأجلها شأنًا عندها إلى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة في زاوية الكتاب ، فقرأتها ، فإذا هي تقول :

« بلغي أخي پول تحيتي وشوقي ، وقولي له إنني قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة ، تشتمل على بضعة أنواع من البذور الأوروبية التي يفرسونها هنا ، ويحتفلون بها احتفالاً كثيراً معنونة بأسمائنا ، فإنني أرغب إليه أن يُعنى عناية خاصة بزهرة البنفسج ؛ فيفرسها تحت نخلتني الجوز المسماتين باسمي واسمه ،

لا يجول نظره في أفق أوسع من الأفق الذي يعيش فيه ؛ كان من أبعد الأشياء عن ذهنه أن يتصور أن فرجينى غادرة خائنة .

وكان إذا حزّ به الأمر ، ولجّت به الوسواس والهموم ، فزع إليّ وألقى بين يدي ألقاله وأعباءه ، فأحدثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والأيام وصروفها ، وما يتداوله الناس في دنياهم من نعيم ويؤس ، وجدة وفقر ، وراحة وتعب ، وصحة ومرض ، ورجاء يشرق في ليل اليأس حتى يحيله نهاراً ساطعاً ، ويأس يغشى نهار الرجاء حتى يبده ظلاماً قاتمًا ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويفلج^(٢) عليه ، فيجد في أحاديثي هذه ملهات يتلهى بها حيناً عن شواغله وهمومه .

* * *

(٢٠)

الطبيعة

وهنا قلت للشيخ : « هل لك يا سيدي أن تحدثني قليلاً عن نفسك ؟ فإني أشعر منذ جلست إليك أنني أجلس إلى رجل من عظماء الرجال ، ليست مثل هذه الأرض مما تنبت مثله في وفور عقله ، وسعة مداركه واكتمال أهبتة ، وكثرة تجاربه واختباراته . ولا بد أن حادثاً من حوادث الدهر العظام قد قدف به إلى هذه الجزيرة النائية ، فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون . »

فرفع رأسه إليّ وقال : « سأحدثك عن نفسي قليلاً يا بني ، فلا أحب للمرء من أن يجد إلى جانبه جليساً يستطيع أن يسكب نفسه في نفسه ، ويفضي إليه بسريرة قلبه . » ثم اعتدل في جلسته وأنشأ يقول :

إني أسكن يا بني على بعد فرسخ^(٣) ونصف من
(٢) يفلج : يفوز . (٣) مقياس للطول يساوي نحو ٥ كيلومترات .

قرأتها إلا استذرفتها .

ثم أخذ بعد ذلك يهيم الأحواض لغرس تلك البذور ، ويعد لها عدتها من ظل وماء ، فأنفق في ذلك وقتاً طويلاً ثم غرسها ، فلم تلبث إلا قليلاً حتى ذبلت وتضاءلت ، إما لأنها ميتة لا حياة فيها ، أو لأن التربة غير صالحة لنمائها ، أو لأن الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتراكا في نظام واحد ، وحياة واحدة ، فتطير بذلك وتشاءم . وزاده حزناً وألماً ما أصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين الطائرين على الجزيرة ، من الروايات الغريبة التي تفترق ما تفترق ثم تتفق ، على أن فرجينى موشكة أن تتزوج ، فلم يحفل بذلك في مبدأ الأمر ، ثم حفل واهتم ؛ لأن أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها على النفس ، وبدأ يصدق ما يسمعه ، لا لأنه يعتقد صدق القائلين ، بل لأنه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائماً ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث من غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور ؛ فيكون الدخان الذي ينبعث عنها إنما هو دخان المختلقات والمفتريات .

وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء ، فيقول في نفسه :

« ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها ، وحول حياتها الطيبة الطاهرة إلى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها ، وأيمانها المخرجة التي أقسمتها بين يدي ألا تستبدل بي أخاً سواي ، والنفس الإنسانية - كما يقول «روسو» - مرآة تتراءى فيها مختلفات الصور والألوان ، والمرء - كما يقول «موبسان» - ابن البيئة التي يعيش فيها . »

فكان استنارة ذهنه ، وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه بشئون العالم وأحواله ، كان شقاءً عليه وويلًا له ، ولعله لو بقي قداماً^(١) جاهلاً كما كان ،

(١) القدم : الثقل الفهم .

إربا ، لكان ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسي وسكونه الفكري ، كما تتمتع السائمة على وجهها في مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ، ويظفر بكياته ، ولا سبيل له إلى وجدان نفسه والعتور بها إلا في مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة ، التي يستطيع أن يجمع في ظلالها ما تفرق من أمره وتبعثر من قوته . ويصغي في وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها ، عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ؛ فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير والكبد الطويل ، كالسبل المنحدر من أعالي الجبال ، لا يزال يحمل في طريقه الأقداء والأكدار ، فإذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة ، يتلأأ في صفحتها الصقيلة اللامعة جمال السماء وبهجة المأل الأعلى .

ولقد كنت أحد أولئك الفارين بأنفسهم من لخب المدنية وضوضائها ، وضلالها وحيرتها ، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذي بنيت يدي على ضفة ذلك الجدول الصغير . ولقد رزقني الله أرضاً خصبة جيدة التربة ، أقضي جميع أوقاتي في حرثها وفلحها ، وتصريف مياهها ، وتشذيب أشجارها ، لا معين لي إلا قوتي ، ولا أنيس لي غير وحدتي .

فإن شعرت بشيء من الملل رجعت إلى تلك الأسفار القليلة التي اخترتها لصحبتني ، حين نفضت يدي من جميع الأصدقاء والأصحاب ؛ لأحدث على صفحاتها أولئك الرجال العظام ؛ أصحاب المبادئ القويمة ، والمقائد الثابتة ، والآراء الناضجة ، الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوفوا رغبة الناس في أهوائهم ومطامعهم ، ولا ليعجبوهم من ذكائهم وفطنتهم وغرابة ابتداعهم ؛ بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدهوء عن وجه الحقيقة ، فيراها الناس كما هي ، غير مشوهة ولا مزخرفة ، لا يتغنون على ذلك أجراً سوى أن يروا الإنسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقاها ، إلى ذروة سعادتها

هذا المكان ، على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذي يسمونه « الجبل الطويل » ، وهنا أقضي أيام حياتي وحيداً منفرداً ، لا زوج لي ولا ولد ، ولا أنيس ولا عشير ، وعندني أن سعادة المرء لا تعدو إحدى حالتين : أن يوفق إلى زوج صالحة تحبه ويحبها ، وتخلص إليه ويخلص إليها ، فإن أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا المعتزل ، يتمتع فيه بجوار نفسه وعشيرتها ، وقد قضى الله أن أحرم الأولى ، فلم يبق لي بدٌ من اختيار الثانية .

والعزلة هي المرفأ الأمين الذي تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج ، وتصطلمح عليها هوج الرياح ، وهي الواحة الخصبة التي يفيء إليها السفر بين الأبن والكلال ، فيجدون في ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ولوافح الرمضاء ، وهي المنزلة الأولى التي ينزلها المرء في طريقه من الدنيا إلى الآخرة ؛ ليستجم ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد عده للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً في الشعوب الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام إرادة حاكميها الظالمين وملوكها المستبدين ، كما كان شأن المصريين والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ ، وكما هو شأن الهنود والصينيين والإيطاليين والشعوب الشرقية اليوم .

وقد يكون ذلك أحياناً في الأمم المتمدينة المتحضرة ؛ فإن للمدينة شقاء كشقاء الهمجية ، لا يختلف عنه إلا في لونه وصبغته . فإن وقوف الإنسان في وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين مختلف المذاهب والشيع ، والآراء والأفكار يحاول كل منها أن يجذبه إليه ، ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة في مهاب الرياح لا تستقر في قرار ، ولا تهبط في مهبط ، متعبة عقلية لا قبل له باحتمالها .

ولو أنه كان أسيراً في قوم متوحشين ، وقد شده أسروه إلى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعض من أعضائه يجذبه جذباً شديداً ليمزقوه إربا

وهناؤها .

فإذا جلست لقراءتها رأيت في مرآتها ذلك العالم الذي فارقه واجتويته^(١) ، ورأيت شقاءه الذي يكابده ، وآلامه التي يعالجها دون أن يحس أنه يشقى أو يتألم ، فأشعر بما يشعر به ذلك الذي نجا من سفينة موشكة على الغرق إلى صخرة عالية في وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء ، ف شعر ببرد الراحة وطيب الحياة .

ولقد أصبحت بعد أن فارقت الناس وصرت بمنجاة منهم ، أحنو عليهم ، وأرثي لبؤسهم وشقايتهم ، وأضر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقايتهم الذي يعالجونه وبؤسهم الذي يكابدونه ، على كثرة ما قاسيت منهم في مقامي بينهم من الهموم والآلام والمهانات .

ولم يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم إلى الحياة الطيبة السعيدة ، حياة الطبيعة والفطرة ، وأنمي^(٢) عليهم ذلك التكلف والتعمل في مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم ، وعقائدهم ومذاهبهم ، وآرائهم وأفكارهم ، وصلاتهم وعلاقتهم ، وأقول لهم :

« أيها الناس عودوا إلى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم وأرفأ بكم من كل شيء في هذا العالم ، واعلموا أن جميع ما تكابدون من الآلام والأسقام في حياتكم ، إنما هو عقوبة لكم على عقوqكم لها ، وتمردكم عليها ، وكفركم بسننها وشرائعها ؛ فاشربوا قراح^(٣) الماء إن شربتم ، وكلوا بسيط المأكول إن أكلتم ، واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم ، وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، و وحدوا نظركم إلى الأشياء والشئون بقدر ما تستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهادأ عنكم نار تلك البغضاء التي تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم .

(١) اجتري الشيء: كرهه ومله . (٢) نعى عليه: عاب عليه .

(٣) القراح من كل شيء: الخالص ، أي الماء الصافي .

« واعلموا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى كل هذه الجلبة والضوضاء ؛ فخذوها من أقرب وجوها ، وألين جوانبها ، واقنعوا منها بالكفاف الذي يمسك الحوياء^(٤) ، ويعين على المسير ؛ فإنما أنتم مارون لا مقيمون ، ومجازون لا قاطنون . ولا يوجد بؤس في العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على عين ماء ليطفئ ببردها غلته ، ويجد في ظلالها راحته ساعة من نهار ، ثم يمضي لسيبله ، فصدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكذب يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد ، فهلك دون مرامه ظمأً وعيًّا .

« ولا يقذفن في روعكم أنني أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومقتها ، ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذاتها ؛ فالزهد عندي سخافة كالجشع ، كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة إليه ، وكلاهما خروج عن القصد وضلال عن السبيل ، وإنما أريد أن تترفقوا في الطلب ، ولا تمنعوا فيه إمعاناً ؛ فالإمعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوي على الضعيف ، والجشع المتكالب على القنوع المعتدل ، يسلبه ما بيده ويحرمه القليل التافه الذي يتبلغ به باسم جهاد الحياة ، وتنازع البقاء .»

فكان جزائي عندهم ، على هدايتهم وإرشادهم ، ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذي يعالجونه ، أن سخروا بي واحتقروني ، وسموني مجنوناً ، ولم يقنعوا في أمري بتركي وشائي ، كما يترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذوني عدواً لهم يحاربوني كما يحاربون الله والطبيعة . ولا ذنب لي عندهم إلا أنني أسمي المال شقاء ، ويسمون سعادة ، وأسمي الجاه مؤونة ويسمون متعة ، وأسمي اللجاج^(٥) في الطلب والتهالك فيه جنوناً وخيلاً ، ويسمون حكمة وحزماً . ثم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم وخيبة آمالهم ، ويسقطوا في الهوة التي كنت أقدر لهم السقوط فيها ، فلا يكون أثر ذلك في نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويدعونا

(٤) الحوياء: النفس . (٥) اللجاج: الإلحاح ، والتماذي .

الطبيعة ١٦٧

لقمتي مغموسة بدمي لا بدماء الضحايا والهلكى ،
وأن أعود بما فضل عن حاجتي على البائسين
والمساكين ، والساقطين في هوى اليأس ، المنقطعين
عن قافلة الحياة . ولو أن جميع لذائذ الدنيا ، مأكلاً
ومشرباً وملبساً ومسكناً ، وضعت لي في كفة ، ثم
وضعت لي في الكفة الأخرى لذتي في هداية ثأته
ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله ،
لرجحت عليها .

وهكذا أقضي حياتي في تلك الجنة الصغيرة ،
على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدي ذلك
الخضم العظيم ، متمتعاً بما شئت من جمال الدنيا
وبهجتها ، ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة
ومشاهدتها ، فالسما . فوقني تتلألأ بنجومها
وكواكبها ، والبحر أمامي يعج بأموجه وأنباجه^(١) ،
والأرض بين يدي تختال في أنوابها وأبرادها ،
والأصوات المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول
المتسلسل ، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة
والأشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية
مختلفة الآلات والنغمات ، تسمعنني ما لم أسمع
يوماً من أيام حياتي في أكبر معهد غنائي ، من أكبر
فرقة موسيقية .

فإذا جلست أمام كوخني على تلك الصخرة
العالية التي اعتدت أن أجلس عليها ، رأيت النخل
الباسق مصطفاً بعضه وراء بعض ، كأنه السطور في
الكتاب ، رؤوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة
بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو
يجري في خلال الخمائل الملتفة ، جريان القمر
الساري في أعماق السحب المتكاثفة ، فلا يرى منه
الرائي إلا بوارق خاطفة ، تلمع من حين إلى حين .
وألقي نظري تارة على الروض الجميل الذي غرسته
بيدي ، فأرى صنوف أشجاره وألوان أزهاره ، وأنواع
كرومه وأعنايه ، فأراه في سكون الريح وهدوئها معبداً
قد لبس الجلال والوقار ، وانتشرت في جنباته أشخاص
الراكعين والساجدين ، وفي هبوبها وانبعائها مرقصاً

لأحكامه وأحكامها ، ويعودوا باللائمة على أنفسهم
فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقع أن يكون ، بل
ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق ،
والدنيا والآخرة ، ويشيرون الثائرة على الشرائع الأرضية
والسماوية والنظم الطبيعية والوضعية ، وعلى أنا أيضاً ؛
لأنني لم أهو معهم في الهوة التي هووا فيها ،
كأنني أنا الذي أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا
المورد الويل^(١) ، وما أشقاهم إلا الطمع لو كانوا
يعلمون !

وأما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله ،
وأرحت نفسي إلى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة
الممضة ؛ مناظر التهافتين ليلهم ونهارهم في تلك
الحفائر الجوفاء التي حفرتها في طريقهم أيدي
المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذني ذلك الدوي
الهائل الذي كان يزعجني ويقلقني . وأصبحت في
وحدتي هذه أتمتع بالهواء طلقاً غير مكدر ، والنور
ساطعاً غير منغص ، والجمال خالصاً غير مشوه ،
أتبسط في أنحاء نفسي حيث أشاء ، ومتى أشاء ،
وأناجي الله والطبيعة وجهاً لوجه ، لا يحول بيني
وبينهما حائل ، وأذكر على الطريقة التي أريدها ، لا
التي يريدها الناس ؛ وأنسج ثوبي على مقدار جسمي ،
لا على مقدار جسيم الآخرين . وأشرف من قمة
وحدتي وعزليتي على ذلك العالم الذي فارقت
واجترته ؛ فأعجب لتلك الهموم والآلام التي يعالجها
لغير علة ولا سبب ، ولتلك المعركة الهائلة التي
يشنها بعض أفرادها على بعض على غير طائل ،
سوى أن يهلك أحدهم في سبيل الآخر ، ثم يهلك
الآخر في سبيل آخر . وهكذا تمتد سلسلة الهلاك
فيهم إلى ما لا نهاية لها ، كقطع الأمواج التي
تتوالب على الصخور المعترضة في مجراها ، فتتكسر
عليها واحدة بعد أخرى ، ثم تتلاشى كأن لم تكن ؛
فأحمد الله على نجاتي منهم وخلاصي من أيديهم ،
وعلى أنني استطعت أن أعيش على حساب نفسي ،
لا على حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول

(٢) القَيْح: وسط الشيء تَجَمُّع ورز .

(١) الويل: الشديد والوخيم .

بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة جدول واسع ، أو نهر متدفق ، فيكون لها في غدوها ورواحها ، ووثها وقفزها ، وضحكها مرة وغضبها أخرى ، وترفقها الغريب في طلب عيشها وتحصيل رزقها منظر بديع رائع ، لا تكدره حبال منظومة ، ولا ترعجه قذائف منطلقة .

وأستطيع أن أقول لك يا بني إنني ، وقد عاشرت الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة ، والقردة الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطباعها ، ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لا تفترس إلا إذا جاعت ، ولا تشرس إلا إذا أهيجت ، ولا تطمع في أكثر من كفاف عيشها ، وعلا^(٢) حياتها ، أصبحت أعتقد أن الإنسان أضرب منها وأشرس وأنه مخدوع أو خادع في تفضيل نفسه عليها .

ولم يزل هذا شأني حتى نزلت بالجزيرة تلك الأسرة الصالحة الكريمة ، فكانت أيامي معها غرة أيام حياتي وكوكب سمائها الساطع . فوا أسفي عليها ، ووافجعتي بالحياة من بعدها !

* * *

(٢١)

الحديث

وحسبك الآن يا بني ما عرفت من شأني ، فلأعد بك إلى شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثت عن أنه كان يختلف إلي كثيراً بعد سفر فرجيني ؛ ليطلب عندي عزاءه وسلواه وراحة نفسه من بلائها وسواسها .

فوفد إلي ذات يوم ، وكنت جالساً تحت شجرة قصيرة ، كانت قد غرستها فرجيني فيما غرست من الأشجار الكثيرة التي كانت تحمل معها بذورها حيثما ذهبت وأينما حلت ، قائلة :

« لعل الله يمنحها النماء والنضرة ؛ فيهدي بها

(٢) العلالة: بقية كل شيء ، وما يتلوه به .

ترنح فيه القدود وتعتنق القامات ، وتقابل الحركات والسكنات . ثم أنظر إلى السيل المتدفق من أعالي الجبال ، فأرى تلك المعركة الهائلة التي تجري بينه وبين الصخور الناتئة في طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه ، فتتطاير أجزاؤه في جو السماء كأنها شظايا ألواح البلور ، فيشتد غيظه وحنقه ، ولرغاؤه ولزباده ، ويحاول أن يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخرًا أكثر مما نال أولاً ، وهي جامدة في مكانها ، لا تحرك ساكنًا ، ولا تمد يداً ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ، شأن الطيش والنزق بين يدي الرزاة والحلم ، فينحدر عنها إلى السهل متغلغلا في أعماق الخمائل والأدغال ، كأنما يتوارى حياءً وخجلاً ، ثم لا يلبث أن يستحيل بعد ذلك إلى امرأة صافية ، تتراءى فيها صور النخيل والأشجار ، وظلال القمم والهضاب ، كأنما قد خطها رسام ماهر برشة رقيقة في صحيفة ناصعة .

وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر ، مناظر الطيور الغريبة حين تفد في أواخر فصل الصيف أسراباً من أقاصي البلاد ، مجتازة ذلك الخضم العظيم ، إلى حيث تتلمس رزقها الذي أعوزها في أرضها ، فتقع على ذوائب الأشجار وضفاف الأنهار ، وتخلق فوق الجداول والغدر ، شادية مترنمة ، مفرقة بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتألقة ، وكأنما قد نخلت من نفسها على الجزيرة برداً مفرقاً^(١) ، ترف حواشيه وأهدابه ، وترجف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها في بعض ، فأجد من الأنس بها والغبطة بعشرتها ما يملأ قلبها بهجة وحبوراً ، إلا أنها لا تمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق عشيره .

وقد أجلس أحياناً على شاطئ البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء ، وهي تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدورها ، أو تركتها معلقة بأذنانها ، وقد يكون

(١) البرد المفروق: الكساء الرقيق المخطط .

كانت هي وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة المجد التي بلغوها ، فهل كنت تخدعني فيما قلت لي وكان يخدعني أولئك الكاتبون ؟!

قلت : « لم أخدعك يا بني ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضي ، أما اليوم ، فالملوك متكبرون متغطرسون ، لا يؤثرون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ، ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يقربون ، ولا يدنون إلا من أمسك بطرف سلسلة ، يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء ، أو قائد من القواد ، أو نبيل من النبلاء ، وهؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ، ووزرائهم وقوادهم ، ولا تهم وعمالهم ، وجلساؤهم وسمازمهم ، ومواضع ثقتهم وأمناء أسرارهم ، أحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ، فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يصل أحداً من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا ، وقُبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة وشعراؤها وحكماؤها وعلمائها ، ورجال الفنون فيها أضعف الناس ، وأهونهم خطراً ، وأدناهم منزلة في ترتيب درجات الإنسانية ؛ لأنهم قد حرّموا الاتصال بتلك الشمس المشرقة التي تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل . »

قال : « وماذا عليّ إن اتصلت بنبل من أولئك النبلاء ، وعشت تحت كنفه ؛ لأصل من طريقه إلى الغاية التي أريدها ؟! »

قلت : « إنك لا تستطيع أن تنال الحظوة عنده إلا إذا نزلت على حكم أهوائه وشهوته ؛ أي أن تجعل نفسك جسراً يمشي عليه إليها ، وذلك ما تأباه عليك عزة نفسك وأفتتها . »

قال : « يخيل إليّ أنني إن قمت بواجبي لأمتي و وطني ، وأدبت للإنسانية العامة خدمة عظمي یرن صداها في جميع الآفاق ، لا أعلم أن أجِد بين الأشراف المحسنين من يتولاني بحمايته ورعايته ، ويأخذ بيدي إلى المنزلة التي أستحقها . »

قلت : « استمع مني كلمة أقولها لك يا بني :

ضال ، أو يفنيء إليها حائر ، أو يتعلل بها ظامئ . » فجلس بجاني ، وأطرق إطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه وقال :

« أنا حزين جداً يا والدي ، ويخيل إليّ أن فرجينى قد نسيتني ، وأن يدي قد أصبحت صفرًا منها إلى الأبد ؛ فلقد مر على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إليّ فيها إلا كتاباً واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، وماذا دهانى عندها . ولقد حدثتني نفسي اليوم أن أسافر إلى فرنسا أسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته ، وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة ، أستطيع أن أقدم بها إلى جدة فرجينى ، فلا ترى مانعاً - وقد جمعت في يدي بين حاشيتي المجد والشرف - أن تزوجني من حفيدتها . »

قلت : « أ لم تخدثني يا ولدي قبل اليوم أنك لا تتصل بنسب شريف ، أو أنك لا تعرف لك أباً ؟ »

قال : « وأية علاقة للأبوة والبنوة بما نحن فيه ؟ إنني لا أريد أن أقدم إلى الملك بحسبي ونسبي ، بل بكفائتي ، وجدارتي ، وخدمتي التي أقدمها لوطني ؛ وهل يوجد في الناس من يأخذني بذنب لست صاحبه ، ولا صاحب الرأي فيه بل لم أكن حاضره ولا شاهده ؛ لأنه وقع قبل وجودي في هذا العالم ؟! على أنني لا أعد ما كان ذنباً ؛ لأن والدتي أطهر وأشرف من أن تقترب الجرائم والذنوب . »

قلت : « إنك تخدثني بلسان الحقيقة ، أما لسان الاصطلاح ، فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه ، فلا سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من درجات المجد ، بل لا سبيل له أن يأخذ لنفسه مكاناً مطعمئاً بين الطبقات العالية الرفيعة ، التي يسمونها طبقات الأشراف والنبلاء . »

قال : « إنك قد قلت لي قبل اليوم ، كما قرأت في كثير من الكتب ، إن عظمة فرنسا إنما حملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين ، الذين لا يمتون إلى الناس بحسب أو نسب ، ولا شأن لهم في حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدمات جليلة ،

سأقضي بقية أيام حياتي في ظلمة داجية ، لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيها بارق من بوارق الإحسان ، وأن قد حبل بيني وبين فرجيني إلى الأبد !

قلت : « إنك وأهم يا بني » ؛ فما أنت بشقي كما تظن ، وما الشقاء إلا تلك العظمة التي تتطلبها وتسعى إليها . إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهذوثك وسكونك ، وطهارة ضميرك ، وصفاء سريرتك في سعادة لا يتمتع بها متمتع على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التي لا سبيل لك إلى بلوغها إلا إذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة^(١) ، والظلم والإثم ، ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس بالدسائس والدنایا بالدنایا ، والأكاذيب بالأكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقداً و موجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك . وكنت في آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم على من هم دونك ، ثم لا تحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تطعم لقمة يطعمها جميع الناس ، وتستر سوءاً لا يوجد في الناس من لا يسترها !؟

« وما أحسب فرجيني ترضى لك ولا لنفسها أن تكون وسيلتك إليها هذه الوسيلة الدنيئة الحقيرة ، وهي الفتاة الشريفة الفاضلة التي لها طهارة الملك في سمائه ، وصفاء الكوكب في أفقه .

« واعلم يا بني ، أن الفقير يعيش من دنياه في أرض شائكة قد ألفها واعتادها ، فهو لا يتألم لوخزاتها ولذعاتها ، ولكنه إذا وجد يوماً من الأيام بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً ، وأن الغني يعيش منها في روضة مملوءة بالورود والأزهار قد ستمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه إذا عثر في طريقه بشوكة تألم لها ألماً شديداً لا يشعر بمثله سواء ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملاً كل شيء ، من أن يعيش غنياً خائفاً من كل شيء .

(١) داجاةٌ مُداجاةٌ: سائرةٌ بالعداوة ولم يُبَيِّها له .

لقد كان اليونان والرومان والمصريون ، حتى في أدوار سقوطهم وانحطاطهم ، يجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدمون المواهب والمزايا أعظم تقدس ، ويعرفون لأصحابها أقدارهم ومنازلهم ، ويسيطون عليها جناح مودتهم ورحمتهم ، ولعلك قرأت من ذلك شيئاً في كتب التاريخ .

« أما اليوم فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصوراً بين الجاه والمال ، فلا يظفر به إلا ذو منصب عال أو مال كثير . وقد يعطف بعض أولئك الذين يُسمونهم النبلاء على بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتاب ، والموسقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ، أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ؛ بل ليزينوا بهم مجالسهم كما يزینونها بالتحف والذخائر ، وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم وخضوعهم بين أيديهم ، كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم ومجآتهم . وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة ، أو أن يكون منتهى آمالك في حياتك أن تصبح خليعاً ماجناً .

قال : « إن فائتي أن أعيش في كنف رجل شريف ، فلن يفوتني أن أعيش في كنف حزب من الأحزاب ، أو جماعة من جماعات أخدمها ، وأخلص لها ؛ فأنال الخطوة عندها .

قلت : « إنك تستطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سداً إلى الأبد ؛ فالهيئات كالأفراد ، لا يعينها إلا مصلحتها وفائدتها ، وكثيراً ما تكون مصلحتها في جانب ، والحق في جانب آخر ، بل ذلك هو الأعم الأغلب في أمرها ، فإما جارتها فهلكت ، أو نابذتها فاستهدفت لغضبها ومقتها .

قال : « الموت أهون عليّ من أن أخطو خطوة واحدة لا يرضى بها ضميري .

قلت : « إذن ودّع جميع آمالك وأمانيك وداعاً دائماً ، لا لقاء بينكما من بعده .

قال : « وا شقاءه ! لقد أخذت عليّ جميع السبل ! وسدت جميع المسالك ، ويخيل إليّ أنني

وأجبال.

قال : « لولا فرجيني ما أسفت على شيء في الحياة ، ولا بكيت على فائت منها ! »

قلت : « إن فرجيني باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ما قطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع في عهد قريب ، فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ، وأعد نفسك لحياة مستقبلية سعيدة ، يستغفر لك الدهر فيها عن جميع سيئاته إليك . »

فأضأت حول ثغره ابتسامة لم تضئ من عهد بعيد وقال : « أنت على ثقة مما تقول ؟ »

قلت : « نعم . »

فكأنما قد نزل عليه بهذه الكلمة وحي السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمراً عن ساعديه يجول في أكناف حديقة فرجيني يشذب أشجارها ، ويشق أنهارها ، ويحول مياهاها ، ويسقي ما ذبل من أغراسها ، وقد لبس بُرداً قشياً من الجذ والنشاط ، لا عهد له بمثله منذ أعوام ثلاثة .

* * *

(٢٢)

السفينة

وفي عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى پول العلم الأبيض يخفق على قمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمة إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينة التي تحمل فرجيني ، فانهدر إلى شاطئ البحر فيمن انحدر إليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ، وأنه لم يعد حتى الساعة ، فجلس في انتظاره حتى عاد وحده ، فأخبر أن السفينة اسمها « سان جيران » وريانها اسمه المسيو « أوبن » ، وأن الريح لا تساعد على دخول المرفأ الليلة ، ولا

قال : « إنما أريد المجد الأدبي ، لا المجد المالي . »

قلت : « نعم ، إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك إلى الغاية التي تريدها . إن الأدباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التي تطلع في سمائه الداجية المدلهمة ؛ فتنبير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الأشعة الباهرة التي تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة ؛ فتذيب جبالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها . وهم المنائر العالية التي يهتدي بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج الساري أي شعب من الشعوب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ، وهم الأطباء الماهرون ، الذين يتولون القلوب الكسيرة البائسة ، فيعالجون همومها وآلامها ، ويملأون فضائها رجاء وأملًا ، إلا أن سيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ؛ لأنهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة وأكثر عدة وعدداً .

» وهم دائماً هدف لغضب الملوك ؛ لأنهم يثيرون نائرة الشعوب عليهم ، وغضب النبلاء ؛ لأنهم يحرقون نبلهم ، ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضب الكهنة ؛ لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم ، وغضب العامة ؛ لأنهم يطاردون أهواءهم وشهواتهم ، أي أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهي حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهوميير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل أو صلب أو إلقاء في السجن ، أو تشريد في الأرض . ولا ذنب لهم إلا أن أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألوا لألمه ، وبكوا لبكائه ، فقمم البشر منهم هذه العاطفة الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بإزهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم . ولم يقنع في أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم وسود صفحاته بما شاء من الوصحات والعيوب ، ولم تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم وتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون

فرجيني !» وكان أول ما مر بخاطر پول في هذه الساعة أن يذهب إلى كوخى ، ويشترى برزج فرجيني ، ويشكر لى نبوءتى التى تنبأت له بها فى أمرها . وكانت قد مضت هدأة من الليل ، فاستأذن أمه فى ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلا كبيرا حتى وصل إلى بعد ساعتين ، وكنت قد أويت إلى مضجعى ، فأيقظني من نومي وألقى إليّ ببشراه ، فلم يكن سروري بها بأقل من سروره ، وقال :

« هيا بنا نذهب إلى الشاطئ لنتنظر فرجيني ؛ فإن السفينة تصل فى الصباح .»

فقممت إلى ثيابي فأسلبتها عليّ وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمة ، قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، كأنها القافلة السائرة فى الصحراء ، فمشينا لا نهتدي بشيء سوى غريزتنا ، التى تقود خطواتنا دائما فى مفاوز الأرض ومجاهلها . وكنا نسمع من حين إلى حين فرقة هائلة آتية من ناحية البحر ، تشبه دمدمة الرعد ، وليست بها ، فلا نفهم منها شيئا .

فإننا لسائرون إذ لمعنا زلجيا ضخم الجثة يمر بجانبنا ، فاستوقفته ، وسألته من أين أقبل ، فقال :

« إنني مرسل من شاطئ جزيرة الذهب إلى الحاكم ؛ لأبلغه أن سفينة قد ألقى بها التيار إلى ما وراء جزيرة العنبر ، تطلق مدافعها من حين إلى حين ؛ أي أنها فى خطر ، وأنها فى حاجة إلى المعونة .»

فسألته هل يعرف اسمها ؟ فأجاب أن لا ، وانطلق لسبيله . فالتفت إلى پول وقلت له : « أخاف أن تكون سفينة « سان جيران » ، وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطئ .»

وكانت الطلقات قد انقطعت على الحقيقة ، فمشى معي صامتا لا يقول شيئا حتى أشرفنا ، بعد قطع ثلاث مراحل ، على ذلك الشاطئ ، وكانت

يمكنها الوصول إليه إلا الغد .

وكان يحمل فى يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ، بعضها أت من فرنسا ، وبعضها مرسل من ركاب السفينة أنفسهم ، فسمع پول فيما سمع من الأسماء اسم مدام دي لاتور « هيلين » ، فاخططف الرسالة من يد الرجل اختطافا ، وقرأ عنوانها فإذا هو بخط فرجيني ، فطار بها فرحا وسرورا ، وأخذ يعدو إلى المزرعة عدو الظليم ، فرأى على البعد أفراد الأسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها فى الجو ، كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم .

فقدم الرسالة إلى هيلين ، فقضت غلافها ، وأمرت عليها نظرها ، فعلمت أن ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب فى عودتها من فرنسا أن عماتها حاولت كثيرا أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها فى حياتها مذهبا غير مذهبها الأول ، فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمتم عليها نقمة عظمى ، وأصبحت تحتقرها وتزدرىها ، وتتنظر إليها بالعين التى تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام . ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طردا ، فلم تجد بدا من الرجوع ، فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها :

« إنني أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة « سان جيران » ، وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول إلى المرفأ إلا فى الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفى الغد نلتقي إن شاء الله تعالى .»

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحا وسرورا ، وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ، ويهتفان بصوت عال : « قد عادت فرجيني ! لقد عادت

راكباً جواده ، و وراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن تصطف صفّاً واحداً ، ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نوراً لمع على سطح البحر ، وأعقبه دوي مدفع ، فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعاً نحو الشاطئ لتتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأي أن نرى شبحها الغارق في عباب الضباب ، وأن نرى سواريتها الزاهية في كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرجرة الآذي^(٣) ، وزمجرة صوت ربانها ، وهو يصرخ صرخاته العظمى ، التي يستنهض بها همم رجاله . فأمر الحاكم بإعداد زورق لتجديتها ، وإشعال النار على طول الشاطئ لترى على ضوئها الزورق المعد لإنقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها تباعاً ، واستمر التخاطب بهذه اللغة النارية بينها وبين الشاطئ ساعة طويلة .

وإنا لذلك إذ دلف إلى الحاكم شيخ زنجي هرم يدب على عصاه ، وقال له :

« إننا نسمع يا سيدي ، منذ الليلة زمجرة هائلة تنحدر إلينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز وتضطرب ، دون أن تهب علينا ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسراباً ، دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهي العاصفة ما في ذلك ريب ولا شك . أنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فإن لم تفعلوا ، فانفضوا أيديكم منها إلى الأبد ! »

فاصفر وجه الحاكم ، وشعر برعدة شديدة في جسمه إلا أنه تجلد واستمسك ، وصاح :

« سأنقذها ، ولو كان في ذلك حياتي ! »

ولقد صدق الزنجي فيما قال ، فقد لبس الجوارح غريبة ، لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعث في جميع أوصاله رعشة شديدة ، كذلك الرعشة التي تنبعث في جسم المحموم ، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر ، كأن مطارداً يطاردها ويشند على أثرها ، وتراعت قطع

الطلقات قد انقطعت ، فراعني سكوتها أكثر مما راعني دويها ، ثم ظهر القمر في كبد السماء محاطاً بثلاث دوائر سوداء كأنه متمنطق بنطاق الحداد ، فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو نائر مهتاج ، تموج ظلماته بعضها في بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ أو هضابه ، فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لامع كذلك الشرر الذي يتطاير من أجنحة الجُحاحب^(١) .

ورأينا الصيادين مكبين على زوارقهم ، ينقلونها من الماء إلى اليبس ويطرحونها فوق الرمال ، خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها فقصدنا إليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون أن السفينة قد حاد بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى شاطئ جزيرة العنبر ، حيث الخطر عظيم لا حيلة فيه ، وأنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذي بين جزيرة العنبر وجزيرة « سان لوي » فمصيبرها الهلاك ما من ذلك بد ، وكان پول يسمع هذا كله ، وهو صامت مطرق الرأس ، كأنه لا يفهم منه شيئاً .

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترقع عن بياض الفجر ، فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطحلب^(٢) ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ؛ لأن الضباب كان كثيفاً جداً ، وكأنما قد بنى دون السماء سماء أخرى ، لا يرى الرائي من خلالها غير بعض القمم العالية ، تطفو وترسب ، كما يطفو الغريق ويرسب في عباب الماء . ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئاً أشبه بغمامة كثيفة ، فتأملناه ، فإذا هو جزيرة العنبر التي زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا أننا لم نر السفينة بحال من الأحوال .

وهنا حضر المسيو لابوردنيه ، حاكم الجزيرة ،

(١) الجُحاحب: الرّاع ، وهو ذباب يطير بالليل يُضيء ذنبه .

(٢) الطحلب: خضرة تعلو الماء المزمز .

(٣) الجرجرة في الأصل: ترديد البعير صوته في حنجرتة ، والآذي: الموج .

أشدها ، فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصلُ بمنكبه منكب السماء ، ثم يندفع إلى الشاطئ هُوِيَّ العقاب إلى وكرة ، فينسف رماله وحصاه ، ويطير بشظياته في جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مجرجراً في تراجعه ، جرجرته في تدافعه ، كالسهم الأليم في حالتي وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل ، كصفحة المرأة في لمعانها واستوائها .

* * *

(٢٣)

العاصفة

في نحو الساعة السابعة سمعنا قعقة عظمى ، قد انبعثت من جميع جهات البحر في آن واحد ، فاهتزت الأرض والسماء ، ودارت الأرض والفضاء ، وانقلب عالي كل شيء سافله ، وصاح الجميع : « العاصفة ! »

هنا رأينا منظرًا هائلاً مخيفاً جمدت له دماؤنا في عروقنا ، ومشت له قلوبنا في صدورنا ، وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الأيام والليالي ولا نستطيع أن ننساه ، حتى تبرد أعظمنا في ثراها .

رأينا الضباب الذي كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة ، فإذا السفينة ذرة هائمة في ذلك الفضاء الواسع ، تقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ، إن حاولت الدنو من الشاطئ وقفت في وجهها الصخور الناتئة المحددة الأطراف ، كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبها والانسياب في طريق أخرى غير هذه الطريق ، عجزت عن مقاومة التيار ، لأنها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها ، فقلوعها ممزقة ، وألواحها متناثرة ، وحبالها متطايرة ، وسواربها منكسة ، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين والإعياء ، وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أي أن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى .

وكانت العاصفة في تلك اللحظة قد بلغت

ورأينا المضيق الواقع بين شاطئتي الجزيرتين يرغى ويزبد ، كأنما يشتعل من أتون^(١) متقد ، ويرمي بالزبد من حفافيه^(٢) ، كما يتناثر المهن^(٣) المنفوش عن المندف^(٤) . أما السماء فقد أصبحت ميداناً تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء والأرض ، والماء والييس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يموج فيها كل شيء ، ويضطرب كل شيء ، فلم نعد نعلم أ نحن وقوف في أماكننا ، أم طائرون في جو السماء ؟ وهل طفئ الماء على الييس فأحاله ماء ، أم لا يزال الماء ماء والييس ييساً ؟

* * *

(٢٤)

الكارثة

وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا ، وعن كل ما يدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقتنا ، فإذا السفينة قد اصطدمت بإحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير^(٥) من أجرتها قد انقطع ، فانبعثت في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ، وإذا بول يهجم على البحر ليلقي بنفسه فيه ، فاعترضت

(١) الأتون: موقد نار الحمام . (٢) الحفاف: الجانب .

(٣) المهن: الصوف المصبوغ ألواناً .

(٤) المندف: خشبة التناث التي يطرق بها الوتر ليرقق القطن .

(٥) الجرير: الحبل .

الكارثة ١٧٥

العاريتين ، وقد ضمت بإحدى يديهما قميصها إلى صدرها ، ومدت يدها الأخرى إلى ذلك البائس المسكين ، الذي يخاطر بحياته ، ويكابد أعظم الشدائد والأهوال في سبيل الوصول إليها ، فلم نعلم أهي تستغيث به لينقذها ، أم تشير إليه أن يعود إلى مكانه ؛ رحمة به وإشفافاً عليه ؟ فكان منظرها في تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة في صفحة السماء .

من هي هذه الفتاة ؟ إنها فرجيني ! إنها الفتاة الطاهرة الشريفة ، التي تجتو الفضيلة خاشعة بين يديها ! إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التي نبتت من كل قلب ، فهي حبيبة إلى كل قلب ! إنها الرحمة الإلهية التي طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالملوكيين والمرزوقين ! إنها النور السماوي الذي طالما أشرق في القلوب اليائسة الحزينة ، فأثار حلكتها ، وبدد ظلمتها وملأها رجاء وأملًا ؛ لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ، ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يد من الأيدي إلا ارتفعت إلى السماء ، ضارعة إلى الله تعالى أن ينقذها من بلائها .

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوي إلى مستقرها ، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفث المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم إلى الماء ، لا يعلمون أين ذاهبون ؛ إلى الحياة أم إلى الموت ؟ وسفينة النجاة واقفة في مكانها من الشاطئ ، لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة ؛ خوفًا على نفسها من الهلاك ، وأخذت همه بول تضعف وتفتت ؛ لأنه كان قد استنفد جميع قواه ، فلم يبق له منها ما يمسك به رمقه .

وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من فرجيني ، واقفة في مؤخرتها تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بحار واقفًا في مقدمتها ، قد خلع ملابسه ، ثم لمح فرجيني واقفة موقفها هذا ، فأبى له كرمه وفأوه إلا أن يمد لها يد المعونة

طريقه أنا و دومينج ، وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع ، وظل يصيح : « دعوني أنجي فرجيني ! »

فلم يكن لنا يد من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا في وسطه حبلا طويلا وأبقينا طرفه في أيدينا خوفًا عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره في تلك اللحظة منظرًا مخيفًا مربعًا ، كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت إلى صورة وحش ضار ، لا يقوم له شيء إلا أتى عليه . فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعاني في سبيل ذلك ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنو ، فلطمه تيار قوي لطمة شديدة أعادته إلى الشاطئ كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الأعضاء ، فلم يضعف ولم يهن ، ولم يبق إلا بمقدار ما تنفس الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول .

وكان الموج يهدأ حينًا عن السفينة ، فيخيل إلينا أنها واقفة على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ، ورجالها المنتهاتين على سطحها من الإعياء والتعب ، ورجلها الواقف في مقدمتها وقفة الليث الهصور ، يصرخ صرخاته العظمى التي تدوي بها أجواز الفضاء ، ثم يطغى عليها حينًا ، فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها ، كما يغمر القبر دفينه .

وما هي إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ، وبدأ الماء يتسرب إلى أحشائها ، وعلم ركبها أنهم هالكون إن بقوا فيها ، فأخذوا يلقيون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف ، وصناديق وأقفاس ، ثم يلقيون بأنفسهم وراءها .

وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ، وزاغت له الأبصار ، وفاضت له الشئون ^(١) من آمائها ^(٢) لهفة وجزعًا .

ظهر في مؤخر السفينة منظر فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ، واقفة على قدميها

(١) الشئون: الدموع .

(٢) جمع أمق، وهو عَرَفَ العين الذي يلي الأنف .

كانت عزيزة عليّ جداً ، بل كانت أعز مخلوق عندي ، ولو كان لي ابنة لما نزلت من نفسي تلك المنزلة التي نزلتها . وكان كل أمني في حياتي أن أعيش في ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عيني بيدها في ساعتى الأخيرة فلم يُقدّر لي ما أريد . لقد هجرت العالم كله ولجأت إلى هذا المعتزل البعيد النائي ؛ هرباً من الشقاء ، فتبعتني الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركى بعد ذلك حتى ينزل معي إلى قبري !»

ثم تنفس الصعداء وقال : « ولكن الذي يهون وجدي عليها أنها الآن سعيدة في سماءها ، مغتبطة بعيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التي ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها إلى الأبد .

نعم إن يومها كان يوماً هائلاً جداً ، فلقد بكأها كل من رآها حتى الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق في عيونهم موضع للبكاء ، وكان أكثرهم بكاء عليها ذلك البحار المسكين الذي حاول إنقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل إليه أنه أجرم لإجراماً عظيماً بالفرار منها وتركها وشأنها ؛ فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول : « اللهم اغفر ذنبي ؛ فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتي ، ولكن الله أراد شقائي !»

أما بول المسكين ، فقد جذبه قبل ذلك إلى الشاطئ فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يرتعد ، ويضطرب اضطراب الغصن في مهاب الرياح حتى انقضى ، فسقط مغشياً عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فظللنا نعالجه ساعة طويلة حتى استفاق بعد لأي ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول ، ثم انتفض انتفاضة شديدة ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فأمر الحاكم أن ينقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر طبيبه بالقيام عليه والعناية به ، وظل هو ملازماً له لا يفارقه .

فتركته حيث هو ، وذهبت أنا و دومينج إلى

لينقذها ، فمشى إليها وجثا بين يديها ، وطلب منها أن تخلع ثوبها ؛ ليحملها على ظهره ويسبح بها .
أ تدري ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة ، حينما رأت رجلاً عارياً بين يديها ، يريد أن يضمها عارية إلى جسمه فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب : « أنقذها ! أنقذها !» فوثب الرجل قائماً على قدميه ، ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه .

وهنا ، وا أسفاه ، أقبلت موجة عظيمة كالجلجل الأشم ، تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزجر في اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، فذعر البحار إذ رآها ، وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه ، وألقى بنفسه في الماء .

أما فرجيني فلم تخف ولم تطش ، بل لبثت في مكانها كما هي ، وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، ووضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسيحت بنظرها في الفضاء ، فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه في جو السماء .

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزءاً من هذا المنظر الهائل المخيف ، ثم فتحوها فإذا البحر قد ابتلع كل شيء ، وإذا كل شيء قد انقضى !

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه إلى ركبته ، وأخذ يضطرب اضطراباً شديداً ، كأنما يعالج غصة تعتلج في صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكياً ينشج نشيج الأطفال فهاجني بكأؤه ؛ فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع إلى نفسي إلا بعد حين ، فرأيت لا يزال في ذهوله واستغراقه ، فنبهته فانتبه ، وعاد إلى حديثه يقول :

يا له من يوم عظيم هائل ! يا لها من ذكرى مؤلمة مريرة !

يا لها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت ! لقد مر على تلك الحادثة عشرون عاماً ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامي كأنني لا أزال أراها . إن فرجيني

الكارثة ١٧٧

المسكينتين ذلك الخير الهائل ، وما أحسبني وقفت في حياتي موقفاً أشد من هذا الموقف ، فدخلت عليهما في الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان ، وتدعوان بالله تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على الكائنات ، ويضرب عليها سرادقاً من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرهما عليّ حتى ذعرنا وارتاعنا وصاحتا : « أين فرجيني ؟ »

فلم أستطع أن أنطق بشيء سوى أنني أطرقت برأسي ، فندت مني هيلين ، وقد استحالت إلى شبح من أشباح الموتى ، وقالت لي بصوت خافت متهافت : « هل ماتت ؟ » فاستمررت في إطرقي ، ففهمت كل شيء ، وما هي إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت في مكانها ، لا يختلج في جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتني : « وأين پول ؟ »

فتلطف في قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنني أرجو له حسن العاقبة ، فلم تبعاً بما أقول ، ولم يكن جزعها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبته على ابنتها .

ولا أستطيع أن أصف لك يا بني هول تلك الليلة في ذلك الكوخ ، فلم تكن ليلة بكاء وعويل وولولة وصياح ، كما تكون ليالي الشكل في بيوت التاكلين ، بل ليلة حزن صامت عميق ، يحس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد .

وما أنسى لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة ، وهي ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تتن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط ؛ وتقلب وجهها في السماء تسألها دمة واحدة تروح بها عن نفسها ، فلا تعطاه ! وقد تغمغم أحياناً بكلمات مبهمه ، لا يستمع منها السامع غير قولها : « ابنتي ! حبيبتي ! مسكينة أنت ! الرحمة يا رب ! المغفرة يا إلهي ! »

ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى ؛ لتبكي

الساحل لنفتش عن جثة فرجيني ، وكانت الزويرة قد هدأت قليلاً فقضينا في البحث عنها زمناً طويلاً ، فلم نعثر بها ؛ فاشتد حزننا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الرعب يدب في قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه مثل الجنون : « أ لا يوجد لهذا الكون إله يدبره ويرعاه ؟ » أ لا يوجد بين هؤلاء الناس من يستحق هذه الميتة التي ماتتها هذه الفتاة سواها ؟ »

والنفس الضعيفة تعجز دائماً عن احتمال صدمات القضاء ، فلا تجد بداً حين تصدمها من أن تروح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج في سخطها أحياناً عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فإنها ما أتت إلا من ناحية الإيمان بالله والثقة ببعده ورحمته .

وهنا مر بعض الناس ، وأخبرنا أن التيار قد ألقي ببقايا السفينة على شاطئ الخليج المسمى خليج « وتمبو » ؛ أي خليج القبر ، فذهبنا إليه نرجو أن نعثر بالجثة هناك ، فوجدناها غارقة في الرمل إلا جزأها الأعلى فنبشنا عنها ، فإذا هي على الصورة التي رأيناها عليها في ساعتها الأخيرة ، وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لا يزال يجول في وجهها ، لولا اصفرار قليل في خديها . وإذا هي لا تزال ضامة ثوبها إلى جسمها و واضحة يدها الأخرى على قلبها ، وكان أناملها تقبض على شيء ، ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول پول^(١) التي كان پول قد أهداها إليها قبل سفرها ، فوعده أن تحتفظ بها إلى آخر رفق من حياتها ؛ فكانها تودع صديقها الحميم الوداع الأخير ، في صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرت هذا الإخلاص العظيم كل الإكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص ، لا يغيرها شأن من شئون الحياة أو الموت .

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين ، وعهدت إلى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود . وصعدت إلى الوادي لأبلغ تلك المراتين

(١) پولس الرسول .

الفاكهة حتى وضعنها حول القبر ، وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقاً بيضاء ناصعة ، كعادتهن التي اعتدنها في موتاهن الأعزاء . ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير على عواتقهن ليرسلنها فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجلّ الفضيلة ! وما أعظم شأنها ! إنها الشريعة العامة التي يدين بها الناس جميعاً ، عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديههم ، والمعيد المشترك الذي يقف فيه الجميع صفّاً واحداً ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنغمة واحدة .

وكانوا قد حفروا للميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة في الجانب الغربي من كنيسة بمبلموس كانت تجلس تحتها دائماً هي و پول ، حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين . فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب ، وهرعت الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن ، ويشرن إليه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههن تبركاً ، كما يفعلن أمام تمثال العذراء ، وجأرت^(١) الأمهات بالدعاء إلى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التي منحتها هذه القديسة المباركة ليحيين حياتها ، ويمتن موتتها . وما هي إلا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الفخم الذي خفق في سماء العالم لحظة ، ثم اختفى .

* * *

(٢٥)

أحزان پول

نقلنا پول في محفة إلى كوخه بعد ما أبل^(٢) قليلاً ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التي يتلاقون فيها ، ولكن الله تعالى

(١) جأرت: رفع صوته . (٢) أبل: المريض: برآ .

ولدها ما شاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها في تلك الساعة أعجب منظر رأيته في حياتي . أما دومينج وماري فقد ظلّا يدوران ليلهما حول الكوخ ، يلطمان خدودهما ويخمشان وجوههما ، وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة في جو السماء ، حتى تلفا أو كادا .

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت في صمت وسكون ، من حيث لا يشعر بي أحد ، وانحدرت إلى الشاطئ فرأيت الحاكم قد أعد كل شيء لتشيع جنازة فرجينى ، فكسوا نعشها بصنوف الزهر وأنواع الریحان ، وحمله ثمان من عذارى « سان لوي » لابسات حلالاً بيضاء مشرقة ، وتبعه نحو مائتي طفلة من أطفال الدير يمشين صفوفاً متتالية ، ويحملن في أيديهن سعف النخل وطاقات الزهر ، ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة .

ومشى في المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده منكسي أسلحتهم ، مطرقي رءوسهم ، والناس فيما وراء ذلك بحر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ، وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطئ .

ولم نزل سائرين في طريقنا حتى وصلنا إلى كنيسة «مبلموس» ، وهناك حي الزنوج المساكين الذي كانت تزوره فرجينى في أيام الأحاد ، بعد أداء الصلاة في الكنيسة ، فتعول فقراءه ، وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه ، وتعطف على أيتامه وأرامله ، فخرج رجاله ونساؤه وفتياته ، باكين صارخين ، فبكينا جميعاً لبكاكهم ، وكانت مناحة عامة ، جاد فيها من لم يجُد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء .

ولقد رأيت بعيني أولئك الأبطال الأتجاد ، الذين يأنفون أن يذرفوا دمة واحدة من مدامعهم ، والرماح تنوشهم والسيوف تأخذهم من كل جانب ، يتهافتون على الجذوع والأحجار ، باكين منتحبين انتحاب الأطفال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزمبيق آيات يحملن على عواتقهن أقفاص

أحزان بول ١٧٩

تخذه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه . وكانت تدنو منه هيلين أحياناً فتقول له :

« إنني كلما رأيتك يا ولدي ، يخيل إليّ أن ابنتي لا تزال حية باقية ، أراها وأحادثها ! »

تريد بذلك تسرية همه ، وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم فرجيني حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ، ويخرج من الكوخ هائماً على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه .

وكثيراً ما كان يذهب وحده إلى مخدع فرجيني فيجلس هناك تحت النخلتين المسمايتين باسمه وباسمها ، شاخصاً يبصره إلى البركة التي كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ، وبظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به إلى الكوخ .

وخرج ذات يوم فتمتعته أنا ودومينج ، وكنت أبعه دائماً حيث سار ، فصعد جبل « المورن » ، ثم انحدر إلى سفحه الآخر ومشى في الطريق الموصل إلى كنيسة «ملموس» ، فاستطير قلبي خوفاً وهلعاً ، وخفت أن ينتهي به المسير إلى قبر فرجيني ؛ وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف في وجهه ؛ لأن الطبيب أمرني ألا أحاوله في أمر يريده ، وأن أترك له الحرية في جميع ما يأخذ ، وما يدع ، وقال لي :

« إن هذا هو علاجه الوحيد ، الذي لا علاج له سواه من وحشة نفسه وكآبتها . »

فظل سائراً ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى بلغ مكان القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران يصلي ويتهلل ، فعببت لذلك أشد العجب ؛ لأنني كنت على ثقة من أنه لا يعلم حتى الساعة هل أخرجت جثة فرجيني من البحر أم ذهبت طعاماً للسماك ؟ فلم أجد بداً أنا ودومينج من أن نجثو جثيه ندعو دعاءه ، فالتفت فرأنا ، فسألته : لِمَ يصلي في هذا المكان ؟ فقال : « إنه المكان الذي كنا نجلس فيه معاً ، حينما تأتي إلى هنا أيام الأحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل لي أن هذه البقعة أحب بقعة إليّ على وجه الأرض وأدناها إلى نفسي . » فعملت

جعل خيراً ما كنت أحسبه شراً ، فلم يقع نظرهما عليه حتى نهضتا إليه وضمتاه إلى صدريهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفس الدمع عن تلك الحرقه الكامنة التي ظلت تعتلج في صدريهما يومين كاملين ، وكان شعاعاً لامعاً قد انبعث من عينيه اللامعتين إلى قلبيهما ، فأضاءهما بنور العزاء والسلى ، فطففتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التي كانت تعصف بقلوبهم ، ليلها ونهارها إلى سكون يشبه سكون الموت ؛ فلا نواح ، ولا عويل ، ولا تدمر ، ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التي تنحدر من آماقهم في صمت وسكون .

وبعد هنيهة حضر الحاكم ؛ ليعزي هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلاً عن عمتها ، وعن ذلك المسلك الوحشي الذي سلكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش بول وتناول يده وقال له :

« يجب أن تسافر يا بني إلى فرنسا ، وسأعطيك كتاب وصاة تستعين به على عمل ينفعلك وينفع أهلك ، وسأؤتيك عنك رعاية أميك وكفالتهم في غيبتك . »

فالتقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا يريد منها ، ثم جذب يده منه وأدار وجهه للحائط ، فاكتاب الرجل قليلاً ، ثم نهض وقال له :

« سأعود مرة أخرى يا بني . » وانصرف .

ولم يكن لي يد في هذه الأيام من أن ألزمهم ؛ لأقوم بخدمتهم وقضاء حاجاتهم ، ولأؤتي بنفسي تمريض هذا الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلي ونهاره ما أكاد أفارقه ، حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من علته ، إلا أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما انطفأ في قلبه ذلك المصباح المنير الذي كان يمد حواسه ومشاعره بالنور والإشراق ؛ فأصبح ذاهاً مذهباً به ،

حين أزمّت بهما أزمة الجوع ، ودخل الغابة التي أضلا فيها الطريق حتى أظلمها الليل وهما تائهان مشردان ، وجثا عند الشجرة التي جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث إليهما من يهديهما السبيل . وجلس بجانب الهضبة التي كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعباً مكدوداً ، فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطئ الرملي الذي كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ، ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويلاً على الصخرة التي جلسا عليها ليلة الوداع يتعاطبان ويتشاكيان ، وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها .

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا ظلة ولا كرمة كانا يجلسان إليها ، أو يفيعان إلى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلاً ، كأنما كان يشعر في نفسه أنه مفارقها ، ولا بد له من وداعها ، فهو يودعها وداع الآسف الحزين !

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيداً شريداً ، هائماً مستوحشاً ، يأكل حيث يجد طعاماً ، ويشرب حيث يجد شرباً ، ويأوي إلى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخوّنه^(١) السقم ، وأضواه^(٢) الهم ، فغارت عيناه ، وانكفأ لونه ، وذوت نضرتة ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولاً ، فأزعجني أمره ، ورثيت له ولأمية البائستين المسكينتين اللتين تبكيانه ليلهما ونهارهما ، على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما . ولم أكن فائحته حتى اليوم بكلمة واحدة في شأن نكبته التي نكب بها ؛ رحمة به وإبقاء على حشاشته^(٣) القريحة أن يؤلمها المس ويهيجها البعث . فلما استحال حاله إلى ما أرى رأيت أن أذهب في معالجهته مذهباً غير المذهب الأول ، فجلست إليه ذات يوم وقلت له :

(١) تخوّن: تنقّص ، والمراد أهزله .

(٢) أضواه: أضغفه وأهزله .

(٣) الحشاشة: بقية الروح في المريض .

أنه قد ألهم ، وأن طيب تراب القبر دلّ على القبر . ثم نهض قائماً على قدميه ، وذهب يبصره في السماء ، وظل على ذلك ساعة ، فخيّل إليّ أنه قد طار بنفسه إلى ذلك العالم الآخر ؛ ليفتش عن تلك النفس الحبيبة إليه التي فارقه فراق الأبد ؛ فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم ما لبث أن انتفض انتفاضة شديدة وانحدر إلى شاطئ البحر ، فذعرت وارتعت ، ولم أجد بداً من أن أقف في وجهه ، وقلت له :

« عد بنا إلى الكوخ يا بول ، وكن عند ظني بك . »

فلم يعبأ بما أقول ، واستمر سائراً في طريقه حتى أشرف على البحر وشخص يبصره إلى النقطة التي غرقت فيها السفينة ، فخفت أن يكون قد حدثت نفسه بذلك الأمر العظيم ، فدنوت منه وقلت له :

« إن المنتحر يا بول لا يصعد إلى ملكوت السماء . »

فلم يزد على أن صاح : « آه يا فرجيني ! آه يا فرجيني ! » وسقط مغشياً عليه ، فحملناه إلى الغابة ، ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول أن يتقدم نحو الشاطئ مرة أخرى ، فضرعت إليه ألا يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأي ما استطعنا أن نعود به إلى الكوخ .

وأصبح بعد ذلك لا شأن له إلا طروق الأماكن التي عاش فيها مع فرجيني ، أو اتفق لهما فيها شأن من الشئون ، فزار الملعب الذي كانا يلعبان فيه معاً وهما طفلان صغيران ، ويحفران في رمله الحفر العميقة الواسعة ، ويملأنها بالماء وصغار السمك ، ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق التي مشيا فيها تحت وابل المطر ، وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تقي منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدمية في المحراب . ومشى في الطريق التي مشيا فيها يوم ذهبوا إلى ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجية الأبقية عند سيدها ، ومر بالمكان الذي قطعاً فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعهما الأبيض ،

الموت ١٨١

نكبة من النكبات العظام التي يهلك المرء في سبيلها جزعاً ، وتتساقط نفسه من دونها حشرات ؟ وهل هو إلا الانتقال من منزل إلى منزل ؛ والتحول من موطن إلى موطن ؟! وربما كان الذي تنتقل إليه خيراً من الذي تنتقل منه . ومن أين لك أن الله تعالى لم يرد بصاحبك خيراً ، حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه ما نقلها من هذه الدار إلى تلك الدار إلا لينقذها من شقاء علم أنها ستكابده فيها وستلاقي منه آلاماً جساماً ؟

« وهل يمكن أن يكون لها مصير ، إن قدر لها البقاء في هذه الحياة ، غير هذا المصير بعد ما تجهم لها الدهر ، وحارت بها السبل ، وانتهى أمرها مع عمته بما انتهى إليه من سوء الحال وخيبة الأمل ، وبعد ما قضى عليها أن تقضي بقية أيام حياتها في هذه القفرة المعجدة المحرقة التي لا ماء فيها ولا ثمر ؟ وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك ، تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض الوحل ، وتتسلق الأشجار ، وتعبر الأنهار ، لتعينك وتعين أطفالها المستقلين على العيش ، بعد ما ألفت النعمة والرغد والعيش الهنيء في قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخوراً ولا حجراً ، ولا رملًا ولا مدرًا ؟

« ولم لا يهنؤك ويفرحك ، ويملاً قلبك غبطة وسروراً ، أن تعلم أنها الآن سعيدة في عيشها ، هائلة بمصيرها ، مغتبطة بما وفقت إليه من قدومها على ربها طاهرة نقية ، لم تلوث بصحيفتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الكثير الذي تلوث به صحائف الفتيات ، معجزة أحسن الجزاء على موقفها الشريف العظيم ؛ موقف العزة والأنفة ، والصبر والاحتمال الذي وقفته في ساعتها الأخيرة ؟!

« ومن هو أولى منك وأنت صديقها وحبیبها ، وألصق الناس بها بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذي صارت إليه ؟

« وأنا أجلك كل الإجلال عن أن يكون حبك

« أتعلم يا بول أن فرجينى قد أخلصت إليك إلى آخر رمق في حياتها ، إخلاصاً لم ير مثله راء ، ولا يتحدث بمثله متحدث ؟»

فانتفض قليلاً ورفع رأسه إليّ ورثق^(١) ينتظر ما أقول ، فأخرجت له صورة الرسول بول وأريته إياها ، فاخطفها من يدي بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال :

« وأين وجدتها ؟»

قلت : « على صدر فرجينى حينما وجدنا جثتها على شاطئ البحر ، وقد وضعت يدها عليها ، كأنما تضمك فيها إلى نفسها وتودعك الوداع الأخير .»

قال : « وهل وجدتم جثتها ؟»

قلت : « نعم . وجدناها على ضفة الخليج ، عشية اليوم الذي غرقت فيه ، تحت طبقة من الرمل قد سترت منها الجزء الذي تحب أن تستره من جسمها .»

قال : « وأين دفنتموها ؟»

قلت : « في الجانب الغربي من كنيسة «مبلموس» تحت شجرة الخيزران الكبرى ، حيث ذهبت وجثوت وصلبت من حيث لا تدري .»

فتنفس تنفسة طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه^(٢) ، وأكب على الصورة ينمرها بدموعه وقبلاته ، فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له :

* * *

(٢٦)

الموت

« ما هذه الدموع التي تذرّفها يا بني ، ليلك ونهارك ، ما تهدأ ولا تفتّر ؟ وما هذا الحزن الذي تحمله بين أحناء ضلوعك ، لا يتفرّج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيل ؟ ومتى كان الموت

(١) رثق ، تحيّز . (٢) جمّع خيزوم وهو : الصدر أو وسطه .

(٢٧)

الإيمان

جزى الله الإيمان عنا خيراً ؛ فلولا لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التي نعالجها ، ولولا لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذي يعيننا على المسير في صحراء هذه الحياة القاحلة ، فهو النجم الخافق الذي يلمع من حين إلى حين في سماء الليلة المظلمة المدلهمة ؛ فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفينانة ^(٢) التي يلجأ إليها المسافر من حرور ^(٣) الصحراء وسَمومها ^(٤) ؛ فيجد في ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التي يظفر بها الظام الهيمان ؛ فيقفع بها غلته ، ويفثاً ^(٥) لوعته ، وهو المطرة الشاملة التي تنزل بالأرض القاحلة ؛ فتتهز تربتها ، وتحيي مورتها ، وتبعث في صميمها القوة والحياة .

وهل كنا نستطيع أن نبقي لحظة واحدة في هذه الدار التي لا نفلت فيها من هم إلا إلى هم ، ولا نفرغ من رزء إلا إلى رزء ، لولا يقيننا أن هذه الطريق الشائكة التي نسير فيها إنما هي سبيلنا الوحيد الذي يفضي بنا إلى النعيم ، الذي أعدّه الله في جواره للصابرين من عباده ؟ وهل كان في استطاعة مريضنا الذي يئس من الشفاء ، وفقيرنا الذي عجز عن القوت ، وثاقلتنا التي فقدت واحدتها من حيث لا ترجو سواه ، أن يحتفظوا بقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة ، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضي بانقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى في عالم غير هذا العالم ، لا سقم فيها ولا مرض ، ولا بؤس ولا شقاء ؟

إياها حباً مادياً ، يزعجه افتراق الأجسام ، ويكدر صفوه اختلاف الموطن والمقام ؟ ولو أنك عدت إلى نفسك قليلاً لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأ عنك ، وأنها جالسة إليك تحذئك وتسمع حديثك ؛ ولا شك عندي في أنها عاتبة عليك أشد العتب في هذه العجاجة ^(١) السوداء من الحزن التي تثيرها على أثرها ، كأنها ذاهبة إلى الجحيم تستقبل أنواع العذاب وألوان الآلام ، أو كأن كل الذي كان يعينك منها شهواتك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتها كما يكي الطفل لعبته النافقة ، وكأنني أسمعها تهتف بك قائلة :

« لا تبك يا بول ؛ فإنني سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربي ورضوانه ، متقلبة في أعطاف نعمته التي أسبغها عليّ مكافأة لي على صبري واحتمالي ، وما استقبلت به هموم حياتي وآلامها من سكينه وجلد ، فاصبر كما صبرت واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ، ويرفعك إلى المنزلة التي رفعتني إليها ، فنعيش معاً في سعادة دائمة ، ليست سعادة الدنيا بالإضافة إليها إلا وهماً من الأوهام ، أو حلماً من الأحلام . »

فلم يزد أن رفع رأسه إليّ وقال لي : « ما دامت الحياة شقاءً وعذاباً ، وما دام الموت سعادة وهناءً ، وما دامت فرجيني تنتظرني في علياء سمائها ؛ لأعيش بجانبها العيش الذي أرجوه وآمله ، ولا أؤثر عليه عيشاً سواه ، فلا خير في الحياة من بعدها ، وما أشوقني إلى الذي يدنيني منها ! »

وهنا علمت ألا حيلة لي فيما قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفذ يده من هذه الحياة إلى الأبد ، ولا يد في العالم تستطيع أن تديره إلى وجهة غير الوجهة التي يسير فيها ، غير يد الله ، فقامت وقام ، ولا أسف في الدنيا أعظم من أسفي عليه ، ولا فجيعة أكبر من فجيعتي فيه !

* * *

(٢) الفينان: ذو الأفنان . (٣) الحرور: الحر الدائم، وحر الشمس .

(٤) السُموم: الريح الحارة ، والحر الشديد النافذ في المسام .

(٥) يَفْثاً: يكسر سخونتها بالتبريد .

(١) العجاجة: مُفردُ العجاج؛ وهو الدخان، والغبار .

فحركته فإذا هو ميت ، فحفرنا له ودفناه معها في قبرها . وأما مرغريت ، فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته ، قضتها صابرة متجلدة ، لا تذرف لها دموع ، ولا تصعد لها أنه ، وكان وداعها لصديقتها وداعاً هادئاً ساكناً ، لم تزد فيه على أن قالت لها : « سنلتقي هناك . » كأنما فترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها . وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقيق ، في ذلك الكوخ البسيط ، لا يحيط بها غيري وغير ماري ودومينج ، بعد الملك الكبير ، والجنة والحرير والنعمة السابغة ، والمتعة الواسعة ! أما أنا ...

وهنا سكنت سكتة طويلة ، كانت أوصاله ترتد فيها ارتعاداً شديداً ، ثم قال بصوت خافت متهدج : « فقد بقيت وحدي . » وانفجر باكياً بكاء ثاقل فجعلها الدهر في أفلاذ كبدها جميعاً في ساعة واحدة ، فلا صبر لها ولا عزاء . وبعد لأي ما استطاع أن يعود إلى حديثه فقال :

وهنا لم أجد بداً من أن أنقل ماري ودومينج إلى كوخني ، فلم يعيشا بعد مواليهم بضعة شهور ثم لحقا بهم ، فخلت الأرض منهم جميعاً ، حتى من كلبهم ، وماشيتهم ، وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجساداً هامدة ، وعظاماً نخرة ، تسفي عليهم السوافي ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون ، كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والأمم الخالية ! ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التي تراها .

وقد خلّد أهل الجزيرة ذكرهم في كثير من الأماكن التي عاشوا فيها ، فسموا الرأس الذي عجزت السفينة عن اجتيازه ، فكان في ذلك هلاكها « الرأس البائس » ، والخليج الذي وجدت جثة فرجينى على شاطئه دفيناً في الرمل « خليج القبر » ، والمضيق الذي غرقت فيه السفينة « مضيق سان جيران » ، وسموا مخدع فرجينى التي كانت تخلو فيه بنفسها « كهف الفتاة » ، وشجرة الخيزران التي ظللت قبرهم جميعاً « الشجرة المقدسة » ، والوادي الذي عاشوا فيه « الوادي السعيد » ، ثم لم تلبث الأيام

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت في أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التي تقض أصلاص الصفا ، وتذيب لفائف القلوب ، فكنت إذا دخلت عليهما ، رأيتهما في فراش مرضهما صابرتين محتملتين ، كأنهما لا تعالجان في أعماق قلوبهما أشد الآلام النفسية وأهولها . فإذا نظرنا نظرتنا إلى السماء ، وإذا نطقنا نطقنا باسم الله وسألناه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم لا تلبث أعينهما أن تتلأأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع في نفسيهما أن الله قد استجاب دعاءهما ، وتقبل قربانهما ، و وعدهما المثوبة العظمى في دار نعمته وجزائه .

ولقد دخلت صباح يوم على مرغريت في اللحظة التي استيقظت فيها من نومها ، فقصت علي أنها رأت فرجينى في منامها تسبح في غمرة من النور ، وقد لبست قميصاً أبيض فضفاضاً ، كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رويداً رويداً ، حتى أصبحت في حرم الأرض ، فمدت يدها إلى پول فأخذت به من ضَبْعَيْهِ^(١) ، وطار في جو السماء ، فتشبثت بردائه فطرت وراءه ، ولا أعلم كيف طرت ، ثم نظرت تحتني فإذا هيلين طائرة ورائي ، وإذا ماري و دومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين في كوخها في الساعة نفسها فقصت علي هذه الرؤيا بعينها ، فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وإن كانوا لا يزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين الملائكة المقربين !

ولقد صدقت هذه الرؤيا كما هي ، أما پول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج في بعض خرجاته التي اعتادها دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده ، فانحدرت إلى حي بمبلموس فوجدته جاثياً على قبر فرجينى ، وقد ضم إلى صدره صورة پول الرسول التي خلقتها له ،

(١) الضَّبْع : ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها .

القوم أمرها إلى القضاء وانهموها بالجنون ، ولم يزلوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان ، وسكنوا قصرها من بعدها ، و وضعوا أيديهم على مالها . وكان الله قد أراد أن يسقيها الكأس حتى ثملاتها فأبقى لها من الفهم والإدراك ما تستطيع به أن تعلم أن مالها الذي تعبت كثيراً في جمعه وتديبره ، واقترفت كثيراً من الذنوب والآثام في سبيل الاحتفاظ به والحرص عليه ، يتمتع به في حياتها خصوصاً وأعداؤها ، فنال ذلك منها مثلاً عظيماً ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها إلى قبرها .

وكذلك ينتقم الله من الأشحاء الذين يضمنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله إلى الأيدي التي لا تستحقه ؛ سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ! وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على ما يدور حوله وأنشأ يقول :

« سلام عليكم أيها القوم الأبرار ، والملائكة الأطهار ، لقد عشتُم ما عشتُم في هذه الدار ، وأنتم غرباء عنها ، لا تعرفكم ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسون بها ؛ لأنكم من عنصر غير عنصرها وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم إليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم حافل ، فكنتُم كحلم للذيد ، ألم بالعيون الهاجعة ، ثم مضى لسبيله !

« هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ، ومساكنكم لا يأوي إليها غير الضبِّ واليربوع ، ولا يسمع فيها غير الزئير والنعواء ، فلا نور ولا نار ، ولا روض ولا ماء ، ولا مرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عين ولا أثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكان ذهابكم القيامة التي تزلزل كل شيء وتأتي على كل شيء !

« سلام عليكم يا بنيّ ، لقد كنتُم أنسي وحياتي ، وسلوتي وعزائي ، ومتعة نفسي وراحة ضميري ، والروضة الأنف التي أقطف ما أشاء من أزهارها ورياحينها ، وألجأ إلى ما أحب من ظلالها وأفيائها ، أما اليوم فقد سمج وجه الدنيا في نظري ،

أن تذهب بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ؛ لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ، ولا يفهمون معناها ، فوا رحمته لهم ! لقد ضن الدهر عليهم بكل شيء حتى بالذكرى !

وقد علمت بعد مرور بضعة سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التي ضنت بمالها على ابنة أخيها ، وتركتها تموت بؤساً وجوعاً في هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمت منه حفيدتها وتركتها تهلك يأساً وهماً في أعماق المحيط ، لقيت جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرجينى وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون ، ومالت رأسها الوسواس والهواجس ؛ فكانت تندبهما تارة وبكي مصيرها حتى تشرف على التلف ، وتهون على نفسها أمرهما تارة أخرى ، قائلة إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتهما ، فكان ما قدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما رأتهم في طريقها فتصيح :

« أما كان خيراً لهؤلاء الأشقياء أن يذهبوا إلى المستعمرات الإفريقية ، فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ؟ »

ثم لا تلبث أن تشعر بالعطف عليهم والراء لهم ؛ فتذهب إلى الكنيسة بمال كثير تضعه في صندوقها باسمهم ، كأنها تظن أن الله تعالى يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التي تقدمها إليه ! وكانت لا تزال ترى في يقظتها ومنامها ، وقومتها وقعدتها ، وذهوبها وجيئتها أشباحاً مخيفة تلوح لها في وجهها ، وتهدهدها أظفح تهديد وأهولة فترفض هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفرع إلى الكاهن تسأله أن يشفيها من دائها ، وما داؤها إلا ذنوبها وآثامها التي أسلفتها ! فما حيلة الكاهن فيها ؟

وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين ، الذين لا تحبهم ولا يحبونها ، سيرثونها من بعدها ، اشتد ذلك عليها كثيراً ، فتخرج إلى الطريق حاملة بدرة من الذهب في يدها فتشرها نثرًا ، فرفع هؤلاء

النهاية ١٨٥

عشرين عاماً ، يندبكم ويكيكم ، ويسأل الله أن يلحقه بكم ، فلا يستتب له ما يريد !»

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائماً ، كأنه يقتلع نفسه من الأرض اقتلاعاً ، وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة في تلك الساعات القليلة التي قضاها معي ، فأصبح حِمَامُهُ اليوم أو غداً . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، ولم يبق منها في دائرة الأفق إلا كما يبقى في جنبات الكأس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى في طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ، ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنّة الهاطلة ، فلبثت في مكاني ، أنظر إليه وقلبي يذوب رحمة به وإشفافاً عليه ، حتى انحدر في بعض البطون وغاب عن نظري .

* * *

(٢٨)

النهاية

عدت إلى منزلي الذي أنزلته ، وحاولت أن أوي إلى مضجعي فنيا^(١) بي ، وأن أستزير الغمض فامتنع عليّ ، وأن أهدأ في مكاني ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر ما يشغلني وينفر النوم عن عيني حالة ذلك المسكين ؛ فقد هاجت تلك القصة التي قصها عليّ أُمّاً دفيناً في نفسه وشجناً كامناً ، فاستحال في بضع ساعات إلى هيكل من العظم ، تتردد أنفاسه في صدره تردد الريح في جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عني يمشي مشية الطائر المذبوح ، يجر شِلْوُهُ^(٢) جرّاً ؛ وتمثل لي أنه الآن طريق فراشه ، في زاوية من زوايا كوخه ، يكابد آلام المرض أو آلام النزاع من حيث لا يعينه معين ، ولا يرحمه راحم ،

(١) نبا الشيء: لم يستقر في مكانه المناسب له .

(٢) الشِّلْو: العضو، والبقية من كل شيء .

وأصبح عبء الحياة ثقيلاً على عاتقي ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به .

« سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم ، الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجاً بسيطاً ، لا ينال الناس بشرّاً ولا يعتقد في الناس شرّاً ، ولا يضمّر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص ، حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذي يفيء إليه !

« سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة ، التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عاقل له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقاً لا تسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحياتها بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ؛ ضناً بجسمها أن تلمسه يد منقلدها !

« سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان ، اللتان علمتا ولديهما الفضيلة وغذتاهما بلبانها ، فكانتا خير الأمهات لخير الأبناء ، واللذان لم تسخطا في حياتهما يوماً واحداً ، ولم تنقما ، ولم تشكوا لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصائب ونالهما من الأرزاء ؛ ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكوناً لقضائه وقدره ، حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البودقة طهارة وصفاء !

« سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان ، اللذان حفظا الصنعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراهما من حيث لا يشكرها شاكراً ، ولم يحل سواد جلدتهما وخشونة منبتهما ووحشة نفسيهما من أن يحملا بين جوانحهما عواطف الود والإخاء ، التي لا يزال البيض في أوروبا ينشدونها في كل مكان ، على ألسنة كتابهم وشعرائهم ، وخطبائهم وعظماهم رجاء الوصول إليها ؛ فلا يجدون إليها سبيلاً .

« سلام عليكم يا بنيّ من والدكم الحزين الباكي ، الذي بليت عظامكم في قبرها ، ولم يبل ذكركم في قلبه ، والذي ظل يختلف إلى واديكم

فاشند ذلك علي كثيرًا ، وشعرت بشعبة من شعب
قلبي قد سقطت .

پول وفرجيني

يا بني القفر سلام عاطر
من بني الدنيا عليكم وثناء
وسقى العارض من أكواخكم
معهد الصدق ومهد الأتقياء
كنتم خير بني الدنيا ومن
سعدوا فيها وماتوا سعداء
عشتم من فقركم في غبطة
ومن القلة في عيش رخاء
لا خصام ، لا مرأ بينكم
لا خداع ، لا نفاق ، لا رياء
خلق بر وقلب طاهر
مثل كأس الحر معنى وصفاء
وفاء ثبت الحب به
وثبات الحب في الناس الوفاء
أصبحت قصتكم معتبرا
في البرايا وعزاء البؤساء
يجتلي الناظر فيها حكمة
لم يسطرها يراع الحكماء
حكم لم تقرأوا في كتبها
غير أن طالعتم صحف القضاء
وكتاب الكون فيه صحف
يقرأ الحكمة فيها العقلاء
* * *

إن عيش المرء في وحدته
خير عيش كافل خير هناء
فالسورى شر وهم دائم
وشقاء ليس يحكيه شقاء

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على
زيارته في واديه ، على بعد الشقة بيني وبينه ؛ لأنفق
شأنه ، وأقضي حق صحبته ، فسلكت الطريق التي
وصفها لي مرارًا في حديثه ، ولم أزل أبعده النجاد ،
وأهبط الوهاد ، وأضل مرة ، وأهتدي أخرى ، حتى
أشرفتُ مُنزَلًا الشمس عن كبد السماء على كوخه
المنفرد في ذلك الوادي الموحش ، فأنحدرت إليه .
وكنت أرجو أن أراه واقفاً على بابي ، أو جالساً على
مقربة منه ، فلم يقع نظري على شيء ، وكان
السكون سائداً عميقاً ، لا يسمع فيه السامع نأمة ولا
حركة ، كأنه سكون المقابر ، اللهم إلا عصفوراً
صغيراً يغرد من حين إلى آخر تغريدة شجية مؤثرة ،
كأنما هو يوقع لحناً من الألحان المعجزة على نغم
واحد ، وميزان مطرد . فرفعت نظري إليه فإذا هو واقع
على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ، ذكرت
عند رؤيتها أنها الشجرة الوحيدة ، التي حدثني عنها
أن فرجيني غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد ، وأنه
يحبها كثيراً ويأنس بها من أجلها ، فدنوت منها
فراعتني أن رأيت تحتها شبحاً معفراً بالتراب ، فتبينته
فإذا هو الشيخ ، فحركته فإذا هو ميت ! فهالني الأمر
وتعاطمني ، وشعرت بقلبي يتمزق لوعة وأسى ،
وبنفسه تسيل رحمة وإشفاقاً ، وقلت :

« يا له من رجل مسكين ! لقد مات ، ولا صديق
يوسد رأسه أو يسبل أجفانه ، ولا عين تبكي عليه غير
ذلك العصفور الصغير الذي ينوح فوق رأسه ! »

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة
التي مات تحتها ، والتي كان يحبها ويأنس بها ، ثم
انصرفنا .

ولا عين إلا وهي عين من البكا

ولا خد إلا للدموع به خد

انتهت

١٨٧ بول وفرجينى

ونقص ما أبرمه عهد الإخاء
ودعاها الشوق للفقير وما
ضم من خير إليه وهناء
فغدت أهواؤها طائفة
بجناح الشوق يزجيها الرجاء
يأمل الإنسان ما يأمله
وقضاء الله في الكون وراء
* * *
ما لهذا الجو أمسى قاتماً
ينذر الناس بويل وبلاء
ما لهذا البحر أضحى مائجاً
كبناء شامخ فوق بناء
وكأن الفلك في أمواجه
ريشة تحملها كف الهواء
و (لفرجينى) يد مبسوطة
بدعاء حين لا يجدي دعاء
* * *
لهفي والماء يطفو فوقه
هيكल الحسن وتمثال الضياء
زهرة في الروض كانت غضة
تملاً الدنيا جمالاً وبهاء
من يراها لا يراها خلقت
مثل خلق الناس من طين وماء
ظنت البحر سماء فهوت
لتباري فيه أملاك السماء
هكذا الدنيا ، وهذا منتهى
كل حي ، ما لحي من بقاء !
مصطفى لطفي المنفلوطي

وفقير لغني حاسد
وغني يستذل الفقراء
وقوي لضعيف ظالم
وضعيف من قوي في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم
ونجاء منهم أي نجاء
إن عيش المرء فيهم ذلة
وحياة الذل والموت سواء
* * *
ليت (فرجينى) أطاعت (بولسا)
وأناثته مناه في البقاء
ورثت للأدمع اللاتي جرت
من عيون ما درت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقه
ساعة لكنه رأي القضاء
فارقته لم تكن عالمة
أن يوم الملتقى يوم اللقاء
ما (لفرجينى) و (باريس) أما
كان في القفر عن الدنيا غناء ؟
إن هذا المال كأس مزجت
قطرة الصهباء فيه بدماء
لا ينال المرء منه جرعة
لم يكن في طيها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهرا
يدهش الأبواب حسناً ورواء
وأروها زخرف الدنيا وما
راق فيها من نعيم وثرءاء
فأبته وأبى الحب لها

رقم الكمبيوتر 01 C 199102

رقم الإيداع : ١٩٩١/٢٤٥١

الترقيم الدولي : ٣-١٩-٠٠١٦-٩٧٧ ISBN

طبع في دار العالم العربي للطباعة

يطلب من : شركة أبو الهول للتشييد

٢ شارع شواربي بالقاهرة